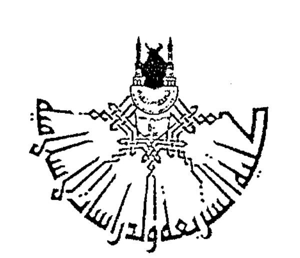


بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية



نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم رباعي	هيام صالح يحيى ابو المعزج	كلية	الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم	الدراسات العليا التاريخية والحضارية	التخصص	التاريخ الإسلامي
الأطروحة مقدمة لنيل درجة	الماجستير في التاريخ الإسلامي		

عنوان الأطروحة: مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤ - ٩٢٣هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧م)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد . .

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه والتي تمت مناقشتها

بتاريخ / / ١٤هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم فإن اللجنة

توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه .

والله الموفق ،،،

أعضاء اللجنة :

المشرف :	المناقش :	المناقش :
الاسم : د عبد الله بن سعيد الغامدي	الاسم : د عادل بن محمد نور غباشي	الاسم : د محمد عبد الله عاجي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

أ . د ضيف الله بن يحيى الزهراني .

يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

الرقم .... التاريخ .... / / ١٤هـ المشفوعات : ....

مطابع جامعة أم القرى





المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية

(٧٨٤-٩٢٣ هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد :

الطالبة / هيام صالح يحيى أبو الفرج

إشراف :

أ . د / محمد المنسي محمود عاصي

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف موجز

بالبحث المقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي إلى قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية وعنوانه (مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية ٧٨٤ – ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ – ١٥١٧م) .

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

اشتملت الدراسة على **مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة وثلاثة ملاحق ، وخريطة** توضيحية لمدينة دمشق في عصر الدراسة ، وفهرس لأبرز المصادر والمراجع ، ثم ختمت بفهرس للموضوعات .

فأما **المقدمة :** فاقتصرت فيها على أسباب اختيار الموضوع وأهميته وعرض لأهم مصادر ومراجع البحث .

وفي **التمهيد:** عرفت تعريفًا موجزًا بالأوضاع السياسية العامة للدولة المملوكية الثانية في بلاد الشام ، كما استعرضت موقف نيابات الشام في كثير من الأحداث السياسية التي حدثت في عصر دولة المماليك الثانية .

وكان **الفصل الأول** وعنوانه (البنية الاجتماعية في دمشق في عصر دولة المماليك الثانية) وتحدثت فيه عن : طبقات المجتمع وعناصر السكان ، المماليك ، العلماء وأصحاب الأقلام ومياسير التجار ، والعامة ، واليهود والنصارى .

وتناول **الفصل الثاني** وعنوانه (الوضع الإداري لدمشق في عهد الدولة المملوكية الثانية) واشتمل الفصل على عدة مباحث : نظم الحكم والإدارة ، أرباب السيوف ، الوظائف الديوانية ، الوظائف الدينية كالحسبة والقضاء ونقابة الأشراف .

وأما **الفصل الثالث** وعنوانه (دور طبقات الشعب في الأنشطة السياسية) وبينت فيه الدور السياسي لأهل العلم والعلماء ومكانتهم ، ودور طوائف العامة في الأحداث السياسية الداخلية والخارجية ، مع بيان مشاركات أهل الذمة في الأحداث .

وفي **الفصل الرابع** كان الحديث عن (الثورات الشعبية في دمشق) وبينت فيه أسباب الانتفاضات ، ودور العلماء فيها وموقف العامة من صراع الأمراء على الحكم .

أما **الفصل الخامس** والأخير فتحدثت فيه عن (النشاط السياسي والعسكري لسكان دمشق في صد عدوان تيمورلنك) وشرحت أسباب الحملة ونتائجها ، ودور سكان دمشق في الدفاع عنها .

وانتهى البحث بخاتمة احتوت على أهم نتائج البحث التي توصلت إليها ، ومجموعة من الملاحق ، وخريطة مصورة لمدينة دمشق في العصر المملوكي .

والحمد لله أولاً وآخرًا ،،،

الطالبة	المشرف	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
هيام صالح يحيى أبو الفرج	أ.د/ محمد المنسي محمود عاصي	أ.د/محمد بن علي العقلا
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وقل ربي زدني علماً ﴾

« صدق اللّـه العظيم »

إهــداء

أهدي خلاصة جهدي ، وثمرة عملي إلى رفيق حياتي ، الذي أخذ بيدي ، وشد من أزري ، ووجدت منه الحنو والتشجيع والرعاية الصادقة .

إلى زوجي : سامي كعكي .

هيام صالح أبو الفرج


المقدمة

الحمد للّه رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

ظهر المماليك في صورة ورثة الأيوبيين في حكم مصر والشام ، وحرص المماليك منذ أن استقرت لهم الأوضاع في تلك الأقطار على إقرار الأمن في دولتهم وتكوين دولة قوية ، حتى يمكن السيطرة على مجريات الأمور بها . وكانت حركة المماليك حركة تصحيحية للوضع السيء الذي كان قائمًا في مصر والشام وخاصة بعد احتدام الصراع بين الملك الصالح نجم الدين أيوب وعمه الصالح إسماعيل بالإضافة إلى تعدد المماليك الأيوبية وتكرار الحروب الأهلية التي كانت تشتعل لأبسط الأسباب .

ولقد قسم المماليك بلاد الشام إلى ستة أقسام إدارية أساسية تسمى نيابات تخضع للحكومة المركزية في القاهرة ، وهذه النيابات هي : نيابة دمشق ونيابة حلب ، ونيابة طرابلس ، ونيابة حماة ، ونيابة صفد ، ونيابة الكرك .

ولقد أنشئت نيابة دمشق سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م . في عصر دولة المماليك البحرية عقب انتصار المظفر قطز في عين جالوت .

وكانت نيابة دمشق كبرى النيابات الشامية حتى اطلق عليها صاحب صبح الأعشى « مملكة الشام » ووصفها بأنها أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها في الرتبة ، وكان يتولى أمرها والٍ ينظر في شئونها لا يقل وزنه السياسي عن السلطان الحقيقي نفسه في القاهرة بل على حد تعبير ابن فضل اللّه العمري (سلطانًا مصغراً) .

وكان أهل دمشق لا يختلفون كثيراً عن أهل القاهرة من حيث أنهم مغلوبون على أمرهم ، يخضعون لطبقة عسكرية مستبدة هي طبقة المماليك

التي استأثرت بالحكم والسلطان والوظائف وحرمتهم من المشاركة في أي أمر من أمور بلادهم ، وكان أهل دمشق يحسون بعظمتها ومكانتها منذ فجر التاريخ ، ونبع هذا الإحساس من اعتزازهم بأنفسهم وكراهيتهم للظلم وعشقهم للحرية ، فكانوا نبض المدينة وإحساسها المتوقد في الأزمات السياسية والاقتصادية في عصر دولة المماليك الثانية (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ)، ومع ازدياد الوعي السياسي وتطورات الأحداث الداخلية والخارجية صارت دمشق قاعدة للنضال السياسي والشعبي في بلاد الشام ، وظل سكانها - الذين يمثلون كل فئات الشعب المختلفة - قادة للنضال ضد الأخطار الخارجية .

من هذا المنطلق يكمن العامل الرئيسي في اختيار موضوع البحث عن (مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية) مستهدفين توضيح هذا الدور الذي قام به الدمشقيون في كل أشكال العمل السياسي ، مع إلقاء الضوء على دور الطبقات المختلفة في ذلك العمل وبيان طبيعته .

ولقد ساعد على وجود رأي عام مستنير قام بدور كبير في التوعية السياسية ، كثرة العلماء، وكانت آراؤهم نبراسًا يضيء طريق العمل السياسي، كما كان غضبهم وقوداً يشعل أركان المدينة بنار الثورة ضد بعض الأوضاع الداخلية التي رفضوها .

ولعل من أبرز مظاهر العمل السياسي الخارجي ، ما قام به العلماء من مفاوضات مع تيمورلنك أثناء حصاره لمدينتهم ٨٠٢ هـ ، بعد أن تخلى عنهم الحكام المماليك حكام البلاد ، كما اتخذ العلماء في تلك الأزمة قراراً سياسيًا خطيراً بالدعوة إلى عزل السلطان فرج بن برقوق ، بعد أن تخلى عن نجدة دمشق وإقامة سلطان كبير راشد ذي تجربة وخبرة بدلاً منه .

ولا ننسى مشاركة الأغنياء من التجار ووجهاء المدينة وقيامهم بشراء الأسلحة والمؤن وتوزيعها على الناس - من أهل المدينة واللاجئين إليها من حلب وحماه وحمص - استعداداً لقتال التتار .

ومن أكثر الأشكال السياسية وضوحًا كثرة الانتفاضات التي قام بها العامة في دمشق آنذاك للتعبير عن مطالبهم وإظهار سخطهم ورفضهم لكثير من القرارات الظالمة والمكوس الجائرة .

من هذا المنطلق كان للبحث أهميته وأهدافه ، ولعل من أبرزها :

١ - القاء الضوء على نشاط المجتمع في دمشق في المجال السياسي الداخلي والخارجي ، إذ أن دوره غالبًا كان الخروج عن حدود المتفرج إلى المشاركة في صنع الأحداث ، ومشاركة السلطة المملوكية في صد بعض الاعتداءات الخارجية .

٢ - ونتيجة لذلك فموضوع الدراسة جديد لم يتناوله أحد من الباحثين بالدراسة التفصيلية الدقيقة حسب علمي ، فما زالت حياة المجتمعات الاسلامية في المدن المختلفة يسودها الغموض ولم يعتن المؤرخون بالتدوين لها ، اللهم إلا بإشارات موجزة في المصادر المختلفة .

٣ - ولقد نتج ذلك عن تركيز المؤرخين على طبقة المماليك التي انفردت بمزاولة السلطة ، وسائر الأنشطة في المجتمع ، حتى صار ذلك التفرد سببًا رئيسيًا في حرمان سائر الطبقات في المدن من الحديث عنها في المصادر والمراجع إلا بعبارات مقتضبة ، مما اقتضى مزيداً من البحث والتحري والتحليل لتلك المادة التاريخية البسيطة .

وقد اشتملت الرسالة على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة وثلاثة

ملاحق ، وخريطة توضيحية لمدينة دمشق في عصر الدراسة ، وفهرس لأبرز المصادر والمراجع ، ثم ختمت بفهرس للموضوعات .

فأمّا **المقدمة** : فاقتصرت فيها على ذكر سبب اختيار الموضوع وأهميته وعرض لأهم مصادر ومراجع البحث .

وفي **التمهيد** : عرَّفت تعريفًا موجزاً بالأوضاع السياسية العامة للدولة المملوكية الثانية في بلاد الشام ؛ باعتبار أنها الجناح الأيمن للدولة ، بالإضافة إلى إدراك المماليك لأهمية نواب الشام، وما يمثلونه من خطورة على السلاطين، واستعرضت مواقف ومشاركات نيابات الشام في كثير من الأحداث السياسية التي حدثت في العصر المملوكي .

وكان **الفصل الأول** وعنوانه (البنية الاجتماعية في دمشق في عصر دولة المماليك الثانية) وشمل الصفحات (من ٢٨ إلى ٨٤) وتحدثت فيه عن طبقات المجتمع وعناصر السكان ، مع إبراز دور الطبقة الخاصة فيه وهي طبقة المماليك وعَرَّفت بأهم الامتيازات والاقطاعيات التي تمتعت بها في دمشق واعتماد ذلك على القوة العسكرية الغاشمة ، كما فصلت دور الطبقة المتوسطة وتشمل العلماء وأصحاب الأقلام ، ومياسير التجار ، وأشار المبحث إلى الوظائف الدينية التي تولاها العلماء ومدى احترام طبقات الشعب لهم نظراً لكفاء تهم وأمانتهم وتدينهم ، وتناول الفصل دور طبقات العامة في التفاعل مع المجتمع ونشاطهم في الانتفاضات المختلفة ، كما اشتمل المبحث على دور الطوائف الأخرى كاليهود والنصارى وعلاقتها بالمجتمع وأنشطتهم الاقتصادية والدينية .

وتناول **الفصل الثاني** (الوضع الإداري لدمشق في عهد الدولة المملوكية الثانية) واشتمل على عدة مباحث(من ص ٨٥ إلى ص١٦٠) عن

أهميـة ولايـة دمـشق بـين ولايات الشـام ، كـما تنـاول الفـصل نظم الحكم والإدارة التي قسمتـها إلى ثلاث وظائف وهي وظائف أرباب السيـوف الخاصة بالقيـادة السيـاسـية ويسيطر عليـها كبـار الأمراء من المماليك ، والوظائف الديوانيـة وهي وظائف الإدارة وكان يسيطر عليها هي الأخرى طبقـة المماليك حسب درجتـهم العسكرية، وختـمت الفصل بالحديث عن الوظائف الدينيـة كالحسبة والقضاء ونقابة الأشراف ، وكان يتولاها العلماء ، ولقد شرحت في هذا المبحث كل وظيفة ونوعها وأهميتها والصلاحيات الممنوحة لشاغليها .

وعالج **الفصل الثالث** بمباحثه الثلاثة (دور طبقات الشعب في الأنشطة السيـاسيـة) (من ص ١٦١ إلى ص ١٩٠) وبينت فيـه : مكانة أهل القلم والعلماء ودورهم السيـاسي في المجتـمع وأبرزهم نشـاطًا ، ودورهم السيـاسي والقيادي في مجتمع دمشق وأبرزت أثرهم في قيادة الرأي العام وانهم كانوا بمثـابة عـقل الأمـة المفكر الذي يقـود الرأي العـام الشـعبي ، وأبرزت معنى المصطلح الذي أطلقه المؤرخون في ذلك العصر وهو (طوائف العامة) فبينت المقـصـود منه وأبرزت دور هذه الطوائف في الأحـداث السـيـاسـيـة الداخليـة والخارجية ، كما أن لأهل الذمة كثيراً من المشاركات في الأحداث المختلفة ، إذ لم يكونوا طبقة منفصلة عن المجتمع بل كانوا يتفـاعلون مع الأحداث فـأبرزت دورهم السياسي وعلاقتهم بالطبقات الأخرى .

وفي الفـصل الرابع كـان الحديث عن (الثـورات الداخليـة في دمـشق) بمباحثه الثلاثة ، (من ص ١٩١ إلى ص ٢٢٥) ، وهذا الفصل نتيجة للفصل السـابق ، وبينت أسبـاب الانتـفـاضـات والاجـراءات المملوكيـة السيـاسيـة أو الاقتصادية أو الاجتماعيـة التي أدت إلى إشعال هذه الانتفاضات ، وبينت دور العلمـاء والعامة فيها ، ثم ختمت الفصل بموقف العامة من الصراع بين الأمراء



المماليك وكيف أن العامة بذكائهم استغلوا الفرصة وحققوا كثيراً من المكاسب لمدينتهم .

أما الفصل الخامس والأخير وهو من أبرز فصول الرسالة فيتحدث عن (النشاط السياسي والعسكري لسكان دمشق في صد عدوان تيمورلنك) ولقد شرحت في هذا الفصل بمباحثه الثلاثة ، (من ص ٢٢٦ إلى ص ٢٧٩) حملة تيمورلنك على دمشق وأسبابها وما ترتب عليها من تدمير وتخريب ، ثم كشفت عن عجز المماليك في الدفاع عنها ، وكان المبحث الأخير عن دور سكان دمشق في التفاوض مع تيمور ومحاولة صد العدوان .

وأخيراً تضمنت الرسالة خاتمة تبرز أهم النتائج التي توصلت إليها الطالبة ومجموعة من الملاحق تشتمل على قائمة بأسماء سلاطين دولة المماليك الجراكسة وأخرى تشتمل على ولاة دمشق في هذه الفترة وخريطة مصورة لمدينة دمشق في العصر المملوكي .

عرض لأهم مصادر و مراجع البحث :

ولقد اعتمدت في هذا البحث على كثير من المصادر والمراجع المملوكية وغيرها التي أمدت البحث بمادة علمية تاريخية جيدة ، وبعضها كان معاصراً للأحداث مما كان له أبرز الأثر في الكشف عن كثير من الأحداث ونتائجها ، وبعض المصادر كان قريب العهد من المعاصرة ، فكان شارحًا ومكملاً لبعض جوانب النقص في المصادر السابقة ، وأتاح عدم المعاصرة لهذه المصادر حرية النقد لكثير من الأحداث التاريخية ، كما اعتمدت على بعض المراجع الحديثة التي كشفت النقاب عن كثير من الجوانب الهامة ، كما استفدت من آراء كتابها في كثير من أحداثها ، كما قمت بمناقشة بعض الآراء والرد عليها.

وسأقتصر في هذا العرض على التعريف ببعض هذه المصادر والمراجع :

أولاً - الموسـوعات :

الأولى : « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » لشهاب الدين أحمد بن محي الدين يحيى بن فضل الله العمري ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م ، وموسوعته تشبه موسوعة النويري (نهاية الأرب في فنون الأدب) وتعتبر موسوعة العمري مصدراً رئيسيًا لتاريخ مصر والشام وحضارتهما لا سيما ما يتعلق بمادته التاريخية والحضارية في العمران والتجارة المملوكية والمواصلات والأسواق التجارية الموسمية ومراكز البريد ، وجاء ت موسوعته مشتملة على شتى أنواع المعارف الانسانية المعروفة في زمانه[1] ، ويمدحه الصفدي صاحب الوافي بالوفيات بأنه أمام وقتة في تواريخ ملوك المغول وملوك الهند والترك وكذلك معرفته للممالك والمسالك وخطوط الأقاليم ومواقع البلدان ، كما أفدت من كتاب العمري (التعريف بالمصطلح الشريف) الذي يعد مصدراً أساسيًا للتقسيمات الادارية والمكاتبات السياسية والديوانية .

أما الموسوعة الثانية التي اعتمدت عليها اعتماداً كبيراً فهي (صبح الأعشى في صناعة الانشا) لشهاب الدين أحمد بن عبدالله القلقشندي ، ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م ، وكان القلقشندي كاتبًا للإنشاء ، وتشتمل على كثير من العلوم والمعارف والمصطلحات والمراسلات والمراسيم الدبلوماسية ، وقوانين ونظم القصور السلطانية والوظائف بأنواعها ، واعتمد اعتماداً كبيراً على كثير من الوثائق التي كانت بحوزته فجاء ت موسوعته صورة حية للتاريخ الحضاري للعصر المملوكي وأفادتني الموسوعة فائدة كبرى في التقسيمات الإدارية

---

(١) د . عبداللطيف حمزة ، الحركة الفكرية في العصرين الأيوبي والمملوكي ، ص ٣٢٥ .

والوظائف الديوانية والدينية في دمشق ، وفي تصويري للمجتمع الدمشقي في الفترة موضوع الدراسة .

ثانياً - كتب التاريخ العام:

١ - كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) لتقي الدين أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم المصري المولد البعلبكي الأصل المعروف بالمقريزي ، ت٨٤٥هـ/١٤٤١م . ويُعد أحد أبرز مؤرخي عصر المماليك ، وكان مؤرخًا مثقفًا محيطًا بكل ما يتصل بعلم التاريخ والحضارة ، وعلم الاجتماع العمراني ، وكتاب السلوك تاريخ شامل للأيوبيين والمماليك حتى عصره[1] وتميزت حوادث زمانه في التدوين التاريخي بأنها أقرب ما تكون إلى مذكرات يومية دقيقة ترسم صورة للمجتمع المملوكي في واقعه السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وكتابه من المصادر التي أفدت منها كثيراً من المعلومات عن مدينة دمشق وأنها مقصد التجار وكعبة العلماء ومدينة المدارس والخوانق ، مع عرض لأهم الأحداث السياسية حتى عصره ، وبيان تاريخ الولاة الذين حكموا دمشق وأخبار قلعتها .

٢ - كتاب (الإعلام بتاريخ أهل الاسلام) لأبي بكر بن أحمد بن محمد بن عبدالوهاب الأسدي الدمشقي المعروف بابن قاضي شهبة ت٨٥١هـ/١٤٤٧م . وصفه السيوطي « بأنه فقيه الشام ورئيسها ومؤرخها » وكتابه ذيل لتاريخ الذهبي ، وهو من المصادر الأساسية في تلك الفترة بالشام، كما أفادني في التاريخ الاقتصادي والثقافي لمدينة دمشق ، وعند الترجمة لعدد كبير من علماء دمشق والشام .

(١) د . محمد زيادة ، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، ص ١٤/١٥ .

٣ - كتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردى المتوفي سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م الذي تأثر بأستاذه المقريزي مؤرخ مصر المملوكية ، وبعد وفاة أستاذه أصبح أبو المحاسن أحد أبرز مؤرخي مصر المملوكية ، وكان قريبًا من مصادر صنع القرار السياسي إذ كان أبوه تغري بردى نائبًا لدمشق ثم حلب ، ولقد اعتمد في تدوين كتابه النجوم الزاهرة على المقريزي ثم اعتمد على مشاهداته وما قصه عليه والده ، ولذا يتميز بالمعلومات الدقيقة والتفصيلات في الأحداث التي عاصرها وهو من المصادر السياسية والاقتصادية والإدارية في عصر دولتي المماليك الأولى والثانية .

٤ - كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لأبي البركات محمد بن أحمد لابن إياس ت ٩٣٠هـ ، طبعة جمعية المستشرقين الألمانية التي قام بتحقيقها د/ محمد مصطفى . ويتميز ابن إياس بأنه المؤرخ الذي كتب بدقة وأمانة عن أواخر عصر دولة المماليك الجراكسة وأهم أحداث عصرهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، كما أنه عاصر فترة الغزو العثماني لمصر والشام ، فكتب عن هذه الفترة مصوراً حالة المماليك وما وصلوا إليه من ضعف ، كما كشف النقاب عن المآسي التي تعرضت لها الشام ومصر من جراء ذلك الغزو .

ثالثا - كتب التراجم:

وكتب التراجم من أبرز المصادر التي تمد الباحث بأحوال المجتمعات وهي تجمع بين السيرة والأخبار والأحداث السياسية والثقافية والاجتماعية . ومن كتب التراجم التي أفاد منها البحث :

١ - كتاب « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » لأحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م ، صاحب

المصنفات المشهورة في الحديث والفقه والتراجم والتاريخ ، واستفدت منه الكثير عن تواريخ كثير من الشخصيات وفي تتبع الأنشطة الثقافية والاجتماعية وغيرها ، وقد أهلته زياراته المتكررة لمصر والشام والحجاز من تتبع مختلف الأنشطة السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية بالإضافة إلى تقلده لعدد من الوظائف الدينية .

٢ - ومنها كتاب (الضوء اللامع في أخبار أهل القرن التاسع) لمحمد بن عبدالرحمن السخاوي ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م . وهو من أشهر تلاميذ ابن حجر ومن أشد المعجبين به ، وللسخاوي مؤلفات عديدة في الفقه والحديث والتراجم والتاريخ ، وقد ترجم في كتابه « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » المشهورين من الرجال والنساء استكمالاً لكتاب أستاذه « الدرر الكامنة » ، ولقد أفدت من هذا الكتاب في تاريخ الحياة العلمية في الشام عامة ودمشق خاصة .

٣ - كتاب (عجائب المقدور في نوائب تيمور) لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي، ت ٨٥٤ هـ ، بتحقيق أحمد فايز الحمصي . ويعالج الكتاب حياة تيمورلنك السفاح التتري الذي غزا الشام في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ولقد أعانني في كتابة الفصل الخامس من البحث .

ولا ننسى في نهاية هذه الدراسة الفائدة الكبيرة التي قدمتها بعض المراجع الحديثة للبحث ومن أبرزها : كتاب العصر المماليكي في مصر والشام، ومصر في عهد دولة المماليك البحرية . والكتابان للأستاذ الدكتور / سعيد عبدالفتاح عاشور ، وهو من مؤرخي العصور الوسطى الأوربية والإسلامية البارزين في العالم العربي والإسلامي ، وكتاب (ولاة دمشق في عهد المماليك) وكتاب (معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي) ، والكتابان للأستاذ

محمد أحمد دهمان الدمشقي ، وكان رحمه اللّه من المولعين بتاريخ المماليك ، وكتاب (مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة) للدكتور إبراهيم علي طرخان .

ولقد استفدت من هذه المراجع فائدة كبيرة ، فهي دراسات تاريخية بالغة القيمة بالإضافة إلى اشتمالها على كثير من الآراء التي أفادتني في كتابة هذا البحث .

* * * *

وإذا كان الفضل يجب أن ينسب إلى أهله ، وإذا كان الاعتراف بالجميل واجبًا في الأعناق يجب أن يذكر لذويه .

فلا يفوتني أن أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني أو قدم لي خدمة علمية وعلى الأخص سعادة الأستاذ الدكتور محمد المنسي محمود عاصي الذي أشرف على هذا البحث مذ كان فكرة إلى أن خرج إلى النور على هذه الصورة التي أرجو من اللّه تعالى أن تكون مشرفة ، فله مني جزيل الشكر والامتنان .

وأتقدم كذلك بالشكر إلى لجنة المناقشة التي تكرمت بالموافقة على قبول هذه الرسالة ومناقشتها ، وستكون ملاحظاتهما وتوجيهاتهما نبراسًا يضاف إلى الجهود التي تثري هذه الرسالة .

كما أشكر كل الأخوات والزميلات على ما بذلنه من نصح وتشجيع وإعارتي بعض المصادر والمراجع من مكتباتهن الخاصة .

وأسأل اللّه عزّ وجلّ أن أكون قد وُفقت في إبراز الهدف الذي قصدته من كتابة هذا البحث . ولقد بذلت في كتابته وإخراجه ما وسعي وظني اني قد

حققت الغاية ؛ وإن كانت الأخرى ، فحسبي اني قد بذلت الجهد ، وحسبي ان الكمال للّـه سبحانه وتعالى ، والنقص من لوازم كل عمل بشري .

قال تعالى :

﴿ لا يكلف اللّه نفسًا إلا وسـعها لها ما كسـبت وعليهـا
ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسـينا أو أخطـأنا ربنا
ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا
ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعـف عنـا واغفـر لنـا
وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾

صدق اللّه العظيم - [البقرة : آية ٢٨٦] .

والحمدُ للّه أولاً وآخراً .

الطالبة : هيام صالح أبو الفرج

التمهيد
الأوضاع السياسية العامة للدولة المملوكية الثانية في بلاد الشام

لم تكن بلاد الشام في عصر المماليك مجرد إقليم تابع للدولة ، كما أن دمشق لم تكن هي الأخرى مدينة عادية مثل غيرها من المدن ، وإنما كانت بلاد الشام الجناح الأيمن للدولة المملوكية وبدونها يتعذر عليهم الاحتفاظ بوجودهم وكيانهم .

لقد كانت الأخطار تهدد وجود هذه الدولة من جهة الشام من جانب الأيوبيين والمغول والصليبيين والأرمن والتركمان والعثمانيين فكانت الشام هي حزام الأمان الذي يحمي الدولة وهي التي تتلقى الضربة الأولى ، وطرقها الرئيسية هي المعابر لأي غزو يهدد مصر ، وهكذا أدرك المماليك أنه لا بد من وحدة تربط بين الإقليمين الشام ومصر ، ولذا كانت الشام عندهم بمنزلة مصر ودمشق بمنزلة القاهرة ، وهذا المفهوم السياسي الذي أدركه المماليك يجب أن تدركه كل حكومة واعية تحكم هذا الجزء من العالم .

ولذا نظر المماليك إلى الشام نظرة خاصة ، فوضعوا لها التقسيمات الإدارية التي تضمن لهم فيها الاستقرار السياسي ، والاقتصادي ، كما أنهم كانوا يعينون في مدن الشام عامة ودمشق بصفة خاصة أفضل رجالهم في الوظائف المختلفة .

ولذا لم تكن بلاد الشام بعيدة أبداً عن الأحداث التي تقع في مصر فما يحدث في القاهرة يكون له صداه في الشام وما يحدث في دمشق يكون له الأثر الكبير والتجاوب السريع من القاهرة .

ولقد اختار قلاوون(*) (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) طائفة جديدة من المماليك من

(*) قلاوون : سيف الدين ابن المعالي الألفي السابع من ملوك الترك بالديار المصرية بويع بعد خلع العادل سلامش يوم الأحد ٢٢ من رجب ٦٧٨ هـ وهو من مماليك آقسنقر الكاملي ، أعتقه =

عنصر الجركس ليكونوا عونًا له ، وبهذا دخلت طائفة جديدة - من شمال بحر قزوين وشرق البحر الأسود - إلى عالم المماليك في مصر والشام ، فبعد أن كنا نسمع عن الصالحية والظاهرية والمنصورية والأشرفية بدأنا نسمع عن (المماليك الجركس).

ويبدو أن سبب اختيارهم كان يرجع إلى شجاعتهم وفروسيتهم وشدة بأسهم في الحروب والصراعات بالإضافة إلى توفرهم بكثرة في أسواق الرقيق بعد أن شردهم المغول من بلادهم[١] ، ثم أسكنهم في أبراج القلعة ومن ثم عرفوا في مصادر العصر المملوكي « بالمماليك البرجية » واعتبرهم قلاوون (حصونا مانعة له ولأولاده وللمسلمين)[٢] على حد تعبير قلاوون .

وقد كان المنصور قلاوون موفقًا إلى حد كبير في اتخاذ هذا الاجراء إذ أدى ذلك إلى استمرار الحكم في أولاده نحو قرن من الزمان بفضل تأييد طائفة البرجية له ولذريته من بعده ، ودخل المماليك البرجية في صراعات متواصلة مع المماليك الترك من أجل البقاء وإثبات الوجود السياسي والعسكري[٣] . ومع تطورات الصراع السياسي والعسكري بين طوائف المماليك وضعف السلاطين الصغار من كبح جماح البرجية ، بدأوا يظهرون على مسرح الأحداث ، وكان من أبرز رجالهم في تلك القترة (بيبرس الجاشنكير) (٧٠٨ - ٧٠٩ هـ / ١٣٠٨ - ١٣٠٩م) الذي استطاع أن يلي الحكم رغم أنف المماليك الترك[٤] .

= الصالح أيوب ، عمر البيمارستان المنصوري ، ت ٦٨٩ هـ .
ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، القسم الأول ص ٣٤٧ .

(١) د . سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص ١٤١/١٤٠ .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ج٢ ، ص ٢١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٩٢ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص ٨٦٦ .

وزاد أمل الجراكسة بتولي برقوق[*] (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) أحد كبار أمرائهم[١] السلطنة في مصر والشام ، ولا غرو في ذلك فهو المؤسس الحقيقي لدولة الجراكسة في التاريخ بعد أن نجح في القضاء على المؤامرة التي دبرت لاغتياله وإقصائه عن الحكم من قبل العنصر التركي وتزعمها ايتمش الخاصكي وبطا الأشرفي[٢] .

ولقد سن الجراكسة مبدأً سياسيًا جديداً يقوم على نبذ فكرة (الحكم الوراثي) وأن السلطة والحكم يجب أن تكون بيد الأمير القوي الذي يستطيع أن يستأثر بالعرش ويحكم مصر والشام والحجاز وأعالي الفرات بيد باطشة تضرب كبار الأمراء والطامعين في الحكم .

ولا شك أن مصر وبلاد الشام قاست كثيراً طوال عصر الجراكسة من جراء الصراع على العرش فضلاً عن المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك ، وزاد الأمر سوءاً عجز السلاطين عن كبح جماح مماليكهم ، الذين كانوا يشيعون جواً من الرعب في دمشق وغيرها من النيابات الشامية . وفوجيء برقوق بثورة

(*) برقوق : هو الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد ابن آنص الجركس أول ملوك الجراكسة بالديار المصرية ، والخامس والعشرون من ملوك الترك بويع بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان ولي الملك في ١٩ من رمضان ٧٨٤ هـ وكان عمره ٥٧ سنة وسار البريد بذلك إلى الديار الشامية وكان في الأصل مملوكًا ليلبغا العمري ثم عزله بعد مؤامرة دبرت ضده ولكنه عاد إلى السلطنة ٧٩٢ هـ واستمر في الحكم حتى وفاته سنة ٨٠١ هـ .

ابن اياس ، بدائع الزهور ، الجزء الأول ، القسم الثاني ، ص ٣١٨ ، ٤٣٤ .

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٢٣ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

كبرى يشتعل لظاها في بلاد الشام يتزعمها الأمير منطاش[*] نائب ملطية ، ويلبغا الناصري نائب حلب ، وهما يمثلان المماليك الأشرفية واليلبغاوية[١] ، وهزمت جيوش برقوق في دمشق[٢] ، ونجح يلبغا في الزحف على القاهرة والسيطرة على قلعة الجبل[٣] ، وقبض على برقوق وخشي يلبغا أن يقتله فيثير غضب البرجية فاكتفى بنفيه إلى الكرك ٧٩٠ هـ، ولما بدأ النزاع بين يلبغا ومنطاش[٤] ، وأثبتت الأيام التالية للناس فساد الحكم اليلبغاوي بايع أهل الكرك برقوق بالسلطنة والتف حوله الناس من الشام ومصر فجهز جيشًا زحف به إلى دمشق[٥] .

وبهذا العمل شارك أهل الشام مشاركة عملية في إعادة برقوق إلى السلطنة ، وكان اختياره لدمشق يدل على ذكائه السياسي ، إذ هي قصبة الديار الشامية[٦] والعاصمة الثانية لدولة المماليك ، وفي دمشق تمت هزيمة

(*) منطاش : من مماليك الأشرف شعبان بن محمد بن قلاوون تولى نيابة ملطية ولما استولى الظاهر برقوق على السلطنة اتفق مع صاحب سيواس ومع يلبغا الناصري نائب حلب ضد برقوق ونجحوا في اقصاء برقوق عن الحكم وتعيين الملك الصالح أمير حاج سلطانًا على البلاد ، ولكن قلاوون استطاع أن يعود إلى الحكم ويقبض على منطاش وأعدمه في حلب ٧٩٢ هـ .

ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، القسم الثاني ، ص ٤٠٤ وما بعدها .

(١) السلوك ، ج٢ ، ص ٤٨٧/٤٨٩ .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٦٩/٢٨٠ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٤) ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٤٨٧ .

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٨٠/٢٨١ .

(٦) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٩٢ ؛ دهمان ، ولاة دمشق ، ص ١٨ .

منطاش ووقع السلطان المنصور حاجي والخليفة أسرى في يد برقوق فأكرم مثواهما ، ثم عادوا جميعًا إلى القاهرة ، وتمت مبايعة برقوق بالسلطنة ، وتم القضاء على يلبغا ومنطاش ، وتم قتل الأخير في حلب سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠م . ووزعت اقطاعياته على المماليك الجراكسة من أنصار برقوق ، كما أن المتاعب الداخلية أحاطت ببرقوق في مصر والشام ، إذ كان العربان لا يرضون بحكم المماليك - وهم غرباء عن البلاد - فلقد قام موسى بن محمد بن عيسى شيخ عربان الكرك بمحاولة لعزل برقوق أثناء خروجه لصد قوات تيمورلنك ، وبلغ من جرأته أنه تحالف مع زعيم عربان مصر الشريف العنابي ومع قبائل هوارة في الصعيد ، ونجح برقوق في القضاء على الثورة وقبض على الزعيمين وحبسهما حتى ماتا في محبسهما(*) ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٨م (١).

كما أن الفتن والتقلبات السياسية كثرت في إقليم الشام على عصر فرج(**) بن برقوق الذي عجز عن الوقوف في وجه تيمورلنك ، فثار ضد الناصر

(*) كان العربان في مصر والشام يعتبرون أن المماليك قد سلبوا الحكم من أسيادهم الأيوبيين وكانوا كثيرًا ما يقومون بالثورات ضد المماليك ، وكانوا مصدر قلق لهم ، وحمل المماليك عبئًا كبيرًا في القضاء على تمردهم بين الحين والآخر ولقد عرفت ثوراتهم في الكتب المعاصرة باسم « فساد العربان » ويبدو أن هدفهم من الثورات كان إلغاء حكم المماليك وإعادته إلى العرب الأحرار .

المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٨٠ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٩ .

(١) د . سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص ١٦٨ .

(**) فرج بن برقوق : زين الدين أبو السعادات وهو السادس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية تولى بعد موت أبيه وساعده الأتابك ايتمش البجاس مملوك أبيه برقوق . تولى وله من العمر ثلاثة عشر سنة وأمه رومية تسمى شيرين وكان شريف مكة آنذاك حسن بن عجلان وفي أول عهده خرج عليه الأمير سودون ولكنه قبض عليه وسجنه ، ثار عليه أمراء الشام ولما خرج لملاقاتهم هُزم وقتل قرب دمشق ٨٠٨ هـ .

فرج الأمير جكم نائب حلب سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣م ، وبعد مقتل جكم ، تحالف نوروز نائب الشام والأمير شيخ نائب طرابلس وأعلنا الثورة على السلطان فرج ، بل وصلت بهما الجرأة للزحف على القاهرة ، ولما خرج السلطان فرج إلى الشام لقمع تلك الثورة حلت به هزيمة ثقيلة قرب دمشق وقبض عليه ليقتل قتلة شنيعة[١] .

وفي عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي[*] (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١م) ثارت الإمارات التركمانية في شمال الشام ، ولقد اخترقت قوات المؤيد شيخ بلاد الشام إلى هذه الإمارات وأعادها إلى التبعية المملوكية ، ثم أرسل ابنه إبراهيم فقضى على آخر تمرد لهم وأوغل حتى قونية وضرب السكة في قونية وقيصرية باسم أبيه المؤيد[٢] .

وفي عهد الأشرف برسباي[**] (٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٧م) ،

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، القسم الأول ، ص ١٣ وما بعدها .

(*) شيخ المحمودي : الملك المؤيد شيخ بن عبدالله المحمودي الظاهري الخاصكي الرابع من ملوك الجراكسة بويع في مستهل شعبان سنة ٨١٥ هـ ، بايعه من العلماء جلال الدين البلقيني ، كان من أهل مماليك الظاهر برقوق وصار من جملة الجمدارية عين قبل توليه السلطنة نائبًا على طرابلس وأسره تيمورلنك ، ثم أطلق سراحه وتشرد بالشام حتى عين سلطانًا ، وقع في عهده وباء الطاعون بمصر وله بعض المنشآت المعمارية ، وتوفي ٨٢٤ هـ .
ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٣ وما بعدها .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، القسم الثاني ، ص ٨٢٧ .

(**) الأشرف برسباي : الملك الأشرف سيف الدين ابي النصر الدقماقي الظاهري ، الثامن من ملوك الجراكسة ، بويع بعد خلع الملك الصالح محمد بن ططر ٨٢٥هـ ، عمر مدرسة بجوار سوق الوراقين وعمر سبيلاً وصهريجًا بجوار الجامع الأزهر وكان من خيار ملوك الجراكسة بعد برقوق ، وتولى بعده ابن الجمالي يوسف ، وتوفي سنة ٨٤١هـ .
ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٨١ وما بعدها .

حلت الأزمات والاحتكارات في أنحاء الدولة المملوكية - وخاصة في بلاد الشام - وازداد الأمر سوءاً بتفشي الأمراض والأوبئة بها بالإضافة إلى المكوس التي فرضها على التجار في دمشق وغيرها من مدن الشام لإمداد الحملات التي قام بها إلى جزيرة قبرص[١] .

وفي عهد السلطان الظاهر جقمق العلائي (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣م) ، قام الأمير إينال الحكمي[*] نائب دمشق بثورة ضد السلطان وحاول أن يستقل بها ، وأعلن انفصاله عن دولة المماليك ، ولكن جقمق نجح في القضاء على تلك الثورة وعاقب كل من اشترك بها من المماليك في دمشق وقلعتها[٢] .

ومن السلاطين الذين اهتموا بأقليم الشام عامة ودمشق بصفة خاصة ، السلطان قايتباي المحمودي (٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م) ، الذي زار الشام أكثر من مرة وخلد اسمه بها بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس والتحصينات[٣] ، ولقد حكم هذا السلطان مدة طويلة بلغت تسعة وعشرين عاماً وكان « وافر العقل سديد الرأي عارفًا بأحوال المملكة يضع

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٤٥ .

(*) إينال الحكمي : من مماليك الأشرف برسباي تولى نيابة الشام واتفق مع نائب حلب على الخيانة وخطب على منابر دمشق باسم العزيز يوسف بن برسباي وخلعه السلطان . ويُقال انه قصد القاهرة لمحاربة السلطان ولكن مماليكه تخلوا عنه ففر هارباً ثم قُبض عليه وتم سجنه بقلعة دمشق حتى قتله قرافجا الحسني باش العسكر .
ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

الأشياء في محلها ، موصوفًا بالشجاعة عارفًا بأنواع الفروسية »[١] ، ولذا نعمت بلاد الشام في عهده بالاستقرار السياسي ، كما اختار لمدينة دمشق أشهر الأمراء وأكثرهم قدرة على التصرف .

ولقد تعاقب في منصب السلطنة بعد الأشرف قايتباي ابنه محمد ثم قانصوه خمسمائة ، ثم عاد محمد قايتباي مرة أخرى ، ثم قانصوه الأشرفي ، ثم جانبلاط ، ثم العادل طومان باي الأول ، وجميعهم حكم مدداً قصيرة ، مما يدل على حال الفوضى وعدم الاستقرار السياسي التي سادت دولة المماليك عامة وبلاد الشام خاصة[٢] .

وفي عهد السلطان الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ - ١٥١٧م) ، كانت بلاد الشام مسرحًا لكثير من الأحداث السياسية والعسكرية خاصة بعد انتصار السلطان سليم الأول العثماني على الصفويين وقربت جيوش العثمانيين من بلاد الشام ، فصمم السلطان الغوري على الخروج إلى حلب[٣] ، وفي هذه الأثناء نكب الغوري بخيانة اثنين من أنصاره من ولاة الشام ، هما خاير بك وجانِ بردي الغزالي نائب حماة ، وانتهت دولة المماليك في أرض الشام كقوة سياسية وعسكرية بسقوط قانصوه الغوري تحت سنابك خيول العثمانيين في مرج دابق ٩٢٢هـ / ١٥١٧م [٤] .

---

(١) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٢٥ .

(٢) انظر ملحق بأسماء السلاطين الجراكسة ص ٢٨٦ .

(٣) ابن زنبل الرمال ، آخرة المماليك ، ص ١٥ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٠ .

وهكذا كانت بلاد الشام مسرحًا للنزاع السياسي والعسكري بين طوائف المماليك من عنصري الترك والجركس وتدخل نواب الشام في سياسة دولة المماليك العامة ، فكانوا قوة يخشى السلاطين بأسها ، حتى أن كل سلطان جديد كان يفكر مليًا في مدى إخلاص نواب الشام له ، ومن أجل ذلك كان سلاطين المماليك يلجأون إلى تغيير نواب الشام عامة ودمشق بصفة خاصة بين وقت وآخر[١] .

ومن الأدلة الظاهرة على خطورة نواب دمشق أن بيبرس الجاشنكير ٧٠٩هـ / ١٣٠٨م لم يتمالك نفسه من الفرح عندما حلف له نواب الشام عقب توليته السلطنة وقال: «الآن تم لي الملك »[٢] .

كما أن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك سواء منهم البحرية أو البرجية ، كان يحرص بمجرد اعتلائه العرش أن يرسل خبر إعلائه (دست السلطنة) إلى الشام ليطمئن إلى موقف النواب من تأييده[٣] .

ومن الملاحظات الهامة التي لا يغفل عنها الباحث عن الأوضاع السياسية العامة في نيابات الشام في العصر المملوكي أن العلاقة بين السلاطين ونيابات الشام لم تقم دائمًا على الفرقة والمؤامرة والخلاف ، وإنما كان الجميع يتناسون

---

(١) د . سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص ٢٣٠ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٤٢ .

(٣) انظر مراسيم تولي السلطنة وإعلام سائر الأقاليم .

ابن اياس ، بدائع الزهور ، أحداث سنة ٨١٥ / ٨٧٢ هـ ، صفحات متفرقة .

الأحقاد والأطماع السياسية في أوقات الأزمات والشدائد ، فتقوم الشام بمد مصر في تلك الأوقات بكل ما تستطيع من الرجال والعتاد لمواجهة الخطر المحدق . ظهر ذلك واضحًا في عصر الحروب الصليبية ، وهجمات التتار على ديار الإسلام[1] .

(١) ومن الأمثلة على ذلك ما حدث في عهد السلطان برقوق حينما انضمت قوات الشام الشعبية والرسمية إلى جيشه لمواجهة التتار .

ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٥٨ .

الفصل الأول

البنية الإجتماعية في دمشق في عصر دولة المماليك الثانية

ويشتمل على المباحث الآتية :

أولاً - عناصر المجتمع :

* الفئة الحاكمة (المماليك وأصحاب النفوذ) .
* العلماء وأصحاب الأقلام .
* العامة وسائر فئات المجتمع .
* أهل الذمة .

ثانيًا - علاقات فئات المجتمع بطبقة المماليك .

أولاً - عناصر المجتمع

المبحث الأول

الفئة الحاكمة (المماليك وأصحاب النفوذ)

تألف المجتمع في عصر دولة المماليك من عدة فئات تميز بعضها عن بعض في الحقوق والواجبات ، ولكن الفرق كان يظهر حاداً وواضحًا في امتيازات طبقة المماليك الجراكسة ومدى علاقتهم بسائر الفئات . ويمكننا أن نميز هذه الفئات في المجتمع الدمشقي في عصر دولة المماليك الثانية على النحو التالي :

١ - الفئة الحاكمة (المماليك أصحاب النفوذ) :

تشكلت هذه الطبقة من أفراد المماليك الذين اعتبروا أنفسهم طبقة نبيلة عسكرية لا يجب أن تمتزج بأي حال بسائر الفئات الأخرى في المجتمع في مصر أو الشام أو أي ولاية أخرى ، فاستأثروا بالحكم والوظائف المهمة عسكرية ومدنية ، وحيازة الاقطاعات الكبيرة[١] ، وعملهم الأساسي ومهمتهم المقدسة هي الدفاع وشئون الحرب ، وعاشوا غرباء عن سكان البلاد التي حكموها ، لا تربطهم بهم روابط الدم أو الأصل أو الجنس ، ولم يسمحوا - أبداً - بالمصاهرة مع سكان البلاد الأصليين ، وإذا حدث ذلك - وهو لا يحدث أبداً إلا في النادر- ، وتزوج أحد المماليك منهم ، فأولاده لا يعتبرون مماليكًا ولا يرتفعون إلى طبقة آبائهم وأطلقوا عليهم تعبيراً من مصطلحات العصر هو

---

(١) د . سعيد عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٣٠٨ .

(أولاد الناس)[*].

وتشير الشواهد التاريخية أن هذه الطبقة لم تكن كلها من أصل واحد فكان منهم في عصر دولة المماليك البحرية التركي ، والمغولي ، والصيني ، والأسباني ، والألماني ، والسلافي ، إلى غير ذلك من الجنسيات المختلفة التي ورد أصحابها إلى مصر ، صحبة تجار الرقيق ، وشجع التجار على جلب هذه الجموع المتباينة الأصول كثرة الأموال التي لم يضن السلاطين والأمراء ببذلها رغبة في الاكثار منهم حتى يكونوا سنداً يعتمدون عليه في تقوية مركزهم داخل البلاد وخارجها[١] .

وبولاية برقوق عرش السلطنة المملوكية تنتهي الدولة المملوكية الأولى ، وتبدأ الدولة المملوكية الثانية ، وهي دولة الجراكسة أو الشراكسة[٢] . وبلاد الجراكسة التي ينتسب إليها معظم الطبقة المملوكية التي عاشت في دمشق زمن الفترة التي نؤرخ لها ، هي بلاد الكرج (جورجيا) بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وتمتد على الشاطيء الشرقي للبحر الأسود منطقة تُعرف باسم (جركس) تتميز بوعورتها وكثرة جبالها ، وكانت تجارة الرقيق بينهم رائجة فكانوا يبيعون أبناء هم وبناتهم [٣].

(*) أولاد الناس : مصطلح مملوكي أطلق على أولاد المماليك الذين ولدوا أحراراً ولم يمسهم الرق كآبائهم ، وعرف منهم ابن تغري بردي المؤرخ المملوكي وكثير غيره .
محمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ٢٦ .

(١) د ، سعيد عاشور ، مصر في عصر سلاطين المماليك البحرية ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٢٢ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص٢٥٩ .

(٣) د . إبراهيم طرخان ، مصر في عصر المماليك الجراكسة ، ص ٩/٨ .

ولقد وردوا إلى مصر بأعداد كبيرة منذ عهد السلطان الظاهر قلاوون ، ثم أطلق عليهم الأشرف خليل بن قلاوون اسم البرجية عندما أفردهم مع الأرمن وأسكنهم قلعة الجبل(*) بالقاهرة تميزاً لهم عن المماليك البحرية الذين أسكنوا جزيرة الروضة بشاطيء النيل[1] .

واللافت للنظر أن عناصر غريبة غير جركسية دخلت تلك الزمرة -لا يجمعهم رباط إلا رباط الرق والعبودية- مثل الأكراد واليونانيين . وفي نهاية القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي ، وفد وافد جديد لينضم إلى تلك الطبقة حيث وجد مماليك من صقلية وأرجونة وقطالونيا وبعض المجريين الذين أسرهم العثمانيون في حروبهم في شبه جزيرة البلقان وأرسلوهم ليُباعوا في أسواق النخاسة بالقاهرة . وبذلك كانت هذه الطبقة التي تمثل قمة المجتمع خليطًا من مختلف الأجناس لا يجمعها إلا رباط الرق ، بالإضافة إلى أنها طبقة غريبة التشكيل عجيبة المفاهيم فكانت طريقتهم في تولية الحكم تقوم على قاعدة أساسية هي الغصب واستيلاء الأمراء الأقوياء على الحكم بالقوة ورفض مبدأ الوراثة ، ثم يقوم الغالب بالاستيلاء على أموال وممتلكات منافسيه ويضمها إلى أمواله ، ولم تعرف هذه الطبقة معنى الوفاء لبعضهم

(*) قلعة الجبل : سميت بذلك لوقوعها على إحدى هضبات المقطم ، بديء في بنائها في عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد وزيره بهاء الدين قراقوش ٥٧٢ هـ ، وتمت في عهد خلفه وحفيده السلطان الملك الكامل سنة ٦٠٤ هـ ، ثم سكنها المماليك وزادوا فيها مباني كثيرة ، وكانت مقرًا لهم .

المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ .

(١) المصدر السابق ، نفس الجزء ص ٢١٣ .

البعض فكان المملوك يتنكر لسيده الذي أعطاه الحرية وبمجرد موت السيد ينقلب المملوك على ابن سيده فينتزع منه السلطة ويصادر كل أمواله ، ولذا امتلأ تاريخ هذه الطبقة بالمؤامرات المشهورة[١] .

ولو استعرضنا حياة أفراد هذه الطبقة لوجدنا أن المملوك المجلوب من أسواق الرقيق يربى تربية خاصة دينية عسكرية وعندما تثبت فروسيته يكافأ بالعتق ويمنح اقطاعًا يعيش منه ويمنح النفقة والكسوة ، وعندما تسمو منزلته يمنح لقب الإمارة ويصبح من حقه شراء مماليك يتخذهم حرسًا وأعوانًا . وكان أفراد هذه الطبقة يعتزون برقهم وعبوديتهم على الرغم من وصولهم إلى أعلى مراتب السلطة والحكم ، وهو نظام طبقي غريب لم يقم في أرجاء الدنيا إلا في ظل الإسلام ، وليس له مثيل خارج الإسلام ، ولم يظهر بشكله هذا إلا في مصر والشام وغيرهما من البلاد التي حكمها المماليك .

وتربية أفراد هذه الطبقة تربية غريبة ، ونظم إعدادهم ثقافيًا وتربويًا وعسكريًا نظم فريدة في أشكالها . ففي بداية العصر المملوكي كان أفراد هذه الطبقة يُشترون صِغاراً من أسواق الرقيق[*] ، فيرسلهم السلطان إلى الأطباء لفحصهم حتى يتأكد من سلامة أبدانهم ، قبل أن يأذن لهم بالاختلاط بأقرانهم الساكنين في الطباق[**] ، فإذا تبين بعد الفحص أنهم أصحاء الجسم أنزل كل

---

(١) عن أصل المماليك انظر : أحمد مختار العبلدي ، قيام دولة المماليك ، ص ١١ وما بعدها .

(*) من أشهر هذه الأسواق ، بركة الرقيق ، أسواق نزلة الحجر ، وكالة جامع السلطان قايتباي ، خان مسرور ، خان كشك ، سوق الحميدية ، سوق البزورية ، ميدان قصر العدل بدمشق .

(**) الطباق : مفرده طبقة وهي ثكنات المماليك بقلعة الجبل ، وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد .

المقريزي ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢١٣/٢١٤ .

منهم مع طبقة جيشه ، بحيث لا يجتمع في الطباق الواحد إلا المماليك المشتركين في الأصل أو البلد الواحد[١] .

وكان الأساتذة المشرفون عليهم متفرغين لتربيتهم وتدريبهم ، فهم مجموعات من الطواشية (الخصيان)[*] الذين يقيمون في الطباق إقامة دائمة ولا تشغلهم أي مسئوليات أو عائلات سوى تدريب المماليك[٢] .

كما كان لهم فقهاء يعلمونهم أحكام الإسلام وشريعته واللغة العربية والخط وتحفيظهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وكان السلاطين والأمراء يشرفون على مماليكهم وينفقون عليهم بسخاء ويعينون لهم الرواتب والأرزاق[٣] .

ويبدأ تعليم المملوك فنون الحرب والقتال والفروسية عند سن البلوغ ، وبمجرد انتهاء هذه المرحلة يتخرج المملوك ليلتحق بالعمل في الجيش المملوكي أو في القصور السلطانية يُعطى له مرتب أو تخصص له جامكية[**] ،كما

---

(١) د . محمد المنسي ، جوانب الترف في العصر المملوكي ، ص ٢ .

(*) الخصيان أو الطواشي ، وجمعه طواشية وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية وفي الحريم السلطاني « وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ويُعد شيخهم من أعيان الناس » . المقريزي ، الخطط ، جـ ٤ ، ص ٢١٩ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٨ .

(٣) السيد الباز ، المماليك ، ص ٨٤ وما بعدها .

(**) جامكية : لفظ فارسي مشتق من جامة بمعنى اللباس أي نفقات أو تعويض اللباس الحكومي وقد ترد بمعنى الأجر أو الراتب أو المنحة . والجمع حامكيات – جوامك – جماكي . محمد دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ٥٠ .

يجمعه بزملائه رابطة السلاح أو زمالة السلاح ،وكان يطلق عليها الخشداشية[*] ، وسرعان ما ينتقل المملوك من درجة عسكرية لأخرى أرفع منها ، وكان لكل وظيفة من الوظائف التي يتولاها المملوك نفقات ورسوم ومنح[١] وأعطيات .

وإذا وصل المملوك إلى أعلى درجة في هذه الطبقة وهي مرتبة الأمراء (أمير مملوكي) ، كان يسمح له باقتناء عدد من المماليك -حسب منزلته- وبذا يمكنه أن يولي مماليكه نوعًا من الرعاية والعطف مثلما فعل سيده معه من قبل ، ورابطة الخشداشية التي أشرنا إليها من قبل كانت من أقوى الروابط بينهم حتى يمكننا أن نقول أنها كانت أكبر من رابطة الأسرة فكان الأمير المملوكي « لا يأكل إلا وجميع أجناده معه »[٢] .

واستتبع ذلك أن يكون لأي أمير مملوكي معسكر صغير ، أي مجموعة من المباني والمنشآت تشمل مسكنه وبيوت مماليكه واسطبلات خيوله ومخازن الغلال والحبوب والأطعمة والعلف والسروج والسلاح وغيرها .

(*) الخشداشية : لفظ فارسي معناه الزميل في الخدمة ، والخشداشية هم طائفة من الأمراء الذين نشأوا مماليك عن سيد واحد بينهم رابطة الزمالة وكان لهذه الرابطة أثرها في حوادث هذه الطبقة . ويرجع هذا الأثر إلى قلة الروابط بين المماليك فكانوا يُجلبون من مختلف أسواق النخاسة ، وليس بينهم رابطة سوى ما يحدث لأحدهم من أمور وشئون مثل أن ينشأ عدد منهم عن سيد واحد .

د . سعيد عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٤٨١ .

(١) المرجع السابق ، ص ٨٦ .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٨٧ ، ٨٨ ؛ د . سعيد عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

وفي عهد المماليك الجراكسة - الذي نؤرخ له - قَلَّ شراء الأرقاء من الأطفال وتربيتهم على عيون السلطان والأمراء فانعدم فيهم النظام والضبط والالتزام بالقواعد والقوانين[١] .

وكانت هذه الظاهرة من أقوى عوامل الفناء التي أصابت هذه الطبقة : لأن تجار الرقيق صاروا يجلبون إلى دولة المماليك (المماليك الرجال) الذين جمعوا من مختلف الآفاق ما بين ملاح سفينة ، ووقاد في تنور خباز ، ومُحول ماء في غيط أشجار وغير ذلك . كما أهمل السلاطين والأمراء تعليم هؤلاء الجلبان وتثقيفهم بواسطة الفقهاء ، ونتيجة لذلك جمعت تلك الطبقة في أواخر عهد الجراكسة « أرذل الناس ، وأدناهم وأخسهم قدراً ، وأشحهم نفسًا وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكثر إعراضًا عن الدين ، ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب »[٢] .

والعجيب في الأمر ان هذه الطبقة المتسلطة على قمة السلم الاجتماعي في القاهرة أو دمشق أو غيرهما من مدن الشام كانت تعيث في الأرض فساداً فيسلبون وينهبون ويخطفون النساء والصبيان ويفسقون بهم[٣] .

وحاولت سائر الطبقات الدفاع عن نفسها ضد الظلم والطغيان ، لم يحاول السلطان أو الأمراء حماية الناس وردع الجلبان ، ولكن صدرت الأوامر السلطانية في مصر والشام بأنه « لا سوقي ولا تاجر يبهدل مماليك السلطان ،

---

(١) المماليك ، المرجع السابق ، ص ١٢٩ وما بعدها .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .

(٣) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

ولا يمسك لأحد منهم فرس ومن فعل ذلك من الرعية قطعت يده »[١] .

ويبدو أن هذه الطبقة رأت في تحرش سائر الطبقات بطبقة المماليك مدلولاً خطيراً يهدد وجودهم وكيانهم وسيطرتهم على سائر الطبقات فأصدروا أمثال هذه التعليمات حماية للطبقة حتى وإن كانت باغية . وكانت هذه الطبقة في غاية الثراء ، تعيش حياة مترفة ، يتمتعون بخيرات الولايات ، وينعمون بثروات المدن ، ويكنزون الذهب والفضة والأحجار الكريمة في قصورهم ، ويسرفون إسرافًا باذخًا في كل مناحي حياتهم [٢].

وتعود هذه الثروات إلى المخصصات الضخمة التي منحت لهم دون سائر الفئات الاجتماعية ، ولقد استأثرت تلك الطبقة بحكم سطوتها وبطشها وقوتها العسكرية على جميع أراضي مصر والشام وجميع موارد الدولة الأخرى وتم توزيعها على شكل اقطاعات بين السلطان وأجناده « وصارت أراضي مصر والشام كلها تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده حتى يومنا هذا »[٣] ، على حد تعبير المقريزي (المتوفى ٨٤٥ هـ) ويستثنى من ذلك بعض الأراضي القليلة المساحة التي خصصت للأوقاف ، وصارت جميع موارد الدولة ملكًا مباحًا لهذه الطبقة دون سواها من سائر الفئات الاجتماعية فامتلكوا كل شيء من مكوس[*] وجزية وزكاة ومعادن ، ولقد كان نظامًا استغلاليًا بشعًا قصر سيطرة

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ٩٦ .

(٢) دهمان ، ولاة دمشق ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٣) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٥٦ .

(*) المكوس : مفردها مكس وهي كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان أو لأصحاب الإقطاعات أو لموظفي الدولة خارجًا عن الخراج الشرعي .
المقريزي ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٣ / ١١١ ؛ جـ ٢ ، ص ١٢١ ، ١٢٤ .

طبقة واحدة على مقدرات الشعوب وحرمتها من كل شيء [١].

وكانت الاقطاعات توزع على أفراد هذه الطبقة وهم يكونون الجيش المملوكي[*] الذي توزع في أقاليم الدولة المملوكية فمنها ما هو بحضرة السلطان في القاهرة ، ومنها ما كان بمختلف النيابات الخارجية بمثابة الحماية في الشام وشمال العراق ، ومنها ما كان في صحبة الأمير المملوكي التابعة له من حيث مقامه في مصر أو خارجها[٢] ، وقد أحصى بعض ابن شاهين فئة واحدة من أفراد الجيش المملوكي بمصر وخارجها ، وهي فئة (أجناد الحلقة) فبلغت ٢٤ ألفًا في مصر ، و ١٢ ألف في دمش، ٦ آلاف في حلب ، ومثلها في طرابلس، وألفا بغزة ، وكان السلطان يقطع أجناد الحلقة بمناشير تصدر منه مباشرة فتراوحت عدة إقطاع مقدم الحلقة بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ ديناراً في السنة ، ومتوسط عدة اقطاع الجندي حوالي ٢٥٠ ديناراً في السنة [٣].

أما مماليك السلطان فكانوا آثر بالجوامك والرواتب أكثر من غيرهم وكانوا يأخذونها مشاهرة [٤].

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٤٥٠ ؛ إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢١٦ .

(*) توزع كافة الاقطاعات على رجال الجيش وما وجد الاقطاع إلا لهذه الطبقة وفي ذلك يقول صاحب صبح الأعشى « تجري الاقطاعات في الدولة المملوكية على الأمراء والأجناد ، وعامة اقطاعاتهم بلاد وأراضي يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيف يشاء » .

القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٥٠ .

(٢) إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٢٤ .

(٣) زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٤ .

(٤) المماليك ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ وما بعدها .

واختلف عدد المماليك السلطانية من وقت لآخر حسب كثافة المشتروات[١] من أسواق الرقيق ، وعلى سبيل المثال بلغت مشتروات برقوق نحو ٤ آلاف أو أكثر ، وفي أيام خشقدم بلغوا نحواً من خمسة آلاف مملوك ، ثم ازداد عددهم في عهد سلطنة قايتباي ، وبلغ متوسط راتب المقدم نحو ١٢٠٠ دينار في السنة ، أما رواتب المماليك فهي دون هذا القدر وهذا غير ما يصرف لهم شهريًا من الجوامك كاللحم والتوابل والخبز والعليق والزيت والشمع والحبوب[٢] .

والفئة الثالثة من أمراء الجيش المملوكي الذي يناله الاقطاع هي فرقة أجناد الأمراء ، وهؤلاء تابعون لأمرائهم الذين ينفقون عليهم وتجهيزهم والاشتراك بهم في حروب السلطان .

ولقد أورد ابن شاهين الظاهري[٣] نصًا يفيد أن عدة أجناد الأمراء بلغوا في مصر ثمانية آلاف ، وفي دمشق ثلاثة آلاف لنائب دمشق وأمرائها ، وألف لكل نائب من نواب وأمراء حلب وطرابلس وصفد وغزة ، وكان نصيب الجندي في إقطاع الأمراء يتراوح ما بين عشرة آلاف أو ثلاثة آلاف درهم في السنة .

وعلى رأس الطبقة يقع أول رجال السيف وهو (السلطان) ويعرف إقطاعه بـ (الخاص السلطاني أو بلاد الخاص الشريف) ، والعادة أن تكون الأراضي المقطعة له من أجود الأراضي من حيث الري وجودة التربة وغزارة

---

(١) د . إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٢٦ .

(٢) د . سعيد عاشور ، المجتمع المماليكي في مصر والشام ، ص ١٩٤ .

(٣) زبدة كشف الممالك ، ص ١٦١ .

الانتاج ، وله بالإضافة إلى ذلك (الأملاك الشريفة السلطانية) فهو إقطاع اشتراه السلطان بماله من إيراداته المتنوعة . وتبع السلاطين أولادهم في حيازة الإقطاعات الكبرى والحصول على أعلى رتب الجيش المملوكي ، وأحيانًا كثيرة يُمنحونها وهم صغار . وعلى سبيل المثال ، أعطى السلطان شيخ المحمودي عام (٨١٥ هـ / ١٤١٢م)[١] ولده إبراهيم إمرة مائة وتقدمة ألف ، ويلقب عادة أبناء السلاطين بالأسياد ، إلا أنهم يشتركون عادة مع أولاد الأمراء في لقب (أولاد الناس) . وقد أعطى للآخرين بعض الجوامك إلحاقًا لهم بأنهم في آخر سلم الطبقة الحاكمة[٢] .

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣ وما بعدها ؛ الصيرفي ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٦٢ .

(٢) ابراهيم طرخان ، مصر في عهد المماليك الجراكسة ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

المبحث الثاني

العلماء وأصحاب الأقلام وكبار التجار

يقصد بالشعب في المجتمع المملوكي : جميع عناصر السكان من الرعايا من غير جنس المماليك وطبقتهم في جميع أنحاء دولة المماليك في مصر وخارجها ، كما اننا يجب أن نشير إلى حقيقة هامة وهي أن الفقر أو قلة الدخل ليست مرادفًا للشعب أو الجماهير الشعبية ، فمن المماليك من كانوا فقراء كبعض جند الحلقة وأولاد الناس ومع ذلك فهم من طبقة المماليك وليسوا من جماهير الشعب ، كما أن الثروة أو الغنى أو السبق العلمي والثقافي ليست أساسًا لفصل أصحابها عن الجموع الشعبية ورفعها إلى طبقة المماليك(١) .

وعلى سبيل المثال ، فمياسير التجار سواء منهم الغرباء أو أهل البلد ليسوا من طبقة المماليك ، وإنما هم من الشعب ، حتى أنه أطلق على مياسير التجار في بعض الأحيان (بياض العامة) ، وكذلك اصطلح على تسميتهم بالفقهاء أو المعممون أو أصحاب الأقلام وهم من صميم الشعب(٢) .

وتشمل الطبقة الوسطى أرباب الأقلام من أصحاب الوظائف الديوانية والعلماء والأدباء والكتاب وأهل التصوف والطلاب وغيرهم . وقد نالت طبقة

---

(١) المماليك ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ وما بعدها .

(٢) عاشور ، العصر المماليكي ، ص ١١٥ وما بعدها ،

المثقفين امتيازات خاصة لدى نائب دمشق وأمراء المماليك . ويبدو أن شعور المماليك بأنهم أغراب عن البلاد التي يحكمونها حتى أنهم لا يتكلمون لغتها وهي اللغة العربية ، جعلهم بحاجة ماسة إلى دعامة قوية يتكئون عليها ويستندون لتأكيد شرعيتهم في الحكم وإرضاء جموع الشعب بمختلف طبقاته المتباينة ، علاوة إلى حاجتهم إلى أصحاب الأقلام ليتولوا الوظائف الشرعية والكتابية ، فلم يجدوا أمامهم غير هذه الطبقة ليستأنسوا برأيها وفتاواها وذلك لما لرجال الدين من مكانة مرموقة ومنزلة عالية في نفوس الناس ، ولقد أدرك بعض رجال الدين أهميتهم في الدولة وشدة الحاجة إليهم فتجرأوا على بعض النواب في دمشق وعارضوهم ، وبعضهم كان « جريئًا على الملوك والسلاطين ، فأبطل عدة مكوس ومظالم كثيرة »[١] .

وكان السلاطين والنواب يهابون بعض أصحاب الأقلام ويحترمونهم ، خاصة إذا كان الشيخ من المستقلين في الرأي الذين لا يبغون شيئاً من متاع الدنيا ومناصبها الزائلة ، ولذا قربهم السلاطين والنواب وجلسوا إليهم جلوس الطالب إلى معلمه ، وعاملوهم بلطف وأدب ، وأقاموا الأسمطة تكريمًا لهم ، وأغدقوا عليهم المنح والهبات السخية والمرتبات الوافية ويقومون من مجلسهم ويجلسونهم إلى جوارهم احترامًا لهم لأنهم قوة لها خطرها في اكتساب الرأي العام « ولأن بهم عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون »[٢].

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ١٢ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ .

كما حكى ابن بطوطة عن السلطان الناصر محمد قوله « إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريري قاضي قضاة الحنفية(*) »[١] .

وأحاط المماليك والولاة في دمشق أنفسهم بطبقة ممتازة من العلماء والفقهاء وقدموا الجوائز للمتفوقين والبارزين منهم[٢] .

وتميز العصر المملوكي ببناء كثير من المؤسسات العلمية التي استوعبت كثيراً من العلماء والفقهاء في مدينة دمشق التي أصبحت في عهد دولة المماليك الثانية قبلة العلماء والفضلاء .

فبنى السلاطين والأمراء والولاة ومياسير التجار كثيراً من المدارس(**)

(*) يصف ابن بطوطه شمس الدين الحريري بأنه « كان شديد القوة لا تأخذه في الله لومة لائم » وفي هذا تعليل لما قاله السلطان عنه .

الرحلة ، ص ٦٣ .

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

(٢) ابن قطلو بغا ، تاج التراجم في طبقات الحنفية ، ص ٤٩ .

(**) كانت المدرسة في العصر المملوكي مركزاً للعلم والتعلم ودار للعبادة وملجأ للمحتاجين وفقراء الطلاب . فيجد فيها المدرس والطالب والعابد وابن السبيل المأوى والغذاء والكساء والرواتب النقدية والعينية ، ورصدت لها الأوقاف للإنفاق عليها وعلى ما تحتاجه من مدرسين وإضاءة وأثاث ومطاعم .

د . سعيد عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ١٥٠ .

والمساجد والأضرحة(*) والكتاتيب ، والخنقاوات(**) التي باشر العلماء فيها نشاطهم العلمي والثقافي وكانوا ينعمون بخيرات الأوقاف الممنوحة لتلك المؤسسات كالأراضي والاسطبلات والقيساريات(***) والعقارات والحمامات والدكاكين والأفران والخانات والمعامل ومعاصر الزيتون وغيرها ، وأدت تلك السياسة إلى ازدهار الحركة الثقافية وعلو شأن هذه الطبقة ، وكانت بلاد الشام ومصر في العصر المملوكي دولة واحدة يحكمها سلطان واحد وله عاصمة واحدة هي القاهرة في مصر ، أما دمشق في الشام فهي من كبرى ولايات الدولة ، ولذا كان طلاب العلم ينتقلون بين الديار المصرية والشامية لطلب العلم على كبار العلماء والفقهاء في كل من الإقليمين[١] ، وكان العلماء في كافة المدن

(*) الأضرحة : كل ما يُقام على القبور من بناء وقباب ، وانتشرت هذه العادة في عصر المماليك ، وتلك عادة مستهجنة وبدعة منكرة ليست من الإسلام ، كما استنكرها علماء أهل السنة والجماعة .

ابن تيمية ، الفتاوى ، جـ ٦ ، ص ٤٥ .

(**) الخنقاوات : هي دور أوقفها سلاطين المماليك ، وكبار الأمراء على المتصوفة ، وكانوا يفيضون عليها بالأوقاف الوفيرة وساهمت في الحركة الثقافية ووجدت بعض الخنقاوات الخاصة بالنساء واللفظ خانقاه فارسي معرب .

القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٢ .

(***) القيساريات : القيسارية مبنى كبير تضم سوقًا ومخازن لبضاعة التجار ونزلاً يقيمون به كما اشتملت على اسطبلات للحيوانات وكانت تتم فيها عمليات البيع والشراء .

القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١١/١٢ .

(١) شاع في ذلك العصر بعض التعبيرات التي تدل على ذلك مثل قولهم العالم الرَّحلة ، بفتح الراء ، أي الذي تشد إليه الرحال ويرتحل إليه طلبًا للعلم .

ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٨٦ .

الشامية كالكرك ، طرابلس ، حمص ، حماة ، حلب ، القدس ، بعلبك ، صفد ، نابلس ، الخليل ، الناصرة ، غزة والرملة ، يتوجهون إلى دمشق عاصمة الشام السياسية والثقافية[١] .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن علماء دمشق قد امتد صيتهم العلمي ونبوغهم الفقهي إلى الديار المصرية ، وبعضهم تولى مناصب القضاء أو كتابة السر في القاهرة ، حتى أن شهاب الدين الباعوني قاضي القضاة الشافعية في دمشق تولى سنة (٨٠٢ هـ / ١٤٠٠ م) منصب قاضي القضاة بالديار المصرية[٢] .

وبعض العلماء الشاميين خوطب في عصر دولة المماليك بـ « الجناب العالي وما كان يكتب ذلك إلا للوزير بديار مصر »[٣] .

ولقد نبغ العديد من علماء دمشق في شتى العلوم النقلية والعقلية في العصر المملوكي كالتفسير والحديث والقراءات والتجويد والفقه وأصوله ، وألفوا المصنفات والمختصرات في علوم اللغة كالنحو والأدب والبلاغة وأصول اللغة وعلم العروض والقافية ، كما نبغوا في العلوم العقلية والاجتماعية كالتاريخ والمنطق وغيرهما . ومن أبرز رجالات تلك الطبقة :

١ - أحمد بن إسماعيل بن خليفة الحسباني الأصل الشافعي المذهب ،

---

(١) النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ ؛ الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ١٤٤ ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص٢٣١.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٤٤ .

تفقه في الدين وأصوله وعلم الفرائض والحديث وعلوم العربية ، رحل إلى القاهرة طلبًا للعلم مرافقًا لابن حجر العسقلاني للطلب ، كما أخذ العلم عن علماء حلب . ويقول عنه السخاوي « تقدم على أقرانه في عدة فنون وهو شاب ، وكان ذكيًا سريع القراء ة مع مشاركة في الفقه وأصول العربية[١] .

ودرس على الشيخ البلقيني وكان يحبه ويعظمه وشهد له بأنه أحفظ أهل دمشق للحديث حتى أن السخاوي أخذ عنه العلم في دمشق ، ويقال عنه انه كان كريمًا شجاعًا ، كما كانت له حلقة في التفسير بالجامع الأموي ، كما درس الحديث في المدرسة الأشرفية بدمشق ، وتولى قضاء ها لعدة سنوات . له تصانيف متعددة ، علق على الحاوي الصغير وعلى ألفية بن مالك ، وخرج أحاديث الرافعي في كتاب سماه (شافي العي في تخريج أحاديث الرافعي) . وللأسف فُقدت معظم مصنفاته أثناء غزو تيمورلنك لمدينة دمشق وإحراقها ، وتوفي أحمد بن إسماعيل بدمشق سنة (٨١٥ هـ / ١٤١٢م)[٢].

٢ - عبد المنعم بن أحمد بن محمد الصلت ت ٧٨٨ هـ ، أخذ العلم في القدس ، وسمع عليه البرهان الحلبي ، وحدث عنه أبو حامد بن ظهيرة وغيره[٣] .

٣ - عبدالرحمن بن عيسى بن مسرور الأيدوني[*] ، تفقه على علماء

---

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ ٤ ، ص ١٢٩ .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

(*) نسبة إلى قرية أيدون بالقرب من أربد بفلسطين .

دمشق ، ثم حدّث بها وسمع منه الفضلاء ، وتوفي بها سنة (٨٤٠ ه / ١٤٣٦م) [١] .

٤ - محمد بن أحمد أبو بكر العجلاني - الشهير بسرمين - ، سمع من فقهاء حلب وعلمائها كالباريني وابن العجمي ، اعتنى بقراءة الصحيحين ، جاور في مكة ، وحدث بها ، وسمع هناك ابن حجر العسقلاني ، وتوفي بها سنة (٨٤٠ هـ / ١٤٣٦م)[٢].

٥ - زيد بن غيث بن سليمان بن عبدالله الزين العجلوني الحنبلي، سمع على فقهاء دمشق ، وحدّث بها ، وتوفي سنة (٨٥٠ هـ / ١٤٤٦م)[٣] .

٦ - محمد بن معتوق بن موسى الحنبلي - ويعرف بابن الكركي - ، قدم دمشق من فلسطين واستوطنها ، وأخذ العلم على علمائها ، ثم حدّث فيها ، وسمع منه ابن فهد عالم مكة وغيره كالعلاء المرادي الحنبلي ، يقال عنه في ترجمته « كان أمامًا فاضلاً متقنًا ، وهو الذي أجاز السخاوي سنة ٨٥٠ هـ ، توفي بدمشق ودفن بسفح جبل قاسيون سنة ٨٥١ هـ »[٤] .

٧ - موسى بن ناصر بن خليفة الباعوني ، قدم دمشق ونزلها واستقر بها ، ونزل بالمدرسة البادرائية[*] ، وقرأ السبع على ابن اللباد ، وتفقه على

---

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ .

(٤) السخاوي ، جـ ٤ ، ص ١٢٥ .

(*) البادرائية : تقع داخل باب الفراديس شمالي جيرون وشرقي الناصرية الجوانية كانت ملكًا لأمير يُدعى أيامة الجبلي اعتقله العادل بالكرك واستولى على أملاكه ومنها هذه الدار التي ==

كثير من علماء دمشق ، وتولى القضاء بها ، وتوفي بدمشق سنة ٧٩٤هـ[١] .

٨ - إبراهيم بن محمد بن راشد الشافعي ، استقر بدمشق ، وحصل على العلوم العقلية والنقلية على علمائها ، ومهر في علوم القرآن ، وكان يشتغل بالفرائض بالجامع الأموي ، وتوفي بها سنة ٨٠٤ هـ[٢] .

٩ - خطاب بن عمر بن يوسف بن يحيى ، ارتحل إلى دمشق ، وأخذ العلم عن فقهائها وعلمائها كابن الجزري والتاج بن بهادر وابن قاضي شهبة الذي لازمه حتى فاق أقرانه . درس بمدارس كثيرة بدمشق منها : البرانية والشامية[*] والركنية[**] ، وخطب نيابة الجامع الأموي ، وتصدّى للإقراء والإفتاء ، وتوفي بدمشق سنة ٨٧٨ هـ [٣].

١٠ - إبراهيم بن محمد بن عيسى أبو إسحاق الإسبتي[***] ، قدم دمشق صغيراً مع أبيه الذي كان خطيبًا بقرية بيت عذراء من أعمال مرج

== اتخذها نجم الدين البادرائي مدرسة ومن طلابها الاربلي وابن الفركاح .
الدارس في تاريخ المدارس ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .

(١) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٣٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤١ .

(*) المدرستان الشامية والبرانية تمت الترجمة لهما .

(**) الركنية . منشئها الأمير ركن الدين منكورس الفلكي ت ٦٣١ هـ على أعيان المذهب الحنفي وكان واقف الركنية ابن أخي الملك العادل لأمه وكان من خيار الأمراء بنى مدرسته الركنية بسفح قاسيون وأوقف عليها أوقافًا كثيرة وعندما توفي بقرية جرود دفن بها ومن طلابها وجيه الدين القاري ، وبرهان الدين بن خضر .

(٣) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٤٨ .

(***) نسبة إلى قرية الإسبت بتلال عجلون .

دمشق ، أخذ إبراهيم علوم الشريعة والعربية على يد علماء دمشق ، فحفظ (منهاج الطالبين) في فقه الشافعية ، ولازم العلاء حجي ، ثم ارتحل إلى حلب رغبة في الاستفادة من علمائها ، ثم رجع إلى دمشق ، واستقر بها ، وعين قاضيًا بعد غزو تيمورلنك للمدينة ، ثم درس في مدرستها الركنية ، وكان الشيخ البلقيني يحبه ويقرظه ، قال عنه السخاوي « وهو في الشاميين نظير البيجوري في المصريين » . وكان حسن المعشر ، سهلاً ليناً ، نقي الظاهر والباطن ، مغرمًا بالشعر خاصة شعر المتنبي[١] .

١١ - محمد بن أحمد بن موسى بن عبدالله الكفيري ، من علماء دمشق ، تلقى العلم صغيراً على فقهائها فحفظ التنبيه عن ابن قاضي شهبة، وله نشاط ملحوظ في مجالات متعددة كالتدريس والفتيا ، وله كثير من المصنفات من أهمها (التلويح إلى معرفة الجامع الصحيح) من خمسة مجلدات ، و (الإحكام في أحكام المختار) ، كما اختصر كتاب الروض الأنف للسهيلي في كتاب له بعنوان (زهر الروض ومعين النبيه على معرفة التنبيه) ، ومن كتبه (نكت التنبيه) ، ومعظم مؤلفاته في الفقه والسيرة النبوية ، وتوفي بدمشق سنة ٨٣١ هـ [٢].

١٢ - عبدالله بن خليل بن فرج الرمثاوي ، تلقى علومه بدمشق ولم يغادرها ، وله صيت في علوم كثيرة كالفقه وعلم الكلام والحديث ، وساعده على التبحر في هذه العلوم ذاكرة لاقطة حافظة ، اجتمع إليه الناس في زاويته

---

(١) أبو المحاسن ، المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ١٣٩ ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١ ، ص١٥٧.

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ ٢ ، ص ٩٥ .

بالعقيبية يومين من كل أسبوع ، ألف في أصول الفقه (منار سبل الهدى[١] وعقيدة أهل التقى) (تحفة المجتهد وغنية المتعبد) الذي صنفه بمكة ، وقريء عليه بالمسجد الحرام ، وله كتاب (الذكر المطلق) حدث به في مكة ، وتوفي بدمشق سنة ٨٣٣هـ[٢] .

١٣ - إسماعيل بن أبي بكر بن شجاع الصلتي ، قدم دمشق وعاش فيها وتفقه على علمائها فأقام بالشامية البرانية ، وكان خطيبًا بالنيابة في الجامع الأموي ويقال انه كان بخيلاً رث الهيئة جماعًا للمال ، وتوفي بالمارستان النوري ، سنة ٧٩٤ هـ ، وخلف وراء ه ثلاثة وعشرين ألف درهم عينًا ، احتاط عليها أهل المارستان[٣] .

١٤ - محمد بن أحمد بن موسى الرمثاوي الشافعي ، كان من علماء دمشق ، اشتغل كثيراً بالعلم وعمل بالتدريس في المدرستين العصرونية والاكزية ، كان تقيًا ورعًا ، جاور بمكة ، وتوفي بها سنة ٨٠١ هـ [٤].

١٥ - عثمان بن محمد بن عثمان العبادي الشافعي ، تلقى علومه الأولى بالقدس والكرك ، ثم قدم إلى دمشق فاتخذها موطنًا ومستقراً ، وأخذ العلم عن فقهائها وعلمائها ، ونبغ في الفقه والحديث ، سمع منه ابن حجر العسقلاني ، اشتهر العبادي بجودة الخط حتى عُرف بالكاتب ، ثم رحل إلى

---

(١) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٢) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) ابن قاضي شهبة ، الاعلام بتاريخ أهل الإسلام ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ١١٤ .

القاهرة فتزوج بها ، وجاور بمكة فترة ، ثم عاد إلى دمشق وظل بها إلى أن توفي بها سنة ٨٠٣ هـ[١] .

١٦ - أحمد بن راشد بن طرخان الشافعي ، نشأ بدمشق وتعلم بها كثيراً من العلوم الشرعية والعربية كالفقه والحديث والنحو والأصول ، عمل بالتدريس والإفتاء والتآليف والتصنيف حتى عُدَّ من أعيان العلماء والفقهاء الشافعية بدمشق ، اتخذ لنفسه حلقة بالجامع الأموي ، كما درس بمدارس كثيرة منها الشامية والجوانية ، سمع منه السخاوي بدمشق وقال عنه « ليس بدمشق من أخذ العلم على وجهه غيره » ، وتوفي بها سنة ٨٠٣ هـ[٢] .

١٧ - يوسف بن أحمد الجمال ، نشأ بدمشق وكان من أفاضل علمائها على المذهب الحنفي ، درس وخطب بدمشق ، عُرِفَ عنه التقوى والصلاح والخير، توفي بها سنة ٨٠٥ هـ[٣] .

١٨ - عيسى بن محمد بن منصور الشافعي ، نشأ بدمشق وتفقه فيها ، حيث سمع من كبار علمائها وفقهائها وكلهم أجازوا له ، وقد اشتهر بالخط الجيد الذي كتب به الصحيحين في مجلد كبير ، كما كتب شرح النووي ، ثم جاور بمكة ، وتوفي بها سنة ٨١٦ هـ[٤] .

١٩ - محمد بن محمد بن عبدالله البلقاوي[*] ، نشأ في دمشق فقرأ

---

(١) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٠ .

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠١ .

(٤) النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

(*) نسبة إلى بدو البلقاء بالشام .

القرآن الكريم عند الأوزاعي ، وتعلم على يد كثير من الفقهاء المحدثين ، فحفظ التنبيه ، وألفية الحديث ، وألفية بن مالك ، ومختصر بن الحاجب ، وحضر دروس ابن قاضي شهبة ، وأخذ الفقه على يد يحيى القباني ، وأخذ العلم على يد كثير من العلماء الوافدين إلى دمشق ، ومنهم ابن حجر العسقلاني حتى زاد شيوخه على المائتين ، وارتحل في طلب العلم إلى بعلبك والقاهرة ، وفي القاهرة لازم ابن حجر ، وقرأ على علماء مصر كالمقريزي وابن الفرات ، كما زار القدس ودمياط(*) .

ومن تصانيفه (اللمع الألمعية لأعيان الشافعية) ، وكتاب (البرق اللموع لكشف الحديث الموضوع)، و (الاكتساب في تلخيص الأنساب) ، وعمل معجمًا لشيوخه سماه (الرقم المعلم في ترتيب الشيوخ بالسماع والاجازة على حروف المعجم) ، و (شرح ألفية العراقي سماه -صعود المراقي-).

وتولى عدة وظائف بدمشق منها مشيخة دار الحديث الأشرفية ، ووكالة بيت المال ، وكاتب السر وقضاء الشافعية ، اتصل بالسلطان فقربه إليه إلا أنه ما لبث أن غضب عليه فجرده من وظائفه ، وتوفي بدمشق سنة ٨٩٤ هـ[١] .

٢٠ - يحيى بن عبدالله بن محيى الدين الشافعي ، ارتحل إلى دمشق من اربد وعاش فيها ، وطلب العلم فأخذ على علمائها وأجازوا له ، وُصِفَ

(*) دمياط : مدينة عامرة على شط النيل الشمالي عند التقائه بالبحر ، وهي عامرة بالمساجد والجوامع وهي بلد شرف الدين الدمياطي عالم عصره وتجود فيها تربية الأغنام وصنع الحلوى. ابن الجيعان ، معجم البلدان المصرية ، ص ٢٥ .

(١) ابن طولون ، قضاة دمشق ، ص ١٧٩ .

بالتقوى والصلاح ، توفي بدمشق سنة ٩٢٢ هـ [١].

٢١ - خليل محمد الصلتي الشافعي ، استقر بدمشق بعد أن هاجر إليها من فلسطين وتفقه على يد علمائها وفقهائها ، ولعل من أبرزهم والد الغزي المؤرخ والشيخ إبراهيم اليمني ، وُصِفَ ابن الصلت بالعلم والصلاح ، وتوفي بدمشق سنة ٩٣٤ هـ [٢].

٢٢ - إبراهيم بن موسى برهان الدين الحسيني ، نشأ بدمشق ولازم علمائها وفقهائها ومنهم شهاب الدين الفرفور وولده القاضي ولي الدين ، تولى نظر المدرسة البادرائية بدمشق ، كما كتب بالوكالة على الناس ، وتوفي بها سنة ٩٣٥هـ ودفن بتربة الشيخ أرسلان ، وكان عالمًا محبوبًا حتى أن جنازته حضرها العديد من العلماء والأعيان بدمشق[٣] .

٢٣ - محمد بن علي بن جعفر الشمس الصوفي[*] ، ارتحل إلى دمشق

---

(١) الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٨٠ .

(*) الصوفي : انتشر التصوف في مصر والشام في عصر دولة المماليك الأولى والثانية . والمتصوفة هم الذين أعرضوا عن الدنيا وكرسوا حياتهم للعبادة ، ولكن دخل التصوف كثيرًا من الدخلاء والمتنطعين للحصول على مكاسب مادية وأدبية ، وفي هذه الفترة انتشرت الأبنية التي يقصدها الصوفية للإقامة والحصول على المأكل والمشرب والملبس والمسكن من غير أن يقوموا بأي عمل. ولقد انتشرت تلك الأبنية في كل أنحاء الدولة المملوكية ، وعرفت هذه الأبنية باسم الربط أو الزوايا أو التكايا ، وكان بعضها خاصًا بالنساء . وانتشرت في كثير من هذه الدور الموبقات والجرائم الأخلاقية ، وانحرفت تلك البيوت عن الغرض الذي أنشئت من أجله وهو إيواء الفقراء والمساكين والمتصوفة الزهاد المنقطعين لعبادة اللّه .

السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٧١ .

واشتغل بطلب العلم ولازم أبا بكر الموصلي ، ومال إلى التصوف ، وبعد مدة من إقامته بدمشق وصلت شهرته إلى مصر فاستقدمه سودون الشيخوني نائب السلطان في مصر ، وولاه مشيخة سعيد السعداء ، فدام بها نحو ثلاثين سنة . عُرِفَ عنه التواضع والكرم ، وكان حييًا كثير العبادة والتلاوة والذكر ، ذكره ابن حجر العسقلاني بالخير[١] .

ومن مؤلفاته (مختصر إحياء علوم الدين) ، وله مصنف (السول في شيء من أحاديث الرسول) ، واختصر الروضة والشفاء ، وله مختصر مشهور في الفروع ، توفي سنة ٨٢٠ هـ [٢].

٢٤ - عبدالله بن أبي عبدالله المرجاني الصوفي ، سكن دمشق واستقر بها ، وكان من أتباع الشيخ أبي بكر الموصلي ، باشر أوقاف الجامع الأموي مدة ، وتوفي بالمدينة المنورة عند عودته من الحج سنة ٨١٨ هـ [٣].

٢٥ - الشيخ إبراهيم العجلوني الصوفي ، عاش في دمشق ، وأخذ العلم على كبار فضلائها وعلمائها ، وكان - رغم تصوفه - لا يميل إلى التنطع والحصول على أموال الأوقاف وإنما كان يتكسب قوته من دكان يبيع فيه العطر في السويقة ، عرف بالتقوى والصلاح ، توفي بدمشق سنة ٩١٧ هـ [٤].

٢٦ - أحمد بن ناصر بن خليفة بن فرج عميد الأسرة الباعونية بدمشق ، تعلم أولاً على يد أخيه إسماعيل قاضي صفد وحفظ عليه المنهاجين الفرعي

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ١٩٥ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٩٦ ؛ والسيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

(٣) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢٩ .

(٤) الغزي ، الكواكب السيارة ، ج ١ ، ص ١١١ .

والأصلي وألفية بن مالك وغيرها . عاش بدمشق واتصل بعلمائها وفقهائها فأخذ عنهم كثيراً من العلوم كالفقه والنحو والحديث وأجازوا له ، سمع به الظاهر برقوق فولاه خطابة الجامع الأموي بدمشق ، كما تولى سنة ٧٩٣ هـ منصب قاضي قضاة الشافعية بدمشق ، فباشر مهام منصبه بعفة وأمانة ومهابة ، وكان يكاتب السلطان فترد إليه الرسائل بما يطلب ، كما قام بتدريس الفقه والتفسير والحديث بمدارس دمشق مثل الجوانية والركنية ، ثم عزل من القضاء لاختلافه مع السلطان برقوق ، وفي سنة ٨٠٢ هـ استقر في خطابة بيت المقدس ، ولكن السلطان فرج بن برقوق ولاه قضاء دمشق مرة ثانية سنة ٨١٢ هـ، ثم استقر أخيراً في منصب قاضي القضاة الشافعية بالديار المصرية ، فباشرها مدة ثم عزل ، فعاد إلى دمشق حيث توفي بها سنة ٨١٦ هـ[١] .

٢٧ - محمد بن عباس بن محمد بن محمد بن حسين بن محمد ، طلب العلم على علماء وفقهاء دمشق ، تولى القضاء في عدة أماكن منها قضاء غزة والقدس وبعلبك وحمص وحماة ، ورحل إلى القاهرة وحاول أن يعين في وظيفة قاضٍ للمالكية في مصر ولكن لم يوفق في سعيه ، ثم عاد إلى دمشق ليستقر فيها ، وتولى قضاء الشافعية بدمشق عدة مرات ثم عزل ، وتوفي بها سنة ٨٠٧ هـ[٢] .

٢٨ - سالم بن سعيد بن علوي الشافعي ، تفقه في القدس وعمره عشرون سنة ، ثم ارتحل إلى دمشق واستقر بها ، وبرز في علوم النحو والفقه والحديث ، وحضر على يد السبكي والعلاء بن حجي وغيرهما دروسًا كثيرة ،

---

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ ٦ ، ص ١٣٤ .

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ٢٧٧ .

ثم ارتحل إلى القاهرة طلبًا للعلم وأخذ الفقه على البلقيني وأخيراً عاد إلى دمشق فولي قضاء بصرى وظل يتولى عدة مناصب إلى أن توفي بها سنة ٨٠٨ هـ[١] .

٢٩ - بدر الدين محمد بن البرهان بن إبراهيم بن وهيب تولى القضاء وعمل بالخطابة في مساجد نابلس وبعلبك وطرابلس ، ارتحل إلى دمشق ، كما تلقى العلم في المدرستين الأكزية[*] والشيخية الأسدية[**] ، كما حدّث بنابلس وبعلبك ودمشق وطرابلس . قيل عنه أنه أقدم من عمل بالقضاء ، كان جيد السيرة في قضائه ، توفي بدمشق سنة ٨٨٦ هـ[٢] .

٣٠ - عبدالرحمن بن أحمد الزين الحنفي ، سكن بدمشق وأخذ العلم على علمائها ثم استقر في قضاء الحنفية حتى عُزل ، توفي سنة ٨٩٧هـ[٣] .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٨٠ .

(*) المدرسة الأكزية : بانيها اكز حاجب نور الدين محمود وهي غربي الطيبة وشرقي أم صالح وهي خاصة لطلاب المذهب الشافعي ، وتمت عمارتها أيام الناصر صلاح الدين ٥٨٦ هـ ، ولها أوقاف كثيرة . ومن طلابها الكمال بن الحرساتي وبدر النابلسي ودرست وحول مكانها سكنًا لبعض الناس .

النعيمي ، الدار في تاريخ المدارس ، جـ ١ ، ص ١٦٦ .

(**) المدرسة الشيخية الأسدية : تقع بظاهر دمشق وتطل على الميدان الأخضر وهي على الطائفتين الشافعية والحنفية ، أنشأها أسد الدين شيركوه ٥٦٤ هـ ، ومن علمائها عز الدين القرشي ، شرف الدين الرمثاوي ، شهاب الدين بن الحباب .

النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، جـ ١ ، ص ١٥٢ .

(٢) النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

(٣) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦١ .

٣١ - برهان الدين بن إبراهيم الحسيني الشافعي ، استقر في دمشق متعلمًاوعالمًا وتولى قضاء ها ، وتوفي بها سنة ٩١٩هـ [١].

٣٢ - موفق الدين يعقوب بن إسحاق ، كان صديقًا لابن أبي أصيبعة ، صاحب كتاب طبقات الأطباء ، كان مسيحيًا من كتاب ديوان الإمارة بدمشق، كان أديبًا جيداً حافظًا للأشعار، متمكنًا من التاريخ وأخبار الأول ، اشتهر بالحفظ الجيد للشعر والأدب ، وكان خطاطًا متميزاً ، مات ودفن بدمشق[٢] .

٣٣ - إبراهيم بن ناصر بن خليفة بن فرج من الأسرة الباعونية ، برع في النظم والنثر بالإضافة إلى سبقه في العلوم الدينية واللغوية . ومن مصنفاته (اختصار كتاب الصحاح للجوهري) ، وله عدة دواوين في الخطب والشعر ، اشتهر أمره حتى صار بحق شيخ الأدباء في الديار الشامية ، وتولى عديداً من الوظائف بدمشق من أبرزها خطابة الجامع الأموي ومشيخة الخانقاه الباسطية ، وتوفي بها سنة ٨٧٠ هـ[٣] .

٣٤ - محمد بن ناصر بن خليفة بن فرج الباعوني ، وهو أخ إبراهيم المُترجم له - سابقًا - ، حفظ القرآن والمنهاج بدمشق وتعلم على يد علمائها وفقهائها ، وله مصنفات عديدة منها (منحة اللبيب في سيرة الحبيب ، نظم فيه للسيرة النبوية في ألف بيت من الشعر) ، وكتاب (تحفة الظرفاء في تاريخ الملوك والخلفاء) ، وكتاب (ينابيع الأحزان) الذي ألفه في

---

(١) الغزي ، الكواكب السيارة ، ج ١ ، ص ١١١ .

(٢) السيوطي ، جـ ١ ، ص ٤٥ .

(٣) السيوطي ، ص ١٣ ، ١٥ .

الرثـاء . تقلد عـدة وظائف بدمشق وخطب بالجامع الأموي ، وتوفي بدمشق سنة ٨٧١هـ[١] .

٣٥ - وممن اشتهر بالأدب والشعر من العالمات من الأسرة الباعونية ، عائشة[*] بنت يوسف بن أحمد بن ناصر المعروفة بالباعونية ، نشأت في جو علمي في مدينة دمشق ، تلقت العلم على يد علمائها وفقهائها ثم رحلت إلى القاهرة لطلب العلم حتى نالت حظًا وافراً منه وأجيزت بالإفتاء والتدريس ووصفت بالشيخة الصالحة الأديبة العالمة ، ومن مصنفاتها (الفتح الحنفي) و(الملامح الشريفة والآثار المنيفة) ، والخصائص في النحو والأدب ولها أرجوزة شعرية بعنوان (المنازل العلية) ، وأرجوزة لخصت فيها (القول البديع في الصلاة على الحبيب للسخاوي) ، وكانت لها منزلة ومكانة خاصة عند سلاطين المماليك وأمراء دمشق ، وتوفيت بها سنة ٩٢٢ هـ [٢].

٣٦ - علاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن موسى الشافعي الدمشقي ، نشأ في دمشق ، وأخذ العلم عن علمائها ، كان مؤذنًا بالجامع الأموي ، وكان فاضلاً بارعًا شاعراً أديبًا ، عمل بالتجارة ، ليرتزق منها في

---

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ١١٤ .

(*) اشتهر بين العلماء في دمشق في عصر دولة المماليك الثانية - نساء كثيرات مثقفات في العلوم الدينية واللغوية ، حتى ان بعض الطلاب كانوا يقصدونهن لطلب العلم منهن ، ويبدو انه كانت لكثيرات منهن حلقات يحضرها كثير من الرجال وكن يتحدثن إليهن من خلف الستر . النعيمي ، الدار في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

(٢) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٨ ، ص ١١١ ، ١١٣ .

سويقة دمشق ، وتوفي بها سنة ٩٣٧هـ [١].

وقد حفلت كتب التراجم بكثير من العلماء الدمشقيين أو الذين مروا بها للتعلم والدراسة أو للمحاضرة في مدارسها ومساجدها ، أو للمهاجرين إليها في عصر دولة المماليك الثانية . ولعل ما ذكرناه يُلقي بعض الأضواء على مجتمع علماء دمشق من الفقهاء والمحدثين والقضاة وغيرهم .

ومن أبرز أفراد الطبقة المتوسطة ، طبقة مياسير التجار ، وكان يطلق عليهم بياض العامة . وهي من الطبقات المقربة إلى المماليك سواء في مصر أو الشام أو غيرهما من مناطق الدولة المملوكية نظراً لاتفاق المصالح بين التجار والمماليك الذين كانوا يدخلون الميدان التجاري طمعًا في الثراء والمال .

ولقد أحس التجار بالقوة الاجتماعية في مجتمع المماليك لأنهم كانوا مصدراً مهمًا من مصادر إمداد الدولة بالمال في أوقات الحرج والشدة ، كالحروب والمجاعات وانتشار الأوبئة .

ولقد ساعد على ازدياد الثروة في أيدي التجار موقع دمشق المهم على الطريق التجاري بين آسيا الصغرى أو أعالي الفرات وموانيء شرق المتوسط ، وكان مياسير التجار معرضين دائمًا لمطامع المماليك من الاستحواذ على ثرواتهم فكانوا يفرضون عليهم الضرائب المجحفة والرسوم الباهظة والمصادرات الدائمة التي تثقل كاهلهم[٢] .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤٥ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ .

ولقد تحدث عن التجار في العصر المملوكي كل من : السبكي، والمقريزي، والقلقشندي ، وابن إياس ؛ واعتبر هؤلاء الكتاب مياسير التجار من أهل اليسار وأولو النعمة منهم ، وهم بعد أهل الدولة مباشرة ، وهم الطبقة الممتازة من العامة مثل تجار العنبر(*) والحوائص ، وربما اختص التجار بهذه الصفة للتمييز بينهم وبين التجار الأجانب الذين جرى نعتهم بحسب جنسياتهم فيقال تجار الإفرنج أو المغاربة أو غيرهم (١).

ولقد نشطت حركة التجارة في دمشق بشكل ملحوظ في عصر دولة المماليك الجراكسة مما ساعد على إثراء هذه الطبقة خاصة مياسير التجار الذين يشبهون تجار الجملة الآن ، كما كانوا من كبار المُصدرين والمُستوردين الذين كانت لهم علاقات بالتجار الأجانب .

ومن أهم السلع التي عُرفت بدمشق آنذاك هي الزيت الشيرج(**) والصابون ، والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب ، والملابس الحريرية ،

(*) العنبر : نوع من الحرير والنسيج الفاخر الرقيق الذي تصنع منه الوسائد والستور . كما أطلق العنبر على نوع غال الثمن من العطور .

والحوائص : جمع حياصة ، وهي منطقة يشدها الأمير المملوكي إلى وسطه وتكون من الذهب أو الفضة بحسب مرتبة الأمير .

محمد دهمان ، مصطلح الألفاظ ، ص ١٤٠ .

(١) إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٧٣ .

(**) الزيت الشيرج : نوع من الزيوت يصنع من السمسم والدبس نوع من الحلوى ، والخرنوب نبات أسود جاف يصنع منه شراب عذب المذاق (الخرنوب) .

القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية ، ص ٣٥ .

والأسلحة البيضاء ، كما راجت تجارة الرقيق[١] .

وانتشرت بدمشق الأسواق الأسبوعية واليومية والحوانيت العامرة ، وعلى عادة المدن الإسلامية فإن كل سوق كان يختص بنوع معين من السلع ، وحفظت لنا المصادر التاريخية[٢] صوراً حية لمتاجر وأسواق المدن الكبرى في دولة المماليك الأولى والثانية ، وذكر من أسواقها سوق البزازين ، والأدميين (الجلود) ، وسوق القطايين (الملابس القطنية) ، وسوق الصاغة ، وسوق الخلع والأقباغين ، وسوق الحصريين ، وحوانيت الطباخين والوقادين والعلافين والفرائين ، وسوق الفراء .

كما بنى كثير من الأمراء والسلاطين والنواب في دمشق القيساريات[*] الكبيرة ، وهي وكالات كبرى للبيع والشراء يملكها كبار التجار تقوم بعمليات مصرفية واستثمارية هائلة ، وكانت تقوم بمهمة البنوك والشركات في زمانها ، وكانت الدولة تشرف على حراستها وحمايتها من السراق أو الحرائق .

ووما ساعد على إثراء طبقة التجار أن دمشق كانت التجمع الرئيسي

---

(١) السبكي ، معيد النعم ، جـ ٢ ، ص ٨٥ .

(٢) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ص ١٣٦ ؛ القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية ، جـ٢، ص ١٦ .

(*) وكالات تقوم بمهمة الأسواق الكبرى – ظهرت أولاً في بلاد الشام – وبها حوانيت تؤجر للتجار ويبنى فوقها نزل كبير لإقامة التجار الأجانب وملحق بها مخازن لتخزين بضائعهم وأموالهم . ويقسم النزل إلى عدة رباع يقيم بكل جزء تجار إقليم معين ، ويكون البيع فيها بالجملة أو بالتجزئة .

المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١٤٤ .

لقوافل الحج الشامي الذي يضم بين قوافله حجاج فارس وشمال العراق وحلب وديار بكر[١] .

وكان حجاج كل إقليم يُحضرون معهم صنوفًا من السلع المختلفة كاللؤلؤ والأحجار الكريمة والمعادن والمنسوجات الحريرية ، ومنهم من كان يجلب البضائع من بخارى[*] وسمرقند[**] وشيراز[***] وآمد وبلاد الأرمن والعراق[٢] .

وكانوا يحملون معهم التوابل كالفلفل والبهار والزنجبيل وجوز الطيب ، والعطور كالمسك والعنبر والكافور ، وخشب الصندل والقرنفل ، والأحجار الكريمة ، والورق ، والنيلة[****] ، والحرير الصيني ، والحديد والنحاس والرصاص والقصدير والذهب .

وكانت القوافل تحمل عند عودتها ما تهفو إليه بلدان المشرق الإسلامي

---

(١) ابن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(*) بخارى : من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها يعبر إليها من آمد ، وبينها وبين جيحون يومان وكانت قاعدة للسامانيين .

ياقوت ، المعجم ، جـ ١ ، ص ٣٥٣ .

(**) سمرقند : وهي سمران بالعربية ، مدينة معروفة ومشهورة في بلاد ما وراء النهر وهي قصبة أتراك الصغد وتقع في جنوب الوادي .

المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٨٠ .

(***) شيراز : مدينة مشهورة ، وهي قصبة ديار فارس .

المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨ ، ١١٩ .

(****) النيلة : صبغة تصنع من نبات يطلق عليه هذا الاسم ويتميز باللون الأزرق الداكن .

والحرير الصيني نوع من الحرير الطبيعي الذي يصنع من خيوط دودة القز وتشتهر به الصين .

كالمنسوجات المصرية والدمشقية ، والتحف النحاسية المكفتة ، والفضة ، وفراء السمور ، وأخشاب الصنوبر ، والخيول العربية [١].

ويقال ان قافلة الحج الشامي في مسيرتها إلى تبوك كانت تتكون من ثلاثة عشر ألف جمل[٢] ، كما زادت ثروات التجار بأنشطة التجارة الخارجية . وكانت توجد بدمشق (دار الطعم) وهي بمثابة وكالة تجارية ضخمة أعدت للتجار الأجانب من أهل جنوة والبندقية وغيرها ، وتؤدي خدمات جليلة للتجارة الأجنبية وازدهارها ، وتقوم بأيواء التجار وخزن سلعهم وحفظ أموالهم، ويوجد قناصل للإشراف على تجار كل بلد أوربي يأتي إلى دمشق ، وكثرت العملات الأجنبية الذهبية والفضية بأوزانها المختلفة في أيدي التجار مما زادهم ثراء[*] . وعُرف عن تجار دمشق نشاطهم الكبير في مجال التجارة الخارجية ، مما يشير إلى وجود علاقات تجارية بين كثير من الأقطار الأوربية البعيدة والتجار المصريين والشاميين[٣] .

---

(١) نعيم زكي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ١٣٨ .

(٢) الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٧٠٠ .

(*) كثرت العملات الافرنجية مع كبار التجار في دمشق ومنها الدنانير الذهبية بأنواعها المختلفة (كالافرنتي والافلوري والبندقي) . وكان على أحد وجهي الدينار صورة رجل في دائرة مكتوبة باللغات الأجنبية وهي صورة الملك أو الأمير الذي ضربت العملة في عهده ، وعلى الوجه الآخر صورة أحد القديسيين كبولس وبطرس الافرنتي نسبة إلى فرنسا ، والافلوري فمنسوب إلى فلورنسا ، والبندقي والدوكات نسبة إلى البندقية .

السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٧ .

(٣) سوفاجيه ، دمشق الشام ، ص ١٦ .

ومن أبرز رجال هذه الطبقة من التجار المياسير :

أولاً - تجار الكارم(*) (التوابل) :

١ - ابن مُسلّم ، ت ٧٨٦ هـ ، من رؤساء التجار ، كان والده حاجيًا ثم عمل بالتجارة في الكارم وتزوج ابن مسلم ابنة أحد المحتسبين ، وكان من أغنى الرجال في عصره ، ومجال تجارته في الشام ومصر والهند واليمن والحبشة ، وامتلك عدداً كبيراً من العبيد ، وترك لكل ولد من أولاده عشرين ألف دينار ، أوقف على مدرسة في دمشق ستة عشر ألف دينار وأرض وبيت وتزوجت ابنته كارميا على عادة التجار في مصاهرة أغنياء المهنة الواحدة [١].

٢ - الحزوبي ، ت ٧٨٧ هـ ، كان رئيسًا لتجار الكارم في الشام ومصر واليمن ، امتلك مصنعًا للسكر ، أوقف مدرسة في دمشق[٢] .

٣ - ابن اجم ، ت ٨٠٣ هـ ، كان من سماسرة الكارم في دمشق ، امتلك مصنعًا للسكر(**) جعل منه فندقًا[٣] .

٤ - المحلي ، ت ٨٠٦ هـ ، كان رئيسًا للتجار بدمشق ، عمل تاجراً للخاص الشريف ، وكان رسولاً للسلطان إلى اليمن ، وعمل بالتجارة في الشام

(*) كان يطلق على تجار التوابل في العصر المملوكي تجار الكارم .

(١) نعيم زكي ، طرق التجارة الدولية ، ص ٢٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٥ .

(**) راجت تجارة السكر في عصر دولة المماليك الثانية وكان الاعتقاد السائد انه يقي من الطواعين. إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة .

(٣) صبحي لبيب ، التجارة الكارمية ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٤ ، عدد ٢ ، القاهرة ١٩٥٢م ، ص ١٣ .

ومصر واليمن « جددا مسجداً ، وأوقف مدرسة بدمشق ، امتلك عبيداً وبيوتًا قيمتها خمسين إلف دينار ، رزق بابن متلاف للمال فبدد ثروته »[١] .

٥ - الاكفهي ، ت ٨٢٠ هـ ، كانت له تجارات في دمشق ومكة وهرمز وهراة[*] وسمرقند ، وكان مثقفًا ، له دراية بالحديث وقرض الشعر[٢] .

٦ - الكيلاني ، ت ٨٤٤ هـ ، عمل بتجارة البلاط ونشطت تجارته في الكارم في دمشق وسورية ومصر ، جلب توابل لحساب السلطان[٣] .

٧ - الاسعردي ، من كبار تجار دمشق والشام أوقف مدرسة ، تزوج من ابنة تاجر ثري هو ابن المزلق[٤] .

٨ - ابن المزلق ، ت ٨٤٨ هـ ، تاجر الخاص السلطاني ، ورئيس التجار بدمشق ، أعطى وأوقف كثيراً من الأوقاف كالخانات والدكاكين ، يقال أن ثروته تجاوزت مليونًا وثمانمائة ألف درهم نقداً ، وممتلكات وبضائع عينًا ، وكان والده يمتلك مصنعًا لصناعة الطوب ، وكان أولاده في وظائف مرموقة قضاة وموظفين ، يقال انه عقد اتفاقًا مع البدو لحماية ثروته [٥].

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة ١٣ .

(*) هراة : مدينة عظيمة من مدن خراسان وصفها ياقوت سنة ٦٠٧ هـ بأنها من أعظم مدن المنطقة . تكثر بها البساتين ويكثر بها العلماء وأهل الفضل ، هاجمها التتار وخربوها سنة ٦١٨ هـ . وهي الآن من مدن أفغانستان .

ياقوت ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٥ ، ص ٣٩٦ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٦ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٨.

(٥) سوفاجيه ، دمشق الشام ، ص ٣٦ .

المبحث الثالث

العامة وسائر فئات الشعب

انتشرت كلمة العوام أو (العامة) خلال عصر دولة المماليك الجراكسة ، فدلت على جميع الرعايا من سكان المدن سواء في مصر أو الشام - باستثناء رجال القلم وأصحاب العمامة - ، حتى أن مياسير التجار كانوا يُعرفون أحيانًا ببياض العامة ، أما السواد الأعظم من العامة فهم دون بياض العامة ثروة ومكانة حتى نصل إلى زمرة الحرافيش(*) أو الزعار أو العياق ، وهؤلاء أقل مراتب الشعب ، والغالبية العظمى منهم لا يعملون عملاً ثابتًا يرتزقون منه ، وبعضهم كان ينخرط في عصابات اللصوص المنتشرة في المدن ، (مناسر الحرامية)[1] ، وفي كثير من المصادر استخدمت كلمة العامة بهذا المفهوم الأخير وقصد بها الطبقة السفلى ، فيقال نهب العوام بيت الأمير الفلاني ، وانفرد العنصر العربي بتسمية أخرى تدل عليه فكان يطلق عليهم (عرب أو عربان أو أعراب) . كما كان هناك المزارعون المشتغلون بالزراعة في القرى وأحواز دمشق المختلفة .

(*) الحرافيش : مفرده حرفوش وهم الرعاع والدهماء وضعاف الخلق .
سعيد عاشور ، كشاف المصطلحات ملحق بكتاب العصر المماليكي في مصر والشام . نقلاً عن المستشرق دوزي .ص ٣٢٥

(١) إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٤٩ وما بعدها .

واكتظت دمشق كغيرها من المدن الشامية بأعداد كبيرة من العمال والصناع في الحرف(*) والمهن المختلفة والباعة والسوقة(**) والسقائين والمكارين(***) والمتعطلين ، وعاش أفراد العامة في ضيق وعسر وفقر مدقع بالقياس إلى غيرهم من الطبقات كالمماليك أو طبقة أرباب الأقلام ومياسير العامة من كبار التجار ، حتى أن كثيراً منهم كان لا يجد قوت يومه أو خرقة بالية تستر جسده في زمهرير الشتاء أو حر الصيف ، بالإضافة إلى كثرة المتسولين في الطرقات والخوانق والربط . ولقد عانى أفراد هذه الطبقة من ويلات الطواعين والأوبئة والمجاعات التي اجتاحت دمشق ، ويبدو أن هذه الحالة كانت من أبرز الأسباب لاحتراف مجموعات كبيرة منهم للسلب والنهب واحتراف اللصوصية أو الاشتغال بأعمال منافية للآداب أو أعمال مهينة اجتماعيًا وإنسانيًا(****) .

(*) ذكر لنا أحد كتاب الحسبة سبع عشرة حرفة في المدن المملوكية على سبيل المثال « كالعلافين والطحانين والفرانين والخبازين والشوائين والنقاقيين والكبوديين والجزارين والرواسين والطباخين والشرائحين والهراسين وقلايين السمك وقلايين الزلابية والشرابيين واللبانيين
د . محمد المنسي عاصي ، الحسبة في العصر المملوكي ، ص ١٨ .

(**) كان يطلق على السوقة المتسببون ويطلق على السلعة التي يبيعونها ويرتزقون منها السببية .
د/ قاسم عبده قاسم ، الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي ، ص ١٠٥ .

(***) المكارين : هم سائقو الحمير ويقومون بتوصيل الناس في أنحاء المدينة .
المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦٤ .

(****) وكان منهم المرابون والسماسرة وصرافي العملة وتجار النخاسة ، والذين يعملون في البغاء وبائعي الخمر والذين يعملون بالرقص أو الندابة في المآتم أو أعمال الزرائب والفضلات ، وعمال الدباغة ، ومدربو الكلاب والحمير ، وعمال القمامة ، وعمال نطاح الكباش ، ومناقرة الديوك، والضاربون بالرمل لكشف الغيب ، والمشعوذون . وكلها من المهن المرفوضة في المجتمع ==

أما طبقة الفلاحين وهم الذين يزرعون في القرى المجاورة لدمشق أو مناطق الغوطة ، فلم يكن نصيبهم سوى الاهمال والاحتقار من جانب المماليك ، حتى صار لفظ مُزارع أو فَلاح في العصر المملوكي مرادفًا للشخص الضعيف المربوط بالأرض كالعبيد ، وزاد من حال الفلاحين سوءاً كثرة الضرائب والمظالم التي حلت بهم من الولاة وجامعي الضرائب وملاك الاقطاعيات[٢] ، وكانوا يشكلون قطاعًا كبيراً من العوام ، وتنتشر قراهم في أحواز البلاد وسهولها وأوديتها ويشتغلون إلى جانب الزراعة بالرعي أو الصيد حسب الطبيعة الجغرافية للمكان الذي يعيشون فيه ، ولأن معظم الأراضي الزراعية التي يعملون بها كانت اقطاعات للأفرادوالأجناد أطلق عليهم المؤرخون (أجناد العسكر وأرزاقهم)[٣] .

ومن المظاهر الأخرى للظلم الاجتماعي انهم كانوا يلزمون المزارع بالفلاحة، ولا يسمح لهم بتركها إلا بعد مضي ثلاث سنوات ، وإن هاجر أو هرب منها يُعاد بالقوة الجبرية ، فكان حالهم يشبه حال أقنان الأرض في أوربا ، العصور الوسطى ، وكان المسئول عنهم هو (ديوان الجيش) المسئول عن الاقطاعيات في الدولة [*].

== وأشير إليهم على انهم (أراذل العامة) أو (أوباش العامة) أو الغوغاء .

ابن إياس ، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤٦ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج ١، قسم ٢، ص ٣٧١ ؛ الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

(١) سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ملحق المصطلحات ، ص ٣٠٠ وما بعدها .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٣١٤ .

(*) وعن هذا الموضوع انظر : ==

ومما كان يثير نقمة المزارعين على المماليك انهم كانوا يعتدون على أموالهم وأراضيهم وأعراضهم(١) في قسوة وعنف . ولذا حفلت كتب الفقهاء والقضاة ببيانات المعارضة الدينية والإنسانية لهذا الجرم الذي يرتكبه المماليك، فالفلاح في نظر السبكي « حر لا يد لآدمي عليه وهو أمير نفسه »(٢) .

ولم تكن الاقطاعات حكراً على طبقة المماليك واجنادهم فحسب ، وإنما منحت طبقة المعممين من المشايخ والقضاة والفقهاء الاقطاعات الزراعية الخاصة في دمشق وعجلون وحلب وحماه وحمص ، وكانوا يخرجون كل عام إلى قراهم لجلب عوائدها ومحاصيلها(٣) ، كما امتلك كبار رجال الدولة وعربانها الاقطاعات الشاسعة(٤) ، حتى وقع الفلاحون بين فكي الرحى ، فالكل ينهب قوتهم ويتسلط على مقدرات حياتهم ، ويتعرضون لأبشع أنواع الظلم الاجتماعي ، وكانت المرأة الريفية تقوم بمساعدة زوجها في أعمال الزراعة وجني المحصول وإعداد الطعام وغزل ونسج الصوف وحلب الماشية واستخراج الجبن والزبد(٥) ، كما اشتغل بعض المزارعين بالحياكة وبيع البز من القطن ، وكان بعض التجار ينتقل ببضاعته بين القرى وبيع السلع وكان يتم بيعها

= أوربا في العصور الوسطى ، سعيد عاشور ؛ نورمان كانتور ، العصور الوسطى الباكرة ، ترجمة قاسم عبده قاسم ؛ موريس كين ، حضارة أوربا العصور الوسطى الاقطاع الأوربي العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم .

(١) السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٨ .

(٣) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، والصفدي ، الوافي ، ج ٧ ، ص ٦٦ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(٥) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ ، و الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

بالمقايضة[١] ، وقد اشترك القرويون في الأحداث العامة والثورة ضد المماليك ، كما شاركوا في الحروب الصليبية أو المغولية[٢] .

كما كان العربان يشكلون قطاعًا كبيراً وهامًا من سكان منطقة أحواز دمشق ، وكانوا يتألفون من عشائر وبطون ، امتدت مضاربهم على أطراف البادية ، وكانوا في أحيان كثيرة يجاورون القرى والاطراف ، والعربان بطبعهم يأنفون حياة الاستقرار داخل مدينة دمشق وغيرها من مدن الشام ، ومارسوا حرفة الرعي وتربية الماشية بكثرة ، ولم يمارسوا حرفة الزراعة إلا في أضيق الحدود لاحتقارهم لهذه الحرفة[٣] .

وكان الفلاحون يعانون من قسوة البدو واعتداءاتهم المتكررة عليهم ، وقد حافظ المجتمع البدوي على كثير من عاداته وتقاليده الموروثة في مجتمعاتهم ، ولم يكن البدو بمعزل عن الحياة العامة ، بل شاركوا في كثير من الأحداث العامة وفي معظم المعارك ضد الصليبيين والتتار أثناء هجومهم على الشام ومصر ، وعهد إليهم المماليك أحيانًا بحراسة طرق القوافل والحجيج بين الشام ومصر والحجاز . وكانت معظم قبائل دمشق تنتمي إلى بطون من اليمن القحطانية وهم الذين تمركزوا في الشام في عهد الهجرات القديمة من الجنوب ثم ازدادوا قوة وانتماء إلى الأرض في عهد الدولة الأموية ٤٠ - ١٣٢ هـ[٤] السابقة .

---

(١) القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية ، ج ١ ، ص ٩٤ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٤٢ ؛ وابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٥ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٩٣ .

(٤) د . يوسف العش ، الدولة الأموية ، ص ٤٢ ؛ وابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

وكانت طبقة العوام محرومة من التعليم ولم تحقق الثروات الطائلة ، بل كانت وحدات بشرية مهمتها الأساسية دفع الضرائب للطبقات الأخرى التي تليها ، وبلغ من شدة هوانها أنه قد جرت العادة أنه بعد أن ينتهي السلطان أو الوالي من تناول طعامه يسمح للعامة بنهب السماط [١]. ورغم ذلك كانت هي الطبقة الكادحة والمبدعة ، وما الآثار والفنون الباقية في دمشق وبقية مدن الشام ومصر في العمارة والفنون من نقش وزخرفة وخطوط ، وما الصناعات الرخامية والنحاسية إلا من إبداعاتهم ، ولقد كوفيء كثير من الحرفيين المهرة مثل النجارين والبنائين والمرخمين والمطعمين بالخلع والتشاريف السلطانية تقديراً لعملهم .

---

(١) د/ علي إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك ، ص ٨٤ ؛ قاسم عبده قاسم ، المجتمع المملوكي ، ص ٨٦ .

المبحث الرابع

أهل الذمة

يتألف سكان دمشق كغيرهم من سكان المدن المصرية والشامية من الطوائف الدينية التالية :

المسلمون : ويتألف منهم غالبية السكان ، ويتمتعون بكل الامتيازات الاجتماعية في الدولة ، وكانوا يعتنقون غالبية مذاهب أهل السنة الأربعة وإن كان الكثير منهم يعتنق المذهب المالكي والحنبلي والشافعي ، والقليل منهم كان يعتنق المذهب الحنفي الذي كان منتشراً بكثرة في إقليم العراق . ولقد بنى الأمراء والسلاطين كثيراً من المدارس لتدريس المذاهب الاسلامية المختلفة [١] .

لقد عاش أهل الذمة في دمشق وفي سائر مدن الشام في عصر المماليك الجراكسة فئة من الفئات الدينية والاجتماعية ، ويرجع وجود أهل الذمة في دمشق إلى عهود الفتح الأولي ١٣ هـ وأقدم عهد منح لليهود والنصارى كان لأهل دمشق ، ومما جاء فيه : « هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها ، أعطاهم أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يُهدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم ذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنون لا يعرض لهم إلا بخير إلا إذا أعطوا الجزية »[٢] .

وتوزعت الأقليات اليهودية والمسيحية بين السكان ولكن يبدو انهم عاشوا

---

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٧٩ ؛ النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، مواضع متعددة .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢١ .

في مناطق منفصلة مجاورة لأحياء دمشق ووجدت بعض الشوارع الخاصة بهم في دمشق ، كما احتل الأرمن والموارنة أحياء في دمشق وحلب والقدس وغيرها من المدن الشامية .

النصارى(*) : انتشرت هذه الطائفة في مدينة دمشق ، وخصصت لهم أحياء يقيمون(١) فيها ، ولقد وقفت هذه الطائفة إلى جانب بعض سلاطين المماليك ، وقدموا لهم العون والمساعدة من الداخل والخارج ، وكان نصارى دمشق عربًا يشعرون برابطة المواطنة وكثيراً ما اشتركوا مع المسلمين في صد الغزاة من الصليبيين والتتار عن الديار الشامية ، ولم يقتصر دفاعهم عن دمشق في العصر المملوكي ، بل امتد إلى معظم العصور السابقة واللاحقة ، حتى أن أحد الرهبان في عصر الأسرة الأيوبية التي حكمت مصر والشام سافر إلى جزيرة صقلية ليستطلع أخبار الحملة الصليبية السادسة الزاحفة بقيادة الامبراطور الألماني فردريك الثاني إلى بيت المقدس(٢) .

ولقد نظر المسلمون - في غالب الأوقات - إلى المسيحيين واليهود نظرة التسامح الديني والأخوة الإنسانية ، ولم يشعر أهل الذمة بأي نوع من التفرقة(**) أو الحرمان من المميزات الاجتماعية أو الاقتصادية إلا في أوقات

(*) أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى مدينة الناصرة حيث وُلِدَ السيد المسيح في إحدى قراها وهي قرية بيت لحم .

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٢٣١ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٦ وما بعدها .

(**) هناك بعض الأمور التي تجعل الذمي بريئًا من ذمة الشرع : وهي الكفر بالله وذكره بما لا يليق بجلالة أو ذكر كتابه أو دينه أو رسوله بما لا ينبغي أو اجتماعه على حرب المسلمين أو يزني بمسلمة أو يصيبها باسم نكاح أو يفتن مسلماً عن دينه أو يقطع على المسلم الطريق أو ==

الفتن ولكن تلك المشاعر لم تكن دائمة بل سرعان ما تزول عندما تعود الأمور إلى طبيعتها وتحل مشاعر التسامح والود بدلاً من مشاعر الغضب والكراهية ، وذلك بعدما تزول أسباب الفتن والبغضاء ، من ذلك مثلاً ان السلاطين كانوا يفرضون على أهل الذمة أزياء خاصة في فترات الفتن(**) ، كالمرسوم السلطاني الذي صدر سنة ٧٠٠ هـ ، واستمر لفترة طويلة حدد بموجبه زي النصارى واليهود فألزم النصارى بلبس العمائم الزرقاء واليهود القراء الملابس الصفراء والسامرة - وهي فرقة من فرق اليهود - العمائم الحمراء[١] ، وكذلك القيود المفروضة عليهم بركوب أنواع معينة من الدواب ، وكان القرار عاماً يشمل الرعايا اليهود والمسيحيين في جميع الأراضي الممتدة ما بين النوبة والفرات ، أما في الأحوال العادية فتشير المصادر المملوكية إلى أن السلاطين والأمراء كانوا يرعون أهل الذمة ويبسطون عليهم ألوان الحماية ولرعاية « وأهل الذمة فأوهم إلى كنف العدل الواسع من أن تمتد إلى أنفسهم يد جانٍ ، وإلى أموالهم يد طامع »[٢] .

== يؤوي للمشركين جاسوسًا ، أو يكاتب المشركين بأخبار المسلمين ، أو يقتل مسلمًا أو مسلمة عمدًا .

انظر في هذا الموضوع ابن تيمية ، احكام أهل الذمة في الاسلام .

(*) وفي فترات الاضطراب والفتن والشك في ولاء النصارى واليهود كانت تصدر الأوامر في الدولة المملوكية بأن يلبس النصارى العمائم الزرقاء ويلبس اليهود العمامة الصفراء ، وحرّم عليهم ركوب الخيل والبغال ، أما من يركب منهم حماره فليركبه مقلوبًا ، وألا يدخل نصراني حماماً إلا وفي عنقه جرس ، وألا يلبس أحدهم ملابس المسلمين وألا يستعمل الأمراء كتابًا من النصارى ، ويطرد منهم من يكون في خدمة السلطان أو أحد الأمراء .

المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٣٤ .

(١) د . أ . س . ترتون : أهل الذمة في الإسلام ، ص ١٢٩ ، ترجمة د/ حسن حبش .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٢٣٢ .

وكان نصارى دمشق يشتغلون بجميع المهن والصنائع ، فمنهم التجار المياسير وصغار التجار والزراع وأرباب الحرف والصنائع ، كما اشتغل جمع كبير منهم بالعلوم والآداب والفنون ، واشتهر منهم الأطباء والكتاب والفنانون وتقلد بعضهم الوظائف العالية ، ومارسوا عبادتهم بحرية في كنائسهم وبيعهم وكان لكل من النصارى الملكانيين(*) واليعاقبة(**) قساوسة وبطريك عام يرعى شئون الطائفة ، ويكون همزة الوصل بينهم وبين والي دمشق ، وكان إليه أمر الكنائس والبيع والأديرة وشئون الرهبان في دمشق وبعض مدن الشام [١].

كما عمل كثير من المسيحيين بصناعة الخمور حيث كانت مزارع الكروم منتشرة على سفوح دمشق ومغانيها ، وقد ذاعت شهرة النبيذ الدمشقي في بلاد الشام . ولقد ازدهرت صناعة الخمور في بعض فترات العصر المملوكي وسمحوا بتناولها في حانات خاصة مقابل ضريبة معينة أطلق عليها « ضمان المعاصر »[٢] .

(*) المذهب الملكاني : أحد المذاهب المسيحية وهو مذهب كنيسة روما وأطلق عليه هذه التسمية نسبة إلى الملك أو الامبراطور وله تفسيره الخاص في طبيعة المسيح .

(**) اليعاقبة : نسبة إلى يعقوب البرادعي أحد القساوسة الكبار في منطقة الشام وله مذهب في طبيعة المسيح يخالف المذهب الملكاني وتعتنق مذهبه كنائس الشرق .

القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٢٥٢ وما بعدها ؛ ابن حزم ، الملل والنحل ، جـ ٢ ، ص٨٥ .

(١) ابن فضل الله العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٤ ؛ والقلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٤ .

(٢) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والأبدان ، ج ١ ، ص ٢١١ .

وفي بعض الفترات كان المماليك يخافون من المجاهرة بالخمر وشربها في الحانات لوجود علماء أجلاء أنكروا الخروج على الشرع كابن تيمية وابن دقيق العيد والعز بن عبدالسلام وغيرهم .

وتشير المصادر إلى وجود جماعات من المسيحيين في دمشق يعملون بصياغة الذهب والفضة وصياغة المجوهرات وتقطيع الأحجار الكريمة والتكفيت(*) .

اليهود : عاشت أقليات من اليهود بطوائفهم المختلفة من السامرية والربانيين والقرائين(**) ، وقد ازداد عددهم في مصر والشام بداية من العصر الفاطمي ونالوا حظوة ومكانة في دمشق ، وزاولوا فيها مهنة التجارة[1] ،

(*) التكفيت : تطعيم النحاس بالفضة أو الفضة بالذهب ، وذلك بأن تحفر الزخارف على السطح المراد زخرفته حفراً عميقًا ، ثم يملأ الجزء المحفور بالذهب أو الفضة أو المينا أو غيرها . وقد انتشرت هذه الطريقة في الفنون الأسلامية .

محمد عبدالعزيز مرزوق ، الفن الإسلامي ، ص ١٤٤ .

(**) تختلف هذه الطوائف عن بعضها البعض نظراً لاختلاف مذاهبها، واختلاف التوراة التي بيد كل طائفة من أفرادها عن الأخرى .

القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٣ ومابعدها .

ويقول أحد الشعراء في معرض حديثه عن منزلة اليهود زمن الفاطميين :

يهود هذا الزمان قد بلغوا　　غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم　　ومنهمو المستشار والملك

يا أهل مصر إني نصحت لكم　　تهودوا فقد تهود الفلك

السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، ١٤٦ .

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٢٥ .

واشتهر منهم الأطباء والصيادلة والصناع المهرة في صياغة الذهب والأحجار الكريمة والصيارفة والنساجون[١] .

ونَعِمَ اليهود بروح التسامح الديني في ظل دولة المماليك ، فمارسوا نشاطهم وحياتهم بأمن وسلام وكان لهم رؤساء بمدينة دمشق يرعون شئونهم ويشرفون على بِيَعِهِمْ ودور عبادتهم وشرح التوراة لهم ومرجعهم في التحريم والتحليل ، أما رئيس اليهود السامرة فكان مركزه نابلس، وله وكيل ينوب عنه بدمشق وغيرها من البلدان الشامية ، ويطلق اليهود على زعيمهم الديني (رأس الجالوت)[٢] .

وهكذا كان أهل الذمة طبقة من طبقات المجتمع الدمشقي ، عاشوا جنبًا إلى جنب ، وعاصروا كل الأحداث الهامة التي مرت بها المدينة ، وصاروا بمرور الأيام جزءاً من نسيج المجتمع يرتبطون به برباط المصلحة المشتركة .

---

(١) بنيامين التطيلي الأندلسي ، رحلة بنيامين ، ص ١٠٩ .

(٢) العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٣ ؛ والقلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص١٩٤ ، و ج ١٢ ، ص ٤٢٨ ، وما بعدها .

ثانياً : علاقات فئات المجتمع بطبقة المماليك :

كان مجتمع مدينة دمشق في عصر دولة المماليك الثانية (٧٨٤ - ٩٢٣هـ) مجتمعًا طبقيًا اقطاعيًا تتفاوت فيه الحقوق ، فحقوق الفرد في هذا المجتمع تختلف بحسب الطبقة التي ينتمي إليها الفرد نفسه ، كما أن التباين واضحًا بين أفراد الطبقة الواحدة ، فإذا كان الصراع الطبقي ظاهراً بين مختلف الطبقات ، فأنه أكثر وضوحًا بين الأفراد داخل الطبقة الواحدة من حيث الحقوق التي يمتع بها كل فرد ، والخدمات التي يؤديها المجتمع له .

وتلك خصائص عامة كانت تتميز بها كثير من المجتمعات في العصور الوسطى ، مجتمعات مغلقة الطبقات ، جامدة البنيان لا تسمح بالانتقال من طبقة لأخرى تحكمها الفواصل والأسوار والخطوط الحمراء بحيث يعرف كل فرد حدود حركته ، مهما أوتي من ذكاء اجتماعي أو ثروة ، فهو يتحرك في إطار هذه الخطوط ولا يسمح له بأي حال بالانتقال إلى طبقة أخرى ، غير الدائرة الخاصة بطبقته[١] .

ومما لا شك فيه ان هذا التشكيل الطبقي بأعرافه وقوانينه الصارمة يتعارض مع روح الاسلام الذي يؤمن به أغلب عناصر المجتمع في دمشق ، ولكن المماليك هم الذين رسموا هذه السياسة وحددوا تلك الدوائر تحقيقًا لمصالحهم الذاتية ، حتى حركة التاريخ ذاتها ارتبطت بالطبقة الحاكمة وحرمت سائر الطبقات من تدوين أخبارها وأحداثها - اللهم إلا في النذر اليسير - فدارت حوادث التاريخ حول طبقة من الطبقات هي التي يتكون منها

---

(١) إبراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ، ص ٣٥ وما بعدها .

جهاز الحكم ويبرز من خلاله الفرد الحاكم . وغدا هذا المفهوم جزءاً لا يتجزأ من الفكر السياسي والاجتماعي لدى المسلمين والعرب(١) .

وصار تاريخ المسلمين السياسي والاجتماعي تاريخ الطبقة الحاكمة في كل عصر ، يدرس حسب الحقب الملكية أو السلطانية أو غيرها من المسميات ، وحرمت سائر الطبقات من الدراسات التي تدرس تاريخ المجتمعات على حسب القضايا والأطوار الاقتصادية والاجتماعية والحضارية ، اللهم إلاّ بعض الإشارات التاريخية أو الحضارية في المصادر والمراجع .

ولقد ظل التعدد الطبقي الحاد طوال عصر المماليك ، فقد كان هنا أولاً في الأعلى طبقة الحكام المماليك والأمراء الإقطاعيين . وقابل هذا في الدرك الأسفل طبقات العامة من أقنان الأرض والحرفيين والصناع وصغار التجار ، ووجدت بين هاتين الطبقتين طبقة وسيطة حاولت في كثير من الأحيان أن تكون همزة الوصل بين الطبقتين ، وفي بعض الأوقات كانت تعمل لمصالح طبقة الحكام وكان في حسبانها أنها بهذا الولاء قد يسمح لها ، حتى ببعض امتيازات الطبقة العليا في قمة المجتمع . ولما كانت تحس بالعجز عن اختراق الدائرة -مهما حاولت- كانت تلعب على أوتار طبقة العامة كنوع من الرد على تجاهل طبقة الحكام لها ، ولكن غالبية تكوينها كانت تقوم على حب الشعب والسهر على مصالحه والثورة من أجله .

وكان التباين الحاد بين هذه الطبقات انتكاسة لهذه المجتمعات على المدى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٢) أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك في مصر والشام ، ص ١٢ ؛ طرخان ، النظم الاقطاعية ، ص ١٦ وصفحات مختلفة ؛ الباز العريني ، المماليك ، ص ١٧ وما بعدها .

البعيد فلم تنصهر عناصر المجتمع في بوتقة واحدة وكان عدم اندماجها هو أساس ضعفها وانحلالها ، فلم تستطع مقاومة الانهيار النهائي عندما اكتسحتها جيوش الدولة العثمانية الفتية ٩٢٢ هـ - ١٥١٦م [١].

لم يصل سلاطين المماليك إلى حكم مصر والشام عن طريق شرعي لأنهم كانوا عبيد الأيوبيين واستولوا على الحكم منهم ، وإنما كان المماليك أغرابًا عن البلاد وأهلها ، جلبهم تجار الرقيق من مختلف الأقطار لخدمة سادتهم بني أيوب ولكنهم سرعان ما اغتصبوا الحكم من أصحابه الشرعيين[٢] . وهذه حقيقة تاريخية نحب أن نؤكد عليها في هذا المبحث ، حيث ظلت ماثلة للعيان في مفهوم كل من المماليك (الحكام) وسائر فئات الشعب في مصر والشام (المحكومين) مما جعلها تنعكس كثيراً على علاقة المماليك بسائر الفئات التي أشرنا إلى بعض أشكالها في المبحث الأول من هذا الفصل ، بل لقد انعكست صورتها على كثير من الاتجاهات والنظم والقوانين، وفي تصوري أن المماليك قد توددوا إلى كل فئات الأمة وعناصر المجتمع في أغلب الأحيان ليغضوا الطرف عن مساوىء حكمهم من ناحية ، ويكفوا عن البحث في أصلهم ومدى أحقيتهم بالحكم من ناحية أخرى[٣] .

يضاف إلى ذلك كله حقيقة سياسية هامة ، تتمثل في الطريقة التي كان يصل بها المماليك إلى منصب الحكم أو إلى مناصب أخرى في السلطة

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٢٠١ .

(٢) د . سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص ٣٣٦ ؛ مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص٢١ وما بعدها .

(٣) انظر ص ٤١ .

والإدارة. فلم يحترم المماليك نظام الوراثة أو ولاية العهد إلا في أحوال نادرة ، وفيما عدا ذلك فإن معظم أمراء المماليك الذين مكنتهم قوة شخصيتهم وكثرة مماليكهم من التفوق على منافسيهم من الوثوب « إلى مناصب القيادة والإدارة »[١] . ولذا كثرت الفتن والاضطرابات والقلاقل نتيجة للصراع السياسي ، ولذا وجد سلاطين المماليك وأمراؤهم في سائر الفئات الشعبية عنايتهم المنشودة للحماية والتأييد .

ومن الفئات التي تقرب إليها المماليك وقويت علاقتهم بها - خاصة في أوقات الصراع بين طوائفهم - فئة العامة ، ونعني بها هنا صغار التجار والحرفيين والسوقة والفلاحين والمعدمين وغيرهم بالإضافة إلى العشائر البدوية المنتشرة في بادية الشام مثل آل فضل وآل علي فكانوا يتوددون إليها بمختلف الوسائل ، ولعل من أهمها كثرة الخدمات العامّة التي تقدم إليهم مباشرة مثل توفير المياه العذبة في الأسبلة للإنسان والحيوان ، وبناء الكتاتيب والمدارس والبيمارستانات لعلاج المرضى ، وتكفين ودفن الموتى الفقراء والإعانات الموسمية[٢] ، إلى غير ذلك من وجوه البر كأنشاء الخنقاوات والربط والمساجد . وعلى الرغم من أن معظم هذه المنشآت والمنح كانت من بيت المال إلا أن المماليك صوروها للشعب على أنها منح من مالهم الخاص مقدمة إلى هذه الفئات ليضمنوا رضاهم وتأييدهم ونصرتهم لهم في أوقات الصراعات بين بعضهم البعض ، وهذا ما ذهب إليه د/ سعيد عاشور في كتابه العصر

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ٧٢ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص١٧ .

(٢) د . عبداللطيف إبراهيم ، دراسات تاريخية في العصر المملوكي ، ص ١٢٣ - ١٢٧ .

المماليكي ، على أن هذا الرأي لا يمكن تعميمه على كل وجوه البر في عصر دولة المماليك فلقد قاموا بكثير من الأعمال الخدمية على طريق الحج ، لحجاج بيت اللّه الحرام رغبة في مثوبة اللّه بالإضافة إلى بعض الأعمال كالأسبلة والمدارس والبيمارستانات وغيرها من المنشآت كان يستفيد منها جميع فئات الشعب ومنهم المماليك وليس العامة فقط ، وكان يوجد بدمشق عدد كبير من المماليك قدر عددهم خليل بن شاهين بخمسة عشر ألف مملوك بداية من الوالي وكبار الموظفين وأجناد الحلقة بدمشق ومماليك الكافل والأمراء[١] ، على أن هذه الأعداد لم تكن ثابتة وإنما تعرضت للتغيير والتبديل طوال عصر المماليك[٢] .

وكان كل ما يطمح فيه الكثير من فئات الشعب في دمشق وغيرها من المدن الشامية أن ينعموا بالأمان في ظل نائب عادل يحسن معاملتهم ولا يحرمهم حقًا من حقوقهم ، وكانوا في أغلب الأحيان يميلون إلى مسالمة المماليك وعدم الخروج عن طاعتهم أو المشاركة في الثورات التي اعتاد أن يقوم بها نواب الشام بين حين وآخر - كثورة سنقر وملطاش وغيرهما - وبخاصة عند قيام سلطان جديد في مصر ، ويلاحظ أن علاقة البدو بالمماليك كانت قائمة أساسًا على كراهية البدو لعنصر المماليك ، ولذلك قاموا بثورات متعددة للخروج على سلطان الدولة خاصة العشائر الضاربة على أطراف الشام وتمتد ديارهم من حمص إلى قلعة جعبر[*] إلى

---

(١) زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٣ ، ١٠٦ .

(٢) سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(*) قلعة جعبر : قلعة على الفرات في سوريا مقابل صفين تسمى دوسر ، وكان السلاطين يضمنون كتاب التقليد الصادر لنائب القلعة وصايا محددة تتعلق بمهامه .
القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٩١ .

الرحبة[١] ، مع أن المماليك كثيراً ما كانوا يتقربون إليهم ويحاولون دمجهم في النظام العام للدولة ، خاصة البدو الذين يقيمون داخل التجمعات السكانية بدمشق وما حولها كآل مرة في حوران ، وآل علي[*] في المرج والغوطة حول دمشق وداخلها[٢] ، وكان هؤلاء البدو أكثر ارتباطًا بقوانين الدولة ، وخضوعًا لسلطان المماليك ، ولذا تقرب المماليك إلى زعمائهم وقويت العلاقة بينهما فمنحوا زعمائها ألقاب الإمارة ، وأوكلوا إليهم حراسة طرق القوافل والدروب الصحراوية في بادية الشام . ولكن طبيعة البدو وما جبلوا عليه من كراهية للقيود والقوانين جعلتهم يتعدون خطوط العلاقة المحددة بينهم وبين المماليك ، وكثيراً ما تعرضوا للانتقام والإبادة من جانب المماليك .

وساعدت كثرة الثورات والحركات في دمشق التي قام بها بعض الأمراء ضد السلطنة خاصة في الفترة التي أدت إلى انتقال الحكم من المماليك البحرية إلى المماليك البرجية ، إلى تنامي العلاقات بين فئات الشعب والمماليك بالمدينة إذ انضم العامة إلى طشتمر الدوادار نائب دمشق في أثناء صراعه مع خصومه

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ .

(*) آل علي ، و آل مرة : هم اخوة آل فضل ، وآل مرة من آل ربيعة طيئ الذين كانوا امراء قبائل العرب في الشام والعراق والحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين – قال ابن فضل الله العمري : « وديار آل علي مرج دمشق وغوطتها بين اخوتهم آل فضل وبين أعمامهم آل مرة ومنتهاهم إلى الجوف والحبانية إلى الشبكة إلى تيماء إلى البرازع » .

مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ١٣٦ / ١٣٧ ، هامش رقم « ١ » ؛ النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ١٦ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٠٨ ، ٢١٠ .

بالقاهرة وسائر مدن الشام ، كما حرص كل ثائر من المماليك على التقرب إلى سكان المدينة ليكونوا عونًا له ضد خصومه ، من ذلك اهتمام يلبغا الناصري بتأييد أهل دمشق له في صراعه مع أعدائه بالإضافة إلى مساعدتهم له في الاستيلاء على قلعة المدينة[1] ، واستمرت الصراعات على منصب السلطنة ووظائف القيادة في الشام ، وحظيت دمشق بنصيب كبير منها إذ كان الثوار من المماليك يحرصون على الاحتفاظ بها على اعتبار أنها قصبة الديار الشامية ، وكان العامة يشكلون جزءاً من اللعبة السياسية في هذا الصراع ، نرى ذلك واضحًا في فترة الصراع بين يلبغا الناصري ومنطاش[2] ، الذي حرص كلاهما على كسب رضاء العامة والبدو وتأييدهم له ، هذا على الرغم من أن المماليك لا تربطهم بهذه الطبقات في مصر أو الشام رابطة الدم أو الأصل أو الجنس ، ولكنهم عند الحاجة إليهم في تلك الصراعات المريرة يلجئون إليهم ويشترون تأييدهم بالمال ، وكانوا يسمحون لهم بنهب ثروات المهزومين منهم مع أن المماليك في الأحوال العادية لا يشعرون بروح الحب أو العطف مع الأهالي والخوف على مصالحهم والعمل على رفاهيتهم ، بل نظروا إليهم على أنهم أقل منهم شأنًا ولا يجب أن يشاركوهم في شئون الحكم أو الحرب[3] ، ولا شك أن هذه النظرة أوجدت فجوة بين الحكام من المماليك وتلك الطبقة المطحونة مما أوجد حالة من عدم المبالاة أو الإرتباط بين المواطن والأحداث السياسية الكبرى الداخلية والخارجية في مدينته ، خاصة وأن المماليك سرعان ما ينقلبون على تلك الطبقات بعد تأييدها لهم ولا تلقى منهم سوى الظلم وكثرة المكوس .

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٥٩ ؛ وابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٤٧٥ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٦٦ وما بعدها .

(٣) أبو المحاسن ، النجوم ، ج ٧، ص ١٩٠ ، ١٩١ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٦.

وإلى جانب طبقة العامة وجدت جماعة العلماء وأصحاب الأقلام ، وعلى الرغم من تعرض أفراد هذه الطبقة للمهانة أحيانًا من جانب المماليك إلا انها عاشت تنعم بكثير من الامتيازات في هذا المجتمع الطبقي الذي كان يتمتع بصلابة تكوينه[١] . ويبدو أن المماليك قد خافوا على مراكزهم السياسية من هذه الطبقة لأنهم يعلمون مدى تأثيرهم على الجماهير ، واحترام الناس لهم وشجاعتهم في قول الحق ، على أن هذه المكانة الكبرى التي وصل إليها العلماء لم تمنع بعض السلاطين من التعرض لهم بالنقد والتهكم ، فاشترط بعض السلاطين حرمان أصحاب العمامة من ركوب الخيل لأنهم في هذه الحالة يتشبهون بالمماليك ، وكثيراً ما انسابت جموع المماليك في شوارع المدن في مصر والشام تعتدي على العلماء والفقهاء وتجبرهم على النزول عن خيولهم وسلبهم إياهم[٢] . أما كبار التجار فكانوا من الطبقات المحبوبة المقربة إلى السلاطين وكبار الأمراء وذلك نظراً لما يتمتعون به من ثروات طائلة ، وتمدنا مصادر العصر المماليكي بكثير من المعلومات عن ثراء هذه الطبقة ، وانتعاش أحوالها وانها سكنت القصور واقتنت الضياع . وكان سلاطين المماليك كثيراً ما يقترضون منهم « إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك »[٣] .

وقد دأب بعض سلاطين المماليك إلى استغلال أموالهم في العمل بالتجارة بغية الكسب ، وشاركوا كثيراً من التجار في أرزاقهم ، وقام كبار التجار بتنمية ثروات بعض السلاطين والأمراء رغبة في التودد إليهم ، بل وصل بهم

---

(١) د . سعيد عاشور ، المجتمع المماليكي ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(١) د . سعيد عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٣٢ .

(٣) السلوك ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٠٣ ؛ د . سعيد عاشور ، المجتمع المماليكي ، ص٣٠٣ .

الأمر إلى احتكار بعض السلع الضرورية كالحبوب والسكر والأخشاب والصابون والحديد والرصاص[١] ، ولكن ذلك لم يمنع المماليك من التنكر كثيراً للتجار وإنزال كثير من العقوبات بهم ومصادرة أموالهم ، وفرض الضرائب الباهظة عليهم .

أما عن علاقة المماليك بأهل الذمة فلا يمكن أن نحدد لها سياسة ثابتة فهي بلا شك تختلف من سلطان لآخر كما أنها تتوقف على مدى التزام أهل الذمة بالعهود والمواثيق التي كان يجب عليهم اتباعها[٢] .

ولكن السمة الظاهرة في علاقة المماليك بأهل الذمة أنهم كانوا ينظرون إليهم على انهم فئة من فئات المجتمع وشريحة من شرائحه ، وكانوا يستعينون بهم في بعض الوظائف الإدارية ، وكان الأقباط يباشرون بعض الأعمال التجارية للسلاطين[٣] .

وكان لعلاقات دولة المماليك الجراكسة مع الدولة البيزنطية والقوى الأوربية أثر في علاقات المماليك بأهل الذمة في دولتهم ، ولقد طلب ذلك صراحة الامبراطور حنا الخامس باليولوجي (١٣٤١ - ١٣٩١ م) البيزنطي عندما أرسل سفارة إلى السلطان قلاوون ٧٨٩ هـ ، يطلب منه تعيين قنصل بالإسكندرية أسوة بالبنادقة ، كما يطلب منه معاملة المسيحيين معاملة لائقة ويخفف عنهم كثيراً من القيود التي تتعلق بلبس الغيار وشد الزنار ، والسماح

---

(١) ابن خلدون ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٢) سوفاجين ، دمشق الشام ، ص ١٣ .

(٣) ترتون ، أهل الذمة في الاسلام ، ص ٨٤ .

لهم ببناء بعض الكنائس التي يحتاجونها . ويبدو أن السلطان برقوق استجاب لبعض مطالبه[*][١] .

وكانت بعض التصرفات التي تبدو من أهل الذمة تتسبب في معاملتهم معاملة سيئة من جانب سلاطين المماليك ، من ذلك انهم كانوا يجاهرون بشرب الخمر وإظهار صلبانهم ودق نواقيسهم ، كما أن بعض الأحداث الخارجية كانت تجعلهم يقومون بالهيجان والاضطراب وإظهار ما تحمله قلوبهم من شر وحقد . وعلى سبيل المثال ، ما حدث في عهد السلطان إينال[**] الجركسي من احتفالات ضخمة في مدن مصر والشام بعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، ودقت البشائر بهذا النصر وأرسلت الوفود إلى محمد الفاتح تهنئة بهذا النصر العظيم .

وكانت القوى المسيحية في أوروبا في صقلية وجمهوريات ايطاليا التجارية وبخاصة البندقية وجنوا وغيرها تلجأ إلى مسالمة المماليك رغبة في

(*) لمزيد من التفصيلات عن هذا الموضوع انظر :
ليلى عبد الجواد ، علاقة المماليك بالدولة البيزنطية ، بحث منشور في مجلة المؤرخ المصري ، عدد رقم ، ص ؛ بيبرس الدوادار ، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور .

(١) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

(**) الملك الأشرف أبي النصر سيف الدين إينال العلائي الظاهري برقوق الناصري فرج ، وهو الثاني عشر من ملوك الجراكسة ، بويع بالسلطنة بعد خلع الملك المنصور عثمان بن جقمق في يوم الاثنين سنة ٨٥٧ هـ ، وهو من خيار ملوك الجراكسة ، هنيًا لينًا قليل الأذى ، وتوفي سنة ٨٦٥ هـ .
ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧ وما بعدها .

التخفيف عن أهل الذمة في مصر والشام وإلى التمتع بالامتبازات التجارية من ناحية أخرى[١] .

وهكذا كانت مجتمعات المدن في عصر المماليك مجتمعات طبقية يتمايز بعضها عن بعض في خصائصها وصفاتها[٢] ومظاهرها . وفي ظل هذا التنظيم الحاد ، ظهرت الفروق واضحة في علاقات المماليك (الحكام) بسائر الفئات الأخرى (المحكومين) ، وكان الحكام من المماليك لا يشعرون في كثير من الأوقات بروح الود والتجاوب مع سائر الفئات في مشاكلها والعمل من أجل رفاهيتها ، وتشير كثير من الشواهد التاريخية إلى أن هذه العلاقة أوجدت فجوة واسعة بين الحاكم والمحكوم ، وهذه الظاهرة الاجتماعية من أخطر الظواهر التي تصيب مجتمعًا من المجتمعات كما بينت آنفا .

ولذا حمل المجتمع المملوكي عوامل التدهور والفناء في تركيبه الاجتماعي رغم ما كان يبدو عليه في كثير من الفترات التاريخية مجتمعًا قويًا متماسكًا.

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكر ، ج ٩ ، ص ١٢٩ .

(٢) د . سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

الفصل الثاني
الوضع الإداري لدمشق في عهد الدولة المملوكية الثانية

ويشتمل على ما يلي :

- تقديم الملامح العامة للإدارة في العصر المملوكي .
- المبحث الأول - وضع دمشق بين مدن الشام .
- المبحث الثاني - نظم الحكم والإدارة :

١ - وظائف أرباب السيوف « القيادة السياسية » .

٢ - الوظائف الديوانية « وظائف الإدارة » .

٣ - الوظائف الدينية « الحسبة ، القضاء ، نقابة الاشراف ».

- الملامح العامة للإدارة في العصر المملوكي :

لعل من اللافت للنظر لمن يقرأ تاريخ العصر المملوكي في مصر والشام ذلك التقدم الإداري لدولتهم في العصور الوسطى، وهي عصور لم تتوفر فيها الوسائل المساعدة على حسن التنظيم وبروزها في أنظمة وقوانين يمكن مقارنتها بمقاييس العصر الحديث . لقد استطاع المماليك في بعض تنظيماتهم الإدارية في مصر والشام أن يوائموا بين كثير من نظريات وأسس الفكر الإداري التي وضعها الإسلام وبين الواقع والتجربة المعاشة ، ولقد تمثل ذلك في محاولة القلقشندي وغيره إيجاد كثير من المبررات الشرعية لما اتخذ من إجراءات إدارية[١] ، وكذلك عند مناقشة كثير من الهياكل التنظيمية التي برزت خلال ذلك العصر .

على أننا يجب ألا نغفل ان النظرية التي قام عليها الوضع الإداري في حكم الأقاليم المملوكية كان يقوم على فكرة منطقية أساسها أن هناك تلازمًا بين تطور ونمو الهياكل الإدارية وبين حاجة المجتمع وما يؤمن به من أهداف .

إن الفكر الإداري في العصر المملوكي كان يهدف أساسًا إلى تحقيق أهداف الدولة بأحكام السيطرة على الأقاليم عامة ومدن الشام خاصة ولذلك كانت الإدارة المملوكية تتمثل في مجموعة من العمليات والاجراءات والوظائف التي تضمن السيطرة وتحقق أهداف الدولة ونظمها .

كما أننا يجب ألا ننسى ان تاريخ المماليك قد تعرض إلى كثير من

---

(١) صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ وما بعدها .

حملات التشويه والمغالطات(*) في جميع جوانبه السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية . ومع أننا نسلم بوجود كثير من الانحرافات والأخطاء التي استشرت في أنظمة الدولة الإدارية وكانت من عوامل ضعف وانهيار الدولة ؛ إلا أن الإدارة في الدولة المملوكية بهياكلها المختلفة قد حققت نجاحات كثيرة في كثير من المؤسسات الإدارية ، كما حمل مسئوليتها بعض الرجال الذين تركوا بصماتهم على الإدارات أو المناصب التي تحملوا أمانة إدارتها ، كما تولى بعضها موظفون لم يكونوا على مستوى المسئولية ، وهذه سمة عامة للأنظمة في كل زمان ومكان . وسنقوم في هذا الفصل بدراسة للأنظمة الإدارية لعصر دولة المماليك الشراكسة في مدينة دمشق ، التي كانت تعد العاصمة الثانية لدولتهم وأهم مدن الشام .

وعند دراستنا للملامح العامة للإدارة في عصر دولة المماليك الشراكسة في المدن المصرية عامة ، وفي مدن الشام خاصة ، نجد أمامنا مجموعة من العوامل التي رسمت صورة دقيقة للمجتمع آنذاك ودراستنا لهذه الملامح ستلقي لنا كثيراً من الأضواء على نوعية الوظائف والفئات المختارة لتوليها.

١ - ان المماليك كانوا عبيداً أغرابًا عن البلاد التي حكموها - فكان الجراكسة الذين حكموا مصر والشام في عصر الدولة الثانية ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ من بلاد الكرج (جورجيا) التي تقع بين بحر قزوين والبحر

(*) قام المستشرقون بتشويه تاريخ العصر المماليكي في كثير من جوانبه ويبدو أن ذلك راجع إلى تحطم كثير من الحملات الصليبية واقتلاع إماراتها على يد المماليك .

انظر عن هذا الموضوع : د/ س ترتون ، أهل الذمة في الإسلام ؛ سوفاجيه جان ، دمشق الشام ؛ وليم موير ، تاريخ دولة المماليك .

الأسـود ، ومنطقـتـهم تمتـد على الشـاطيء الشـرقي للبـحـر الأسـود [١]. واقتضى شعـورهم بالغـربة وكراهيـة كثير من قطاعات المجتـمع لهم بأن يحكموا الأقاليم الخاضعة تحت سيطرتهم بالحديد والنار ولا يسمحون لأحد بأن يعـترض علـى سيـادتهم أو يخـالفـهم الرأي [*] . ولذلك كــان النظام الإداري في مجموعه مسخراً لتحقيق ذلك .

٢ – كـثرة الفتن والثـورات الداخلـية بين صفـوف المماليـك التي اقـتضـتهـا مـحاولات الوصـول إلى السلطة ، فكان المماليك يحكمون قبضـتهم على الحكم فـلا يولون في المناصب العـسكرية أو الإدارية إلا مـن يثـقــون في ولائه لهم حتى وإن كـان مشكوكًا في صلاحية قيامه بالوظـيفة ، وانعكس ذلك بدوره علـى دولاب العـمل الإداري ، وتَكالَبَ على الوظائف الإدارية أهل الثقة وتوارى أهل الخبرة والصلاحية [٢] .

٣ – بروز دور الشعـب بطبقاته المختلفة بروزاً واضحًا فـعبر بوسائله الخاصة

---

(١) المقـريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٣ ؛ إبراهيم طرخـان : مـصـر في عـصـر دولة المـماليك الجراكسة ، ص ٤٥ .

(*) كان المماليك لا يجيدون حتى التحدث باللغة العربية ، يقول ابن تغري بردي عن برقوق « وإن موظفي ديوانه كانوا يدخلون عليه فيجدون الفقيه يعلمه الشهادتين وقراءة الفاتحة وهو كالتيس بين يديه » ، وليس في ذلك مـبالغة فـالسلطان إينال كان لا يجيد التـحدث بالعربيـة ، وكـان المماليك يتحدثون في مجالسهم وقصورهم بلغتهم الأم التي كانوا يتحدثون بها .
ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، القسـم الثـاني ، ص ٣١٨ ومـا بعـعـهـا ؛ النجـوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٥١/٥٢ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٩٠ .

عن سخطه ورضاه على كثير من رجال الحكم والإدارة في دمشق وغيرها وإن كان المماليك - في كثير من الأوقات - لم يعيروا هذا الغضب الشعبي كثيراً من الاهتمام في أول قيام الدولة .

٤ - اتساع دولة المماليك خلال هذه الفترة حتى وصلت إلى أقصى اتساع لها خلال القرن الخامس عشر الميلادي ، فبسطت نفوذها على أعالي الفرات وأطراف آسيا الصغرى الشرقية[١] ، كما قضوا على الصليبيين وضموا بعض جزر[*] المتوسط كرودوس ومالطة إلى دولتهم بالإضافة إلى مصر والشام والحجاز . وقد اقتضى هذا الوضع الجغرافي والزمني إحكام قبضتهم على الأقاليم التابعة لهم ، وخاصة مدن الشام التي تعتبر مفتاح مصر من الشمال ، فأكثروا من الأنظمة الإدارية والهياكل التنظيمية التي تسهل لهم حكم هذه البلاد[٢] .

٥ - جرت عادة دولة المماليك منذ بداية حكمهم ٦٤٨ هـ ، على توزيع الأراضي الزراعية وجميع موارد الدولة إقطاعات بين السلطان وأجناده ، ويقول صاحب الخطط في وصف الأحوال آنذاك « فإن الأراضي كلها كانت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده »[٣] .

---

(١) إبراهيم طرخان : مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة ، ص ٥ .

(*) جزر المتوسط : الجزيرة قطعة من اليابس تحيط بها البحر من جميع الجهات وفي البحر المتوسط عدة جزر لها أهمية عسكرية واستراتيجية مثل مالطة وصقلية وسردينيا وقبرص وكريت وغيرها .

إبراهيم العدوي ، الأساطيل العربية في البحر المتوسط ، ص ١٦ وما بعدها .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٢٤٢ .

(٣) المقريزي :ج ١ ، ص ١٥٦ .

واستتبع ذلك إنشاء كثير من الوظائف والأنظمة الإدارية التي تشرف وتهيمن وتحمي تلك الاقطاعات كديوان الجيش والانشاء ، وديوان الاقطاع ، وكان السلطان في كثير من الأحيان يقوم بالتغيير والتعديل في الأنظمة الإدارية وفي اختصاصات شاغريها بما يراه ضروريًا لحماية عرشه وتدعيم سلطانه .

٦ - كانت هذه الأنظمة من القوة ، على الرغم من كثير من المآخذ الإدارية ، بحيث مكنت الدولة المملوكية من الوقوف أمام أعدائها الخارجيين من المغول[١] ، والصليبيين[٢]، والتركمان[٣] ، والأفارقة[٤]، وبني عثمان[٥]، واستطاعت بقوة ، تلك الأنظمة الإدارية ، أن تسيطر على الأقاليم التابعة لها .

٧ - تعرض البلاد لكثير من المحن والمشاكل الداخلية مما كان عبئًا ثقيلاً على الهياكل الإدارية التي عرقلت تقدمها وأبطأت من حركتها نحو الإصلاح الإداري والاجتماعي ، منها كثرة الغلاء والقحط ، التي تعرض له المجتمع ، وكثرة الأوبئة والطواعين[٦] ، وفرض الضرائب الباهظة والاستيلاء على أموال الأوقاف ، وغير ذلك من الآفات الطبيعية أو

---

(١) ابن عرب شاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور ، ص ٧٠/٧١ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٧٢ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٦) المقريزي : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٤١ .

الاجتماعية أو الاقتصادية [١].

٨ - قيام كثير من الانتفاضات الشعبية وخاصة بين العوام بسبب عسف بعض الإداريين وظلمهم للرعية ، ولقد حدث ذلك كثيراً في النيابات الشامية كحلب والكرك وحماه ، وفي دمشق قام العوام برجم نائبهم تغري بردي بسبب جوره وكادوا يجهزون عليه لولا هروبه والتجاؤه إلى نائب حلب ، فعين السلطان آقبغا الجمالي بدلاً عنه [٢].

* - كان المماليك - بدمشق ونيابات الشام كلها - يؤلفون طبقة ارستقراطية خاصة استقلت بمهنة الحرب وتسلمت مقاليد الحكم ، وحالت بينها وبين وصول الدمشقيين إليها ، اللهم إلا بعض أعمال القلم والوظائف الدينية -مثل كل المدن المملوكية - . وقد استقل المماليك بحياة خاصة بهم فلم يختلطوا بقطاعات[٣] الشعب المختلفة ، ويبدو أن طبيعتهم وإحساسهم بالغربة بالإضافة إلى ترفعهم عن الفئات الأخرى ، اللهم إلا رابطة الدين ، جعلتهم يكثرون من بناء المساجد والبيمارستانات والخوانق والربط تقربًا إلى الجماهير[٤] ، كما دفعتهم إلى الدفاع عن الديار ضد أعدائها الخارجيين من الصليبيين والتتار ، وكان همهم أن يحافظوا على ملكهم . وبذلك صارت الإدارة مسخرة لتوطيد النفوذ وقيادة الناس بقسوة وعنف فكانت الهياكل التنفيذية في معظمها أدوات قهر وإذلال للناس لا تهتم

---

(١) محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، ص ٨٤ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، جـ ٢ ، ص ١٥ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٢٠١ .

(٣) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

(٤) سعيد عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٨٥ .

بمصالحهم فأهملت الشئون العامة ونفذت الاصلاحات الضرورية وكسرت التجارة والصناعة والزراعة في أغلب الأوقات .

* - ومن العيوب التي أثرت على الجهاز الإداري في الدولة ، شراء المناصب والمراكز الحكومية(*) بالمال كولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية ونيابة الأقاليم والحسبة وغيرها ، وكان السلطان وكبار رجال الدولة في حاجة ماسة - دائمًا - إلى المال ، لأنه عصب الملك القائم على القهر والدسائس واكتساب الأتباع ، فكانت المناصب الإدارية الكبرى تباع لمن يقدر على شرائها بغض النظر عن أهليته لتولي الوظيفة ، أما هدف طالب الوظيفة فمعروف سلفًا ، حيث كان يقوم خلال مدة توليه الوظيفة باستنزاف أموال الرعية لتعويض ما دفعه من ناحية وللإثراء من ناحية أخرى . وهذه الحال من الإدارة لا تفسح أي مجال للارتقاء بالعمل الحكومي أو تحقيق مصالح الناس ، وكان شراء الوظائف قليلاً في فترات قوة الدولة وسيطرتها على مختلف الأجهزة ، وكثيراً في فترات الضعف حيث تتسرب العيوب إلى معظم المرافق[1] .

* - انتشار الرشوة بين الموظفين بشكل وبائي ، ومن المؤكد أن هذه الآفة من

(*) تكرر في مصادر العصر المملوكي عند ذكر الولايات والمناصب عبارة « وقد بذل فيها أي في الوظيفة مال كثير - حتى أن بعض المؤرخين المحدثين وهو أحمد عبد الرزاق كتب كتابًا طريفًا عن شراء المناصب ومقدار الأموال التي بذلت ، ومن العجيب ان جزءًا منها كان مقدمًا والباقي يدفع مؤجلاً .

انظر : البرطلة ، أحمد عبد الرزاق ، ٣٦ ؛ النجوم الزاهرة ، لابن تغري بردى ؛ بدائع الزهور ، لابن اياس في مواضع مختلفة .

(١) أحمد عبد الرزاق ، البرطلة في العصر المملوكي ، ص ٣٦ .

أخطر الآفات التي تصيب السلك الإداري في أي مجتمع من المجتمعات؛ إذ تمنع أصحاب الحقوق الأصليين من أخذ حقوقهم وتؤدي إلى ضياعها كما يحصل كثير من الناس على امتيازات ليسوا مؤهلين لها ، وساعد على انتشار البرطلة(*) ان الحاكم نفسه كان يقبل الرشوة وبيع المناصب لمن يدفع أكثر . وبذلك أصبحت الحكومة في شبه عزلة عن الشعب وتركتهم لمتولي المناصب الإدارية يتصرفون مع الناس كما يشاء ون ، ولقد ذكر المقريزي عن عصر الظاهر برقوق ما نصه « وحدث في أيامه تجاهر الناس بالبراطيل ، فلا يكاد يلي أحد وظيفة ولا عملاً إلا بمال ، فترقى للأعمال الجليلة والرتب السنية - وتظاهر الناس بالبراطيل التي يستأديها واقتدى الولاة به في ذلك - حتى صار عرفًا غير منكر البتة »(١) .

* - عدم ثبات الموظفين الموكلين بإدارة الأعمال في الوكالات الإدارية في وظائفهم وأدى التغيير والتبديل إلى عدم استقرار الأحوال وتغير السياسات الإدارية مما أثر على مصالح الناس ، وظهر التضارب واضحًا بين القرارات المختلفة والقوانين الصادرة عن الأنظمة الإدارية(**) .

(*) البرطلة : مصطلح أطلق في العصر المملوكي على الرشوة فهي البرطلة والبرطيل وجمعها براطيل .

محمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ١٧ .

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٦١٨ .

(**) تم دراسة تراجم ٢٢٥ موظفًا في عصر المماليك البحرية على سبيل المثال ، فوجد أن (٨٤) منهم أعدموا ، (٥) ماتوا في السجن ، (٢) ماتا في الخارج بعد الخروج على السلطان ، (١٦) ماتوا في قتال العدو ، (٨٨) ماتوا موتًا طبيعيًا أثناء توليتهم الوظيفة ، (٦) أحيلوا إلى التقاعد، ولم يستطع المؤرخون جمع البيانات الكافية عن (١٦) منهم ، فما بالك بعصر الجراكسة .

د . علي إبراهيم حسن : تاريخ دولة المماليك البحرية ، ص ٢٩٤ .

المبحث الأول

وضع دمشق بين مدن الشام

كانت الدولة المملوكية ، تتألف من عدة أقطار هي : مصر والشام(*) والحجاز واليمن ، وبعض بلاد الجزيرة ، وما يهمنها في هذا المقام هو الحديث عن الشام ، وقد كانت مقسمة إلى ست نيابات ، ترجع أهميتها إلى هذا الترتيب :

١ - دمشق .

٢ - حلب .

٣ - حماه .

٤ - طرابلس .

٥ - صفد .

٦ - الكرك .

٧ - غزة[١] .

وكان يدخل في حدود نيابة دمشق في عهد المماليك هذه الأقسام التي

(*) بلاد الشام في العصر المملوكي تعني سورية ولبنان والأردن وفلسطين ويحدها شرقًا نهر الفرات والبادية ، وغربًا البحر المتوسط والعريش المتاخم للديار المصرية ، وشمالاً جبال طوروس وجنوبًا حد مصر وآيلة امتداد مع البادية إلى الفرات .

ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣١١ .

(١) محمد أحمد دهمان : ولاة دمشق في عهد المماليك ، ص ١٢ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

تشتمل على قسم كبير من فلسطين ولبنان وسوريا . فحد ولايتها من عريش مصر إلى آخر سلمية [١].

وهذه الأقسام التسعة والعشرون يسمى كل واحد منها عملاً وجمعه أعمال وهي أقل من النيابة .

١ - عمل غزة - قبل أن تصير نيابة : مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان[٢] .

٢ - عمل الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها وكانت رباطًا للمسلمين وقد نُسب إليها قوم من أهل العلم [٣].

٣ - عمل اللد : قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين ببابها يدرك عيسى بن مريم الدجال فيقتله[٤] .

٤ - عمل قاقون : حصن بفلسطين قرب الرملة وقيل هو من عمل قيساريه من ساحل الشام [٥].

٥ - عمل القدس : بلد بالشام قرب حمص من فتوح شرحبيل بن حسنة وإليه تضاف بحيرة قدس[٦] .

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٥٤ .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٠٢ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٦٩ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥ .

(٥) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٩٩ .

(٦) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٣١١ .

٦ - عمل الخليل : اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس ، بينهما مسيرة يوم ، فيه قبر الخليل إبراهيم عليه السلام في مغارة تحت الأرض وهناك مشهد وزوّار وقوام في الموضع وضيافة للزوار[١] .

٧ - عمل نابلس : هي مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة المياه لأنها لصيقة في جبل أرضها حجر ، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ[٢] .

٨ - عمل بيسان : مدينة بالأردن بالغور الشامي يقال هي لسان الأرض ، وهي بين حوران وفلسطين . وبها عين الفلوس يقال أنها من الجنة . وهي عين فيها ملوحة يسيرة جاء ذكرها في حديث الجساسه ، وقد ذكر حديث الجساسه بطوله في طيبة [٣].

٩ - عمل بانياس (الجولان) : قرية وقيل جبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران[٤] .

١٠- عمل الشعرا (القنيطرة) : بالقصر : جبل عند صرة بني سُليم [٥].

١١- عمل نوى (بحوران) : بليدة من أعمال حوران وقيل هي قصبتها ، بينها وبين دمشق منزلان وهي منزل أيوب عليه السلام وبها قبر سام بن نوح عليه السلام فيما زعموا [٦].

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢٤٨ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٢٧ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٨ .

(٥) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٤٩ .

(٦) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٣٠٦ .

١٢- عمل آذرعات (درعا بحوران) : هو بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان[١] .

١٣- عمل عجلون : كأنه منسوب إلى اسم رجل اسمه عجلان ، وهي بليدة بثغور مرج الديباج قرب المصيصه [٢].

١٤- عمل البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى ، قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، وبجودة حنطتها يضرب المثل[٣].

١٥- عمل صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة [٤].

١٦- عمل بصرى : بالشام من أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا[٥] .

١٧- عمل زرع : عدة مواضع بالشام من فلسطين والأردن ، وزراعة زفر قرب بالس من أرض حلب . والزراعة أيضًا : قرية من حران بينها وبين قلعة جعبر فيها مياه كثيرة وصيد كثير [٦].

١٨- عمل بعلبك : مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام [٧].

---

(١) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٨٧ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٨٩ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٤٠١ .

(٥) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٤١ .

(٦) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٣٥ .

(٧) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٥٣ .

١٩- عمل البقاع البعلبكي : قريب من دمشق وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق ، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة نميرة ، وأكثر مشرب هذه الضياع من عين تخرج من جبل ، يقال لهذه العين : عين الجر ، وبالبقاع هذه قبر الياس النبي عليه السلام[١] .

٢٠- عمل البقاع العزيزي [*] .

٢١- عمل بيروت : مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام تُعد من أعمال دمشق بينها وبين صيداء ثلاثة فراسخ[٢] .

٢٢- عمل صيدا : الصيداء الأرض التي تربتها أجزاء غليظة الحجارة مستوية الأرض ، وهي مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ[٣] .

٢٣- عمل حمص : بلد مشهور قديم كبير مسور ، وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على تل عالٍ كبيرة وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق[٤] .

٢٤- عمل مصياف [**].

٢٥- عمل قارا : اسم قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق وهي كانت آخر حدود حمص وما عداها من أعمال دمشق[٥] .

٢٦- عمل سلمية : هي بليدة في ناحية البرية من أعمال حماه بينهما

---

(١) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٧٠ .

(*) لم أعثر له على تعريف .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٤٣٧ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٠٢ .

(*) لم أعثر له على تعريف .

(٥) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٩٥ .

مسيرة يومين ، وكانت تُعد من أعمال حمص ، ولا يعرفها أهل الشام إلا بسلمية[١] .

٢٧- عمل تدمر : مدينة قديمة مشهورة في برية الشام ، بينها وبين حلب خمسة أيام [٢].

٢٨- عمل الرحبة : قرية من قرى دمشق يُقال أنها خربت[٣] .

٢٩- عمل دمشق : البلدة المشهورة قصبة الشام وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رقعة وكثرة مياه ووجود مآرب ، قيل سميت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا [٤]. [٥]

هذه هي جملة الأعمال التي كانت تتألف منها دمشق وتمتد إليها سلطة نائبها ، وقد يصيب بعض هذه الأعمال تعديل فيضاف عمل إلى عمل آخر فيصير عملاً واحداً ، وقد يفصل فيصير عملين[٦] .

كانت دمشق هي حاضرة هذه الأعمال ، وفيها نائب السلطان المملوكي ، ويرسل من ينيب عنه نوابًا وأمراء إلى هذه الأعمال عدا القدس ، فإن السلطان هو الذي يرسل إليها نائبًا عنه ، وذلك لمكانتها الدينية .

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٧ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٣ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٦٣ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢٥ ؛ محمد أحمد دهمان : ولاة دمشق في العصر المملوكي ، ص ١٦ .

(٦) ولاة دمشق في العصر المملوكي مرجع سبق ذكره ، ص ١٦ .

وتعد نيابة دمشق من أكبر الوظائف في الدولة بعد الأتابكية[*] الكبرى بمصر . وكثيراً ما ترقى بعض نوابها إلى أن صاروا ملوك مصر بعد نيابة دمشق[١] .

لو وصفنا دمشق كما ذكرها ووصفها القلقشندي ، لوجدناها كما يقول : « هي مدينة حسنة الترتيب ، جليلة الأبنية ، ذات حواجز بنيت من جهاتها الأربعة – ويبدو أنه يشير إلى وجود سور منيع يحيط بها لحمايتها ، وغوطتها أحد متنزهات الدنيا العجيبة المفضلة على سائر منتزهات الأرض ، وكذلك الربوة ، وهي كهف في فم واديها الغربي ، عنده تنقسم المياه، ويقال أن به مهد عيسى عليه السلام ، وبها الجوامع والمدارس وغير ذلك ، وغالب بنائها بالحجر ، ودورها أصغر من دور مصر ، لكنها أكثر زخرفة منها، وإن الرخام بها أقل ، وإنما هو أحسن أنواعها ، وكانت حلب أجلّ بناء لعنايتهم بالحجر »[٢] . كما يصف قلعتها الحصينة فيذكر أنه :

(*) الأتابكة : الأتابك معناه الوالد أو الأمير باللغة التركية وكان يراد به في العصر السلجوقي الوالد أو المربي لأبناء السلاطين ، وهو أكبر الأمراء المتقدمين بعد النائب . وتتألف الكلمة من مقطعين ، أتا : بمعنى الأب أو المربي ، بك : بمعنى أمير ، كما يطلق على أمير أمراء الجيوش المملوكية (أتابك العسكر) .

والأتابكية : اصطلاح أطلق على الأقاليم التي حكمها مربو الأمراء ، واطلاق القلقشندي على مصر الأتابكية الكبرى فيه تجاوز لاختلاف الوضع في الحالتين وربما نظر إلى أن المماليك -في الأصل- كانوا عبيد الأيوبيين .

محمد أحمد دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ١٥ .

(١) محمد أحمد دهمان : ولاة دمشق ، ص ١٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ث ١٢٥ / ١٢٦ .

« ويوجد في جانبها الغربي قلعتها وهي قلعة حسنة مرجلة على الأرض تحيط بها وبالمدينة جميعها أسوار عالية ، ويحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة . ولهذه القلعة نائب يحكمها غير نائب دمشق يحفظها للسلطان »(١).

ومن دور الحكومة بدمشق القصر الأبلق(*) الذي يقع في الميدان القبلي للمدينة ، وهو قصر عظيم ، بناه الظاهر بيبرس(**) البندقداري في سلطنته في بداية عصر دولة المماليك البحرية ٦٤٨ - ٧٨٤ هـ . وعلى نفس مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون(***) القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر .

---

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٥ .

(*) القصر الأبلق : قصر عظيم مبني من أسفله إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر بتأليف غريب وإحكام عجيب بناهخ السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٤ هـ ، وأمام هذا القصر دركاه (عتبة) يدخل منها إلى دهليز القصر وهو دهليز فسيح يشتمل على قاعة ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع ، مؤزر بالرخام المفصل بالصدف والفص المذهب إلى سجف السقوف وله رفارف عالية تناغي السحب تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغوطة .
دهمان ، ولاة دمشق ، ص ٢٠ .

(**) بيبرس البندقداري : هو السلطان الظاهر ركن الدين والدنيا (الأول) انتقلت السلطنة إليه بعد مقتل المظفر قطز سنة ٦٥٨ هـ ، ويعتبر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك البحرية ، ففي عهده أحييت الخلافة العباسية في القاهرة ٦٥٩ هـ ، وإليه يرجع الفضل في تأسيس الاسطول المصري واصلاح نظام القضاء وأقام كثيراً من المنشآت . ولقد أبلى بلاءً حسناً في محاربة المغول والصليبيين ، وتوفي سنة ٦٧٦ هـ إثر عودته من واقعة قيسارية بدمشق ودفن بها .
المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ ؛ السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥٠ ؛ علي إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ، ص ٤٥ ، ٥١ .

(***) الناصر محمد بن قلاوون : هو الإبن الثاني للسلطان قلاوون ، اعتلى عرش مصر ثلاث مرات واستمرت سلطنته الثالثة اثنتين وثلاثين سنة متصلة من ٧٠٩-٧٤١ هـ، وانتصر على ==

وبإزاء المدينة في سفح جبل قاسيون مدينة الصالحية ، وهي مدينة ممتدة على أغلب دمشق ، وهي ذات مساجد ومدارس وربط وأسواق وبيوت جليلة[1] .

= أعدائه من الأمراء الطامعين في عرشه مثل كتبغا ولاجين وبيبرس الجاشنكير . وقف في وجه المغول والصليبيين وانتصر عليهم في عدد من المعارك وله كثير من المنشآت العمرانية ، وتوفي سنة ٧٤١ هـ .

ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٧٣ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٧٤ ؛ علي إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية ، ص ٩١ ، ٩٤ .

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٥ .

المبحث الثاني
نظم الحكم والإدارة

أولاً - وظائف أرباب السيوف « القيادة السياسية والعسكرية ».

تكون الجهاز الإداري لدولة المماليك إلى قسمين هما :

١ - أرباب السيوف .

٢ - أرباب الأقلام .

أما أرباب السيوف فهم رجال الحرب من المماليك والطبقة المميزة في البلاد ، ولا يجوز أن يلي وظائفهم ذات الصبغة الحربية أحد من غير المماليك أو من أهل الولايات الشامية ، وفي أوقات المحن والشدائد ولظروف طارئة كان ينضم إلى الجيش المقاتل عناصر من التركمان والاكراد أو بعض المتطوعة من الشعب ولكنهم لا يلون هذه الوظائف التي اقتصرت على المماليك .

وأما أرباب الأقلام فهم أهل العمامة من المصريين أو الشاميين .

١ - نيابة السلطنة(*) :

ويعبر عن شاغلها ومتوليها في المكاتبات السلطانية وغيرها (بكافل السلطنة الشريفة بالشام المحروسة) ، وكان السلطان يختاره دائمًا من كبار

(*) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، جـ ٨ ، ص ٣٠٠ .

الأمراء أرباب السيوف المعروفين بشجاعتهم الحربية ومهارتهم الإدارية ، وهي تعتبر من أجلّ النيابات في المملكة الشامية وأرفعها في الرتبة ، ونائبها يضاهي النائب الكافل بالحضرة السلطانية [١].أي نائب السلطان في مصر الذي يتولى الحكم أثناء غياب السلطان وكان يطلق عليه (نائب الغيبة) .

وكان النائب ممثلاً للسلطان في إدارة شئون ولايته ، وكان عليه أن يرجع إلى السلطان في بعض القرارات التي لا يستطيع الانفراد بالبت فيها وهو مسئول عن الدفاع عن امارته ضد الأخطار الداخلية والخارجية .

ومن الامتيازات التي اختصت بها هذه النيابة أن نائبها كان لا يكتب معاملاته إلا على الورق الأحمر الشامي وهي ميزة خاصة اختص بها نائب دمشق ونائب الكرك دون غيرهما من نواب الشام جميعًا [٢] .

كما كان لنائب دمشق امتياز خاص ذلك لأنه كانت تصدر الأوامر إلى نواب الشام بمكاتبة نائب دمشق ، ثم يتولى هو بدوره [٣] مكاتبة السلطان بأمرهم ، ويبدو أنه لم يستثن من هذا الشرط إلا نائب الكرك ونائب دمشق عادة يقوم مقام السلطان في تصريف كافة الأمور ويوقع بخاتمه على التقاليد والتواقيع والمناشير وغيرها من الأمور المتعلقة بمهام نيابته [٤].

وكان يقيم بقصر الإمارة ، وهو قصر خاص به يعرف بدار النيابة [٥] أو دار

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٢ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٨ .

(٤) ابن فضل اللّه العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٦٥ .

(٥) دهمان ، ولاة دمشق ، ص ٢٤ .

السعادة ، وقد منح امتيازاً خاصًا حيث كانت له إدارة خاصة به وخاتم خاص بنيابته[١] ، كما كان لنائب دمشق استاداراً[*] يتكلم في شؤون اقطاعه وفلاحين يعملون في الاقطاع الممنوح له من قبل السلطان ، ويشرف أيضًا على أمور بيته ونفقاته[٢] ، وكان له مماليكه وطواشيه[**] الخاصون به[٣] .

ونتيجة لهذا الثراء الذي كان يتمتع به نائب دمشق ، كان هذا النائب يعيش في حياته الخاصة سلطانًا مصغراً ، في قصره وفي مواكبه ، وفي الرسوم والتقاليد الخاصة به ، وكان نائب دمشق يركب مرتين في الاسبوع - كغيره من نواب الشام - ويمتاز موكبه بالأبهة السلطانية والمهابة الملوكية يحف به الأمراء والحجاب والحاشية ويخرج إلى ظاهر دمشق ثم يعود على نفس الحالة من المهابة والفخامة[٤] .

وجرت العادة - في أغلب الأحيان - أن يرسل السلطان إلى النائب تقليداً بتوليه نيابة المدينة في كل سنة ، مشفوعة بخلعة يلبسها النائب ويشق بها

---

(١) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ؛ ابن تغري بردي : حوادث الدهور ، ج١ ، ص ٣١٩ .

(*) استادار : وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجري مجرى ذلك من المماليك وغيرهم .
القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٠ ، جـ ٥ ، ص ٤٥٧ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(**) طواشية : سبق التعريف به ص

(٣) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٣٩ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٤ .

دمشق في احتفال مهيب يحيط به الحرس والعبيد والأعلام السلطانية ، وأركان النيابة[١] .

وكان النائب بدوره يقدم إلى السلطان في كل سنة عدداً من التقادم[*] والهدايا والأموال العظيمة حيث كان يجبى من دمشق وأحوازها وغوطتها وقيسارياتها آلاف المثاقيل من الذهب يكون للسلطان ونائبه فيها أوفر نصيب، وكان السلطان عندما يعلن رضاءه على نائبه يخلع عليه الخلع السنية ويثبته في ولايته[٢] .

وبهذه الصلاحيات كانت نيابة دمشق من أرفع نيابات الشام رتبة ونائبها يعادل النائب الكافل بالحضرة السلطانية[**] في الرتبة والألقاب والمكاتبات حتى أن سلطته كانت سلطة لا مركزية في كثير من الأمور المتعلقة بنيابته حتى أطلقوا عليه (سلطانًا مختصراً) أو السلطان الثاني ، ويسند إليه نظر البيمارستان النوري بدمشق ونظر الجامع الأموي بها لكثرة موارد أوقافهما[٣]، كما أشرنا إلى ذلك من قبل[٤] .

وكان الواجب على كل نائب جديد لدمشق حينما يحضر إليها أن يقوم

---

(١) ابن طولون الدمشقي : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ج ١ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(*) التقادم : هدايا تقدم عند دخول الرسل على السلطان لأول مرة .

دهمان ، مصطلحات العصر المملوكي ، ١٥ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٩٥ .

(**) النائب الكافل في الحضرة السلطانية : يعادل في عصرنا رئيس الوزراء ، كما يبدو لي .

(٣) دهمان : نواب الشام ، ص ٢٤ .

(٤) ص ٩٨ .

بتقليد رسمي أمام باب السر بقلعة دمشق وهو باب أمامه جسر معقود على خندق القلعة من خشب مركب على لولب ، فإذا حضر الوالي إلى دمشق وقف مماليكه أمام الجسر لا يتعدونه ، ويتقدم النائب الجديد فيمر على هذا الجسر أمام باب السر فيقبل العتبة ويصلي ركعتين فإذا أريد عزله والقبض عليه رفع الجسر بواسطة اللولب وحيل بين النائب وبين مماليكه وألقي القبض عليه واعتقل بالقلعة حتى ينظر السلطان في أمره ، وإذا أريد تنصيبه للولاية جاءه نائب القلعة وبقية الأمراء والجهاز الإداري ، وتدق الطبول والموسيقى في أعلى القلعة، ويظهرون الفرح بقدوم النائب الجديد[١] .

وكان النائب يجلس للفصل في القضايا وإدارة شئون الولاية في دار الحكومة الخاصة بذلك وتسمى (دار العدل)[٢] ، وهو قصر فخم ملحق بدار السعادة التي يقيم فيها الوالي . وكان مجلس الحكم قاعة عظيمة يجلس النائب على كرسي خاص به وبجانبه كرسي صغير عليه سيف رشيق لكي يدافع به السلطان عن نفسه عند محاولة اغتياله في المجلس ، وفي صف واحد على يمين النائب مساوٍ له يجلس قضاة المذاهب الأربعة وقضاة العسكر . وعلى

---

(١) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٠٠ ؛ دهمان ، ص ٢٣ .

(٢) بنى دار العدل (نور الدين محمود زنكي) بمشورة قاضيه كمال الدين الشهرزوري لانصاف العامة الذين ظلمهم نواب أسد الدين شيركوه لينتصف لهم . وفي العهد المملوكي أضيف هذا القصر إلى دار السعادة وأصبحت دار العدل مقرًا للحكومة .

أما دار السعادة : فهي دار أيوبية كانت ملكًا للأمجد بن فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ثم اشتراها الملك الأشرف ومنحها لابنته ، وفي العهد المملوكي تم شراؤها بأبخس الأثمان من ابنه الملك الأشرف بعد أن أثبتوا قصر عقلها .

محمد دهمان : ولاة دمشق ، ص ٣٧ .

اليسار من النائب يجلس كاتب السر ، وكُتّاب الدست ، والوزير ، ويحيط به ناظر الجيش ، وأتابك العسكر بالترتيب حسب الرتبة .

وتُعرض الأقضية على رقاع خاصة بالنائب ، وبعد استعراض ما فيها ، يتم اتخاذ القرار ويوقع عليها بما يرسم به النائب ، فإذا انتهى المجلس قام القضاة وكاتب السر والوزير وناظر الجيش وسائر أرباب الأقلام ومعظم من في المجلس فينصرفون فإذا انقضى المجلس وانصرف القضاة ومن معهم ، مد السماط ، ويجلس نائب دمشق على رأسه والأمراء ومقدموا الحلقة حسب رتبهم فيأكلون ، وبعد رفع السماط ، يجلس النائب ومعه كاتب السر وناظر الجيش، وتأتي المحاكمات فيفصل فيها ، ثم يتحدث مع ناظر الجيش فيما يتعلق بأمر الجيش والإقطاعات ، ثم ينفض المجلس[١] .

وقبل عقد مجلس الحكم ، كان من عادة نائب دمشق أن يركب في العسكر من الأمراء وأجناد الحلقة في كل يوم اثنين وخميس ويخرجون إلى سوق الخيل[*] تحت القلعة وتعرض عليهم الخيول والسلاح وما يحتاجه الجند بالمناداة للبيع ، وكانوا لا يتعدون سوق الخيل ، ثم صار النائب يسير بهم إما إلى ميدان ابن أتابك وإما إلى قبة يلبغا وإما إلى المزة ، وإما إلى القابون ، فإذا فرغوا من طابور السير رجع النائب فدخل دار العدل وعقد مجلس الحكم[٢] .

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٨٥ .

(*) يبدو أنهما يومان آخران في الأسبوع غير يوما المواكب إلى ظاهر المدينة وأرباضها .

(٢) دهمان ، ولاة دمشق ، ص ٤٦ .

ومن أشهر من تولى نيابة دمشق في عهد المماليك الجراكسة : الطنبغا الجوباني ، تولى نيابة دمشق مرتين ، المرة الأولى سنة ٧٧٩هـ والثانية سنة ٧٨٥ هـ ، وكان يحب العلماء والأدباء ويستمع إليهم ، على حد قول ابن حجر العسقلاني[١] . والأمير سيف الدين طرنطاي ، أسندت إليه النيابة بعد الطنبغا سنة ٧٩٠ هـ ، قَاتَلَ إلى جانب برقوق في خلافه مع أعدائه من المماليك ، وقُتِلَ سنة ٧٩١هـ[٢] .

ومنهم سيف الدين بزلار العمري الناصري ، كان من مماليك الناصر حسن، كان بارعًا في العلوم والفروسية ، حبس في قلعة دمشق في أثناء الصراع بين الأميرين منطاش ويلبغا ، ثم قتلوه غيلة سنة ٧٩١ هـ وقد نيف على الخمسين[٣] .

ومنهم الأمير سيف الدين بطا[*] الطولوتمري الظاهري ، ولاه برقوق الدوادارية[**] الكبرى ، ثم أسندت إليه نيابة دمشق عوضًا عن يلبغا ٧٩٣هـ ، واستمر واليًا عليها حتى مات فجأة سنة ٧٩٤هـ . وقيل ان الظاهر برقوق دس

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ .

(٢) دهمان ، ولاة دمشق ، ص ٢٤٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

(*) سيف الدين بطا الطولوغري . خرج من سجن القلعة بالقاهرة ثم سيطر على المدينة وسلمها إلى برقوق ثم ولي الدوادارية الكبرى بالقاهرة ، أسندت إليه نيابة دمشق عوضًا عن يلبغا بعد إعدامه ٧٩٣ هـ ، وتوفي في منتصف المحرم سنة ٧٩٤ هـ واتهم برقوق باغتياله بالسم .

(**) الدوادارية : وصاحبها ممسك الدواة ، والدوادارية اسم الوظيفة وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ، ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه .

د . سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٤٣٨ .

له من اغتاله بالسم (١).

ومنهم الأمير سيف الدين سودون(*) الطرنطائي ، حكم دمشق سبعة أشهر وتوفي في شعبان ٧٩٤ هـ(٢) .

ومنهم الأمير كمشبغا الأشرفي(**) الخاصكي ، أمير مجلس خلع عليه بنيابة دمشق في رمضان ٧٩٤هـ ، وتوفي بها في أواخر ذي الحجة(٣) .

ومنهم تنبك الحسني ، ولي نيابة دمشق في المحرم سنة ٧٩٥هـ ، وبقي نائبًا بها إلى سنة ٨٠٢ هـ ، خرج على الناصر فرج بن برقوق ، وأعلن الثورة بدمشق ، ثم قبض عليه أثناء صراعه مع مماليك الناصر فرج ، وحبس بقلعة دمشق واغتيل في سجنه(٤) .

---

(١) دهمان ، ولاة دمشق ، ص ٢٦٤ .

(*) سيف الدين سودون خلع عليه السلطان نيابة دمشق في ٢٧ من المحرم سنة ٧٩٤ هـ بعد موت بُطا ، وكان حكم سودون في دمشق سبعة أشهر ، وتوفي في شعبان سنة ٧٩٤ هـ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

(**) كمشبغا الأشرفي الخاصكي : أمير مجلس خلع عليه الظاهر برقوق نيابة دمشق ٧٩٤ هـ بعد موت سودون ، وتوفي في آخر ذي الحجة من السنة المذكورة .

(٣) تعجب صاحب النجوم الزاهرة من قِصَر مدة نواب دمشق في حكمهم فقال : « هذا رابع نائب ولي دمشق في أقل من سنة ، الأول الناصري والثاني بطا والثالث سودون والرابع كمشبغا . فلعمري هل هذه آجال متقاربة لديهم أم كؤوس منا تدور عليهم » . ويبدو أن ابن تغري بردي يغمز ويلمز من السلطان برقوق ، ويريد بأنه يعطي النائب سمًا بطيئًا ، فلا يلبث إلا أشهر قليلة ثم تدور عليهم كؤوس المنية .

النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ١٠٦ .

(٤) دهمان ، ولاة دمشق ، ص ٢٦٧ .

ومنهم سودون سيف الدين الظاهري الدوادار ، وهو ابن أخت الظاهر برقوق ، أسره تيمورلنك في أثناء تقدمه بمدينة حلب وقتله انتقامًا منه لأن سودون قد وسط رسول تيمورلنك بمدينة دمشق بعد قدومه عليه . ولم يقتل تيمورلنك أحداً من نواب الشام غيره ، وكان قتله سنة ٨٠٣ هـ [١].

ولولاة دمشق جملة من الآثار وهي عدد من القيساريات والخانات والمساجد والربط والترب والمدارس كانت تزين ميادين المدينة ودروبها المختلفة .

٢ - نيابة القلعة(*) :

وتعتبر نيابة منفصلة عن نيابة السلطنة ، وليس لنائب دمشق عليها أي سلطة ، وتكون ولايتها من قبل السلطان بالقاهرة يليها النائب بمرسوم يصدر من ديوان (الإنشاء الشريف)[٢] ، ويبدو أن كلاً منهما كان يراقب الآخر لصالح السلطان ، وكان من عادة نائبها أن يكون مقدم ألف ، ثم أنزل إلى أمير طلبخاناه(**) ، ومن شأن متوليها حفظ القلعة وصيانتها ، ولا يسلم مفتاحها

---

(١) دهمان ، ولاة دمشق ، ص ٢٦٥ .

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ٨ ، ص ٣٠٠ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص٣٤٨ ؛ الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

(*) أمير طلبخانه : كلمة فارسية تتكون من مقطعين ، طبل و خانه ، أي ضرب الطبول أو مكان حفظها ، وتطلق هذه الدرجة على الأمير المملوكي عندما يرقى إلى درجة عسكرية يستحق بها أن تضرب الطبول على بابه تحية له ، ويكون أمير أربعين أو ثمانين ، وتقابلها في العصر الحديث رتبة (اللواء) .

سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٤٢٣ .

إلا لمن يتولاها مكانه أو لمن يأمر السلطان بتسليمها له ، ولنائبها أجناد من المماليك البحرية مقيمون في القلعة لخدمتها ، ولا يحضر هو ولا أحد منهم دار النيابة بالمدينة ، ولا يركبون في غالب الأحوال(١) .

ويعتبر الظاهر بيبرس - من المماليك البحرية - أول من أحدث هذه الوظيفة منفصلة عن نائب المدينة بقلعة الكرك ٦٧٤هـ ، وأول من تولاها من المماليك الأمير شمس الدين السهيلي(٢) .

وكان من أبرز واجبات نائب قلعة دمشق أن يقوم بصيانتها وحفظها ، وإصلاح ما ضعف من أبنيتها ، وشد عقودها وإصلاح أسوارها ، فقد تسقط المدينة ولكن تستمر القلعة صامدة وربما تمكنت من تحريرها ، وكانت الجيوش الغازية لا تعتبر سقوط المدينة أمراً واقعاً إلا بسقوط قلعتها .

وفي القلعة تحفظ أموال الولاية ، ومخازن الزردخانه(*) التي تحفظ فيها الأسلحة والمهمات العسكرية ، وفيها مخازن الذخائر والمؤن .

ومن مهامه الإشراف على فتح وإغلاق القلعة مع احتفاظه بالمفاتيح . وكان النائب يعين ويشرف على الحراسة اليومية والليلية للقلعة(٣) ، كما كان لا

---

(١) دهمان : ولاة دمشق ، ص ٢٤ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٤١ .

(*) الزردخانه : بيت السلاح وبها من السيوف والقسي العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد المانع ، وفي كل سنة يحمل إليها ما يعمل بخزائن السلاح من الأسلحة . وفي السلاح خاناه من الصناع المقيمين بها لإصلاح العدد وتجديد المستعملات جماعة كثيرة .
القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢/١١ .

(٣) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٩ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٤٩ .

يسمح لحراس القلعة بمغادرتها إلا بمرسوم صادر منه بشرط العودة في نفس اليوم ، ومن الأمور الدقيقة على تمام اليقظة وقوة الحراسة في القلعة ، أن الطبول كانت تقرع طوال الليل - في كل ثلث منه - للدلالة على تيقظ الحراس وشدة المراقبة واستتباب[١] الأمن .

ويبدو أن المهمة الأساسية لنائب القلعة التي كانت محط أنظار السلطة المركزية في القاهرة ، هي أن نائب القلعة عين السلطان التي لا تغفل عن نائب السلطنة في دمشق ، وعلى كل موظفي الهياكل الإدارية وترتب المراسلات بينهما بالحمام الزاجل كلما جد جديد ، فكانت من صلاحيات وظيفته أنه أشبه بمسئول الاستخبارات في الوقت الحاضر إلى جانب صلاحياته الأخرى .

وغالبًا ما كانت تصدر الأوامر إلى نائب القلعة بالقبض على الوالي وإيداعه أحد سجون القلعة حتى ينظر السلطان في أمره ، وإذا ثبتت عليه أي تهمة بالخيانة كان يتم اغتياله في محبسه بأمر من السلطان إلى نائب القلعة[٢] .

٣ - الحجوبية[*] :

وهم عدة حجاب بدمشق ، لهم رئيس يقال له : (حاجب الحجاب)[**] ،

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٣٠٠ .

(**) الحجوبية : الحجاب / الحجابة / في الأصل حفظ باب الخليفة أو الملك أو الوزير والاستئذان للداخلين عليه ، ومن يتولاها يدعى الحاجب . ويشترط فيه العقل والحكمة والذكاء والحزم . راجع الصابي : رسوم دار الخلافة ، ص ٧١ .

وتكون مهمته الجلوس بدار العدل ، وإذا خرج النائب من دمشق في مهمة أو سفر أو غيره ، يكون هو نائب الغيبة عنه . وقد يصل عدد الحجاب إلى ستة ، يكون بعضهم أمير طلبخانه أو أمير عشرين أو عشرة ، ورتبهم في المواكب أن يكون حاجب الحجاب في المقدمة ، ومن يليه في الرتبة يكون ميمنه ، والآخرون ميسره [١].

ثم صاروا في أيام الظاهر برقوق خمسة أو ستة حجاب ، وجرت العادة بأن يكتب لحاجب الحجاب مرسوم شريف من السلطان عند ولايته ، ولا مدخل للنائب بها[٢] .

وإذا جاء مرسوم من السلطان من القاهرة المحروسة بالقبض على نائب السلطنة في دمشق ، كان هو الذي يقبض عليه ويسلمه إلى قائد القلعة ليقوم بسجنه ، ثم يقوم هو بأمر المدينة إلى أن يقام نائب آخر ، وعندما يكون النائب قويًا ويستعصي على حاجب الحجاب القبض عليه ، فكان الأخير يلجأ إلى نائب القلعة الذي كان يدخل على الفور في صراع مسلح مع النائب ويرميه من فوق أسوار القلعة بالمنجنيقات حتى يتمكن من كسر شوكته ثم يقبض عليه أو يضطره إلى الفرار ناجيًا بنفسه[٣] .

كما كان الحاجب يتولى عادة فض المنازعات بين الجند إما بنفسه أو بالرجوع إلى النائب ، وكان من جملة مهامه عرض الجند وأجناد الحلقة وتقديم من يرد منه إلى النائب في شكايات أو غير ذلك[٤] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٥ .

(٤) ابن قاضي شهبه ، الإعلام ، جـ٢ ، ص ٥٤ .

٤ - شـد المهمات(*) :

وهي رتبة جليلة ، ويشرف صاحبها على الاحتياجات السلطانية ، وهي تارة تسند إلى نائب السلطنة بدمشق ، وتارة لحاجب الحجاب ، وتارة أخرى لأمير آخر ، حسب رأي السلطان[١] .

٥ - نقابة القلعة(*) :

وهي إمرة عشرة بمرسوم سلطاني[٢] ، ويكتب لهم من الأبواب الشريفة .

٦ - نقابة النقباء(*) :

وهما نقيبان : أحدهما يكون لميمنة النائب والآخر للميسرة[٣] . ويبدو أن المصطلح قد تغير في وقتنا الحاضر إلى عضو اليمين ، عضو اليسار .

٧ - الخزندارية(*) :

ورئيسها مسؤول عن توزيع الخلع والتشاريف السلطانية على مستحقيها وهي ترد من السلطان بالقاهرة إلى بعض المتميزين من رجال الجيش المملوكي أو الهياكل الإدارية .

وتتكون الخزندارية من أربعة طواشيه ، بعضهم أعلى من رتبة بعض ، أحدهم في رتبة أمير طلبخاناه أو أمير عشرين ، والثاني دونه ، والثالث

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٣٠٠ .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

دونه ، والرابع دونه ، وكل منهم يعين من قبل نائب السلطنة بدمشق على قدر رتبته[١] .

٨ - نقابة الجيش[*] :

وتتكون من ثلاثة أشخاص ، كبيرهم نقيب النقباء ، تارة يكون أمير طلبخاناه أو أمير عشرة ، واثنان من جند الحلقة[**] ، ويصدر قرار بتعيينهم من نائب السلطنة بدمشق على قدر مراتبهم .

وكان نقباء الجيش في العادة في مقام الحجاب الصغار ، وكان النقيب منهم هو المسؤول أمام النائب أو الحاجب فيما يتعلق بطلبهما أحد الأمراء أو الجند ، كما كان يتعهد بأحضاره إليه عندما يطلب منه ذلك ، بالإضافة إلى ذلك فإن من مسؤولياته الأساسية انه الذي يوجه إليه طلب القبض على أحد رجال الجيش ، كما كان يلتزم بحراسة النائب في ركوبه وسفره أو خروجه للصيد وغير ذلك[٢] ، كما كان من مهامه القيام بعرض الجند في بعض الأحيان[٣] .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٣٠٠ .

(**) جند الحلقة أو أجناد الحلقة : وهم الجنود المرتزقة من غير مماليك السلطان ولكل أربعين جندي مقدم عليهم منهم ، ليس عليهم حكم إلا إذا خرجوا للحرب أو لسفر فحينئذٍ يقودهم مقدمهم . محمد أحمد دهمان : ولاة دمشق ، ص ٢٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٦ ؛ المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٦٢ .

(٣) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٨٧ .

٩ - شد(*) الدواوين :

ويكون متوليها مسئولاً عن الأموال السلطانية وتنميتها رفيقًا للوزير ، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب ، وكانت في الأيام المتقدمة إمرة طبلخاناه ثم استقرت في إمرة عشرة [١] . ويبدو أن السلطان كان يقصد بهذا الديوان استغلال أمواله وتنميتها في الاشتغال بالتجارة بغية الكسب ، وبذلك ينافس أرباب الأعمال والتجار في أرزاقهم . ولقد انتقد ابن خلدون هذا الديوان واعتبره منافسة غير مشروعة ، لأن « الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون ، ومزاحمة بعضهم بعضًا تنتهي إلى غاية موجودهم ، فإذا رافقهم السلطان في ذلك - وماله أعظم كثيراً منهم - فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته(**) » [٢] .

وكانت أموال السلطان تأتي من المتحصلات المشروعة وغير المشروعة . ويلاحظ في ذلك الوقت عدم وجود فارق بين جيب السلطان وخزانة الدولة [٢] .

ومن الموارد الشرعية للأموال السلطانية : ضريبة الأرض أو الخراج ، والجوالي وهي الجزية المقررة على أهل الذمة ، والرسوم المقررة على الثغور والتجار الأجانب ، والمواريث الحشرية وهي أموال من لا وارث له ، وما يتحصل

(*) شد : لفظ اصطلاحي من مفردات الهياكل الإدارية في العصر المملوكي ومعناه المأمور أو المدير ، ويذكر اللفظ مضاف إلى الوظيفة فيقال : شد العشر ، شد الدواوين ، شد الأوقاف . سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٤٣٣ .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

(**) يقصد ابن خلدون أن أموال التجار متقاربة وانهم عندما يعملون بالتجارة يعملون في حدود مبالغ متقاربة وفي مستوى متقارب ويحصلون بالتالي على أرباح متقاربة تحقق لهم الغاية من نشاطهم التجاري بخلاف السلطان إذا زاحمهم يختل الميزان لثراء السلطان .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٤٤ .

من دور ضرب النقود ، وما يتحصل من المعادن المستخرجة من الأرض[١] .

أما الموارد غير الشرعية للأموال السلطانية فتشمل ضريبة الغلال والأسواق ، والحوائص والبغال ، ومقرر السجون ، ومقرر طرح الفراريج ، ومقرر المعاصر والمراكب في الأنهار ، ومقرر البشارة بفتح مدينة أو جزيرة أو حصن[٢] .

١٠ - شد الأوقاف[*] :

ويكون متولي الوظيفة مسئولاً عن أوقاف المسلمين ويكتب لمتوليها توقيع عن النائب[٣] ، وعادتها إمرة عشرة ، وربما كانت طبلخاناه[٤] .

وكان لشد الأوقاف (الأحباس) مسئوليات جسام وصلاحيات كثيرة ، فلقد ازدهر الوقف في العصر المملوكي نتيجة لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية . وتشير هذه الظروف إلى ازدهار هذا الديوان في مصر والشام ، ويقوم صاحب الديوان برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من

---

(١) المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص ٣٦/٤٠ .

(٢) صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٧٦ .

(*) شد الأوقاف : أضيفت هذه الوظيفة إلى أرباب السيوف لأهميتها المالية لأنها كانت من أهم مصادر الدخل فمن المعقول أن تسيطر عليها الدولة والحكومات الحديثة استولت على الأوقاف وادارتها لمصلحة الخزانة العامة ولم تجعلها وظيفة دينية .

أما وظيفة شاد الزكاة : فكان معناها آنذاك « التحدث على متجر الكارم » والمراد به تجارة البهار ونحوه من يجلب من الهند واليمن وكان لهذه التجارة شأن عظيم ومن أهم مصادر الدخل لذا لزم أن يليها أمير مملوكي من أرباب السيوف .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٣ ؛ محمد أحمد دهمان : ولاة دمشق ، ص ٢٦ .

(٤) د . سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٣٣٦ .

جوامع ومساجد وربط وزوايا ومدارس وغيرها .

ولقد اتسعت الأعيان الموقفة على أبواب الخير في العصر المملوكي فشملت الحوانيت والخانات والفنادق والأراضي الزراعية ومعاصر الزيت والقصب والحمامات والطواحين والأفران والمصابن ومخازن الغلال ومعامل ترقيد الفروج(١) . وكان ينفق من ريع هذه الأعيان المحبوسة على المؤسسات ثم يوزع الفائض على شكل صدقات وعطايا على المحتاجين(٢) .

١١ - شد الزكاة(*) :

التحدث على متجر الكارم ، وهي البضائع التي يأتي بها الإفرنج ويأخذون عنها جمركًا(٣)، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب . وقد حرص سلاطين المماليك على إغراء التجار من مختلف البلاد الأجنبية على المجيء إلى المدن التجارية في مصر أو على طول ساحل الشام الشرقي .

---

(١) د . عبد اللطيف إبراهيم : دراسات في وثائق من عصر المماليك ، ص ١٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(*) شد الزكاة : من المتعارف عليه من أحكام كتب الفقه أن من وجب عليه الزكاة كان مخيراً بين أن يدفعها إلى الإمام أو نائبه وبين أن يفرقها بنفسه .

وأصبح المتعارف عليه في زمن المماليك : هو أن المؤدين للزكاة المفروضة يوزعونها بأنفسهم على مستحقيها ولم يبق ما يؤخذ من الناس على صورة زكاة في عصر المماليك إلا ما يؤخذ من التجار على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب أو فضة ، وتكون هذه الضريبة بمعدل ٢٫٥٪ ثم تطورت إلى ما يدخلونه من كل البضائع . ويبدو ان صاحب وظيفة شد الزكاة كان يقوم بهذا الإجراء .

المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

هذا هو المصطلح الذي أطلقته المصادر على متولي وظيفة الضرائب والمكوس التي تُفرض على تجارة البهار أو الكارم أو الكانم ، وليس المقصود الزكاة الشرعية التي تؤخذ على أموال الأغنياء فأن الناس في ذلك الزمان كانوا يدفعون زكاتهم بأنفسهم إلى مستحقيها من الفقراء وكان يؤخذ من التجار ٥ر٢٪ على صورة مكوس اطلق عليها زكاة وأطلق على متوليها شد الزكاة[١] .

ويتضح ذلك في صيغة هذا المرسوم السلطاني الذي كُتب بأسلوب جيد يغري التجار بالمجيء : « وقد يؤثر الورود إلى بلادنا إن أقام أو تردد فليعزم عزم من قدر له في ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة لأنهما في الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن . فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن ، والهند والصين والسند وغيرهم ، فليأخذ الأهبة في الارتحال إلينا ليجد الفعال في المقال أكبر ويرى إحسانًا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر »[٢] .

وإذا كانت مدينة الاسكندرية قد احتلت مكانة تجارية مرموقة في جنوب المتوسط ، فإن دمشق وموقعها الهام جعلها من كبريات المدن التجارية في دولة المماليك « إليها تهوى ركائب التجار ، وتمير من قماشها جميع الأقطار »[٣] .

وكان يقيم بدمشق أعداد كبيرة من الجاليات الأجنبية يقيمون في فنادقها ويجدون ما يحتاجون إليه من مأوى وكنائس وحمامات ومخابز وفق الطريقة

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ١٩١ / ١٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٣٤٠ .

(٣) جمال سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٤٥ .

المتبعة في بلادهم .

وعمد سلاطين المماليك إلى فرض ضرائب باهظة على كل سلعة تأتي إليهم أو تمر ببلادهم ، وحسبنا أن حمولة الفلفل التي كان ثمنها في القاهرة أو دمشق خمسون ديناراً كانت تباع أحيانًا للتجار الأجانب بثلاثة أمثال هذا الثمن .

وكان الأجانب يأتون من أوروبا محملين بأصناف ممتازة من الفراء والجوخ والأصواف وغيرها من المنتجات ، ويعودون محملين بالتوابل والبخور والعطور والخزف والحرير وغيرها من منتجات الشرق[١] .

١٢ - شد العشر[*] :

وهي كالسابق ، وموضوعها المعاونة في تحصيل الضرائب على التجار القادمين إلى بلاد المماليك[٢] ، وكانت إمرة عشرة ، ثم تحولت إلى إمرة جندي ، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب[٣]. ويبدو أنه كان معاونًا لشد الزكاة ، وكان المماليك يتقاضون الخمس عن التجارة التي يأتي بها الفرنج ويأخذون

---

(١) سوفاجيه ، دمشق الشام ، ص ١٥ .

(*) من المقرر شرعًا أن يؤخذ العشر من بضائع التجار الأجانب وأباح مذهب الشافعي للحاكم أن يأخذ أكثر من العشر ، كما أباح له أن يخفض هذه الضريبة إلى نصف العشر ومن الممكن أن يلغيها كلية إذا كانت حاجة المسلمين ماسة إلى هذا النوع من البضائع .

السبكي ، معيد النعم ، جـ ١ ، ص ١٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

(٣) دهمان : ولاة دمشق ، ص ٢٧ .

ذلك مكسًا(*) وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضًا .

ودفع ذلك التجار الأوربيين - ولا سيما البنادقة وأهل جنوة - إلى رفع شكاياتهم إلى السلاطين بواسطة قناصلهم أكثر من مرة ، وفي بعض الأحيان كان السلاطين يستجيبون لنداء التجار « ليكثر الفرنج في بلادهم جلب البضائع » ، فيأمر السلطان شد الزكاة والعشر بالتخفيف عنهم وعدم إيذائهم ، وفي معظم الأحيان - وتحت ضغط الإسراف - كان يضيق على التجار وتستمر المكوس الباهظة مفروضة على متاجرهم [١].

١٣ - شد دار الطعم :

هي شبيهة بالوكالة بمصر ، ولقد فسرها القلقشندي لنا بقوله : « خزانة الطعم » كانت تحتوي على عدة أنواع من الأطعمة والأعمال على أصنافها كالدجاج والطيور والزيت ، فلذلك فهي شبيهة بالوكالة أو الخان في العصر الحالي ، وبسوق البزورية بدمشق في هذه الأيام[٢] .

كما بيعت بتلك الوكالات إلى جانب الطعام النحاس والفراء وبعض الأصناف الأخرى كالمنسوجات بأنواعها ، واشتهرت دمشق بصناعة أنواع فاخرة

(*) المكس : وجمعه مكوس وهي كل ما يحصل من الأموال لديوان السلطان وكان من أهم مصادرها الأموال التي تؤخذ من تجار الهند .

المقريزي ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٣/١١١ ، جـ ٢ ، ص ١٢١/١٢٤ ، القلشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٦٨ .

(١) جمال سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ١٠٦ ، د/ عفاف صبره ، العلاقات بين الشرق والغرب .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

منها حتى أصبحت لها شهرة عالمية، وكانت تصنع من الحرير والكتان والقطن ، وصناعة الملابس السلطانية للأمراء وصناعة الفرش والستور والخيام والفساطيط والسروج والجلود والثريات وتكفيت (تطعيم) البرونز والنحاس بالذهب والفضة ، وصناعة الحلي والمجوهرات والزجاج الملون والمشكاوات ، والمصنوعات الخشبية ، وكان يتم تحصيل الضرائب الباهظة من أرباب الصناعات[١] .

١٤ - ولاية المدينة :

ويتولاها أمير مسئول عن أعمال الشرطة ، وصاحبها أمير عشرة [٢].

ومن اختصاصات ولاية المدينة : حفظ الأمن ومطاردة اللصوص وقطاع الطرق من العربان والقبض عليهم ، ومراقبة المفسدين والخمارين من اليهود والأرمن وغيرهم من المفسدين ، والمحافظة على أرواح الناس وأموالهم ، وحماية القيساريات والخانات والأسواق ومخازن التجار .

وكانوا يقومون بتوقيع بعض العقوبات والتعزيرات كجلد المخالفين من السكارى أو الغشاشين في الأسواق بالعصا أو الكرباج[٣] ، وكان يساعده على تأدية واجباته هذه عدد من رجال والحراس والعسس .

كما فرضت عليه بعض القيود والتي تحد من سلطاته الواسعة ، فلم يكن من حقه التجسس على الرعية بحجة البحث عن المنكرات في بيوتهم ، كما لم

---

(١) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٤ .

(٣) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٦١ ، ٦٢ .

يكن من سلطاته مصادرة أموال الناس بحجة منعهم من ممارسة المنكرات والرذائل .

وهكذا كان عمل ولاية المدينة يجمع بين عمل المحتسب وعمل العسس ليلاً وعمل الشرطة[(١)] .

١٥ - المهمندارية :

وهي تلقي الرسل الواردين إلى النائب من حكومة أخرى[(٢)] ، ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته . ويعرف صاحبها (بالمهمندار)[(*)] ، كما يتلقى أمراء العربان وغيرهم ممن يرد إلى النائب ، فتكون مسئوليته إنزالهم بدار الضيافة والاشراف على كل شئونهم [(٣)].

ويشترط فيه التحلي بصفات الأمانة والقوة والذكاء والوفاء لدولته ، فيرهب القصاد ويوهمهم بقوة الدولة وسطوتها على المخالفين لها وإحكام قبضتها على الداخل[(٤)] .

---

(١) القلقشندي ، جـ ٤ ، ص ١٩٥ وما بعدها .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٤ .

(*) المهمندار : لفظ فارسي ومعناه : الشخص المكلف باستقبال الرسل والوافدين والسهر على راحتهم . وأصل الكلمة من مقطعين : (مهمن) بمعنى الضيف أو المسافر ، و (دار) مخففة من (دارنده) بمعنى صاحب . ويقوم بواجبات تلك الوظيفة في المجتمعات المعاصرة (مدير المراسيم) .

محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ١٤٧ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ؛ ج ٥ ، ص ٤٥٩ .

(٤) السبكي : معيد النعم ، ص ٤٥ .

١٦ - أمير آخورية البريد[*] :

وهي المسئولية عن البريد بدمشق ونواحيها ، وكان البريد يخص الدولة ، وليس الرعية [١] . ولم يزل بها أمير عشرة من أيام الناصر محمد بن قلاوون[**] من سنة ٦٩٣ هـ .

١٧ - تقدمة البريد[*] :

وهي وظيفة كان يتولاها مقدم البريد أو صاحب البريد بدمشق ، وهو مسئول عن بريد مدينة دمشق [٢] ، والتعيين في هذه الوظيفة حق لنائب السلطنة بدمشق[٣] .

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ٨ ، ص ٣٠٠ .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٤ .

(**) الناصر محمد بن قلاوون : تم اختياره سلطانًا وهو طفل صغير لا يزيد عمره على تسع سنوات سنة ٦٩٣هـ بمساعدة مملوك أبيه علم لدين سنجر الشجاعي ، ثم عزل سنة ٦٩٤هـ وحل محله كتبغا الذي تشاءم الناس معه لانخفاض النيل في عهده ، ثم تولى المنصور لاجين سنة ٦٩٦هـ على اثر مؤامرة دبرت لكتبغا ، وعند ما قتل لاجين ومملوكه منكوتمر أعيد الناصر محمد بن قلاوون إلى الحكم مرة ثانية سنة ٦٩٨هـ / ٧٠٨ هـ ، فحضر من منفاه في حصن الكرك وكان عمره أربعة عشر عامًا ، ثم تنازل عن السلطنة لكثرة الفتن والمؤامرات . وتولى بيبرس الجاشنكير ثم كانت سلطنته الثالثة ٧٠٩هـ / ٧٤١ هـ وهي مدة طويلة كما يظهر ، وكان عهده عهد رخاء واستقرار ، وتوفي سنة ٧٤١ هـ .

ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٨ ، ص ٤١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص ٨١٣ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٥٣ .

(٢) ابن الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .

١٨ - شـد المواريث الحشـرية[*] :

مـوضـوعـة التـحـدث على ديوان المواريث ممن يموت ولا وارث لـه ، أو له وارث لا يستغرق ميراثه ، مع التصريح بدفن جميع الموتى من المسلمين وغيرهم وازدهرت أعـمـال هذا الديوان حيـنمـا كـان المذهب الرسـمي للبـلاد هـو المذهب الشافعي .

وبطل هذا الديوان حينما دخل العثمانيون البلاد العربية وجعلوا المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي وأصبح ذوو الأرحام يرثون من ذكر سابقًا بعد أن كان يرد ما خلفوه لبيت المال[١] .

١٩ - شـدود صغار متعددة[*] :

كـما وجدت شدود صغـار متـعددة يولى بها أجناد بتـواقـيع عن النائب ، كشد دار البطيخ والفاكهة ، وشد المسابك من الحديد والنحاس والزجاج[٢] .

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٣٠٠

(١) دهمان : ولاة دمشق ، ص ٢٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٤ .

ثانيًا : الوظائف الديوانيـــة[*] :

١ - الــوزارة[**] :

هي من أجلّ الوظائف وأرفعها رتبة في الدولة ، فمتوليها يعد الحاكم الثاني في الدولة ، لو أنصف وعرف قدره ، ولكن تدخل المماليك في شئون الإدارة - وهم أصحاب القوة والسلطة - ومع وجود النائب الكافل في السلطنة وهو من المماليك جعل له من القوة والتسلط ما يجعله يتدخل في أمور الحكم ودفع بالوزير إلى أقل منه مرتبة وسحب منه معظم اختصاصات وظيفته ، وتنحصر اختصاصات الوزير في ثلاثة أمور :

١ - ناظر المال : لجمع المال وصرف النفقات ، ومعه شاد الدواوين .

٢ - ناظر الخاص : لتدبير الأمور العامة وتعيين المباشرين .

٣ - كاتب السر : للتوقيع في دار العدل[1] .

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٦ ، ص ٩٢ .

(**) الوزارة : مشتقة لغويًا من الوِزر - بكسر الواو وسكون الزاي - وهو الثقل ، لأن الوزير يتحمل عن ولي الأمر أشغاله . وقيل انه مأخوذ من الوَزر - بفتح الواو والزاي - أي الملجأ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كلا لا وزر ﴾ ، أي لا ملجأ ، فسمي بذلك لأن ولي الأمر يلجأ إلى رأي الوزير . وقيل مشتقة من الأزر ، قال تعالى : ﴿ واجعل لي وزيرًا من أهلي ، هرون أخي اشدد به أزري ﴾ .

القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي : الأحكام السلطانية ، ص ٨٤ .

ويشترط القلقشندي فيمن يتولاها أن يجمع بين صفات الأمانة ، الصدق وقلة الطمع ، كراهية العدوان ، قوة الذاكرة ، الفطنة الذكاء والنزاهة .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٥ .

ولتفصيلات أكثر انظر الماوردي : أدب الوزير .

وكانت الوزارة في نيابة دمشق تارة تكون حقيقية ، وذلك إذا سبق لصاحبها أن تولى هذه الوظيفة الشريفة بالقاهرة ، فيصرح له بأنه يخاطب بلقب الوزير ، فإذا لم يكن قد سبق له شغل هذا المنصب بالقاهرة فإنه لا يسمح له بحمل لقب وزير في مكاتباته الرسمية ، بل يطلق عليه (ناظر المملكة الشامية) ، ولكن العامة يطلقون عليه اسم الوزير تجوزاً . وعلى كل فالوزير يكتب له بوظيفته تقليد ، وناظر المملكة يكتب له مرسوم وكلاهما من السلطان لا من النائب[١] .

وبذلك كان من الواضح في عصر المماليك أن نفوذ الوزير سواء في العاصمة المركزية أو في مدن الولايات تضاءل عما كان عليه زمن العباسيين بالعراق أو الفاطميين بمصر[٢] ، وذلك لأن وظيفة النائب حلت محل وظيفة الوزير في شؤون الدولة فانحطت وظيفة الوزارة وغدت (مرؤسة ناقصة) على حد تعبير ابن خلدون[٣] ، حتى ان نفوذ الوزير لم يتعد تنفيذ تعليمات السلطان أو نائبه على دمشق .

٢ - كتابة السر[*] :

ويقال لمتوليها « صاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروسة » . وهي

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٨ ؛ المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ ؛ دهمان: ولاة دمشق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) د . سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ١٤٠ .

(٣) المقدمة ، ص ١٢٤ .

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٦ ، ص ٨١ .

تضاهي: كتابة السر بالديار المصرية في الرئاسة ورفعة القدر ، وموضوعها : قراءة الكتب الواردة على النائب وأجوبتها وأخذ خط النائب عليها وحكمه التصريف في الوارد والصادر من المراسيم وقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها والحديث في أمر البريد والقضاء ، ومشاركة الدوادار في أكثر الأمور . وكان الدوادار يختم المكاتبات بخاتم الدولة ويقيدها في السجلات ، وكان يختار من كبار الأمراء ، ومن الذين يقرؤن القصص على نائب دمشق بدار العدل يعرفون باسم كتاب الدست ، وهم الذين يحضرون معه المجالس بدار العدل ويوقعون على الرقاع بأمره ومن يكتب الولايات والمكاتبات يعرفون باسم كُتاب الدرج ، وربما شاركهم عملهم كُتاب الدست ، ويتولى هذه المهمة كل من يراه الوالي من أهل الأمانة الثقة .

ويولى كاتب السر من قبل السلطان ويختاره من خاصة الموثوق بهم ليطلعه على أمور قد يخفيها النائب ، أما كُتاب الدرج والدست فيولون من قبل النائب[١] ، ويطلق عليهم (الموقعين) لأنهم يوقعون على الشكاوي والقصص المرفوعة إلى أمين السر .

ولقب صاحب ديوان الانشاء بدمشق والديار المصرية في عصر المماليك بـ (ناظر الانشاء الشريف) ، وبلغت أهمية هذه الوظيفة أن صاحبها « كان يطلع على أسرار لا يطلع عليه حتى أولاد السلاطين أو النواب ، ولا أخص الأخصاء من رجال الحكم والإدارة »[٢] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٥ ؛ و ج ٩ ، ص ٢٥٨ .

(٢) الخالدي : كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الانشا ، ص ١٢ .

وروعي في اختيار صاحب هذا الديوان أن يكون « فصيح اللسان وقوراً حليمًا أصيلاً في قومه »[١] .

وكان يحضر بحكم منصبه اليمين التي يؤديها كبار الموظفين عند تعيينهم في مناصبهم ، ويكتب المراسيم الخاصة بتولي هذه الوظائف .

وكان يشترط في صاحب ديوان الإنشاء الإلمام باللغات الأجنبية ، وحسن الخط بأنواعه ، والدراية الخاصة بالألقاب والمعلومات عن البلاد المجاورة التي لها علاقة بالولاية[٢] .

٣ - نظر الجيش[*] :

وهو المسئول عن الإقطاعات ، فيكتب ناظر الجيش ما يعينه النائب للمستحقين لها مما توفر منها عن أصحابها بالموت ، وما يعينه النائب يكتب بديوان نظر الجيش ، ثم يرسله النائب إلى الأبواب الشريفة السلطانية ليشملها الخط الشريف السلطاني ، ولناظر الجيش أن يحكم في المحاكمات الديوانية[٣] ، كما أن مهمته النظر في منع أحد الأمراء من اقطاعه لسبب من الأسباب أو ينقص جزءاً من اقطاعه ، وتحفظ كل المناشير الصادرة بالاقطاعات سواء من النائب في دمشق أو السلطان بالقاهرة في ديوان نظر الجيش[٤] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٠٦ ، جـ ٤ ، ص ١٩٥ .

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ١٩٦ ، جـ ٦ ، ص ١٥١ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ ؛ دهمان : ولاة دمشق ، ص ٣٠ .

(٤) المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

ويقوم مستوفي الديوان بتمديد الرواتب التي تصرف للجند وتسجيلها في كشوف خاصة بمساعدة مستوفي الإقطاعات ومستوفي الرزق ، ويشرف على صرف مرتبات الأجناد وأرزاقهم العينية .

وهذا الديوان من أهم دواوين الدولة ، فلقد جرت عادة المماليك على توزيع الأرض وجميع موارد الدولة الأخرى إقطاعات بين السلطان وجنوده ، والأراضي المقطوعة ثلاث درجات من حيث الري والخصوبة ووفرة الانتاج ، واختص السلطان وكبار أمرائه بأجود الأراضي على قدر منازلهم [١].

وهناك مناسبات عديدة يتم فيها توزيع الاقطاعات أهمها : عند قيام سلطان جديد ، فلقد أعطى السلطان برقوق مؤسس دولة الجراكسة إقطاع إمرة مائة فارس وتقدمه ألف بما يتبعها إلى قريبه الأمير قجماس[٢] . وتعد مناسبة عرض الجند من أهم المناسبات التي يجري فيها توزيع الاقطاع من منح وزيادة ونقل وانقاص حسب اللياقة والكفاءة ، وكذلك يعاد توزيع الاقطاع عند اتساع رقعة الأراضي الزراعية بسبب الفتح الخارجي أو الاستصلاح الزراعي[٣] .

وقد يقوم السلطان بعملية إعادة توزيع الاقطاعات عندما يريد التقليل من نفوذ كبار الأمراء لكثرة ما حازوه من اقطاعات في المناسبات المختلفة ، فإذا تم جمع بيانات الاقطاعات وشروط التوزيع ترفع إلى متولي شئون نظر

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٨ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٣) طرخان ، النظم الاقطاعية ، ص ٣٥ .

الجيش وهو عادة من رجال القلم[١] ، وكان لنائب دمشق وأمرائها ثلاثة آلاف مملوك[٢] .

٤ - نظر المهمات الشريفة :

يكون متولي هذه الوظيفة من أرباب الأقلام ، رفيقًا لشاد المهمات ، من أرباب السيوف الذي تارة يكون نائب دمشق ، وتارة يكون حاجب الحجاب بها أو غيرهما . وتلحق هذه الوظيفة تارة بديوان الوزارة ، وتارة تكون مستقلة[٣] بديوان خاص بها ، وبهذا الديوان عدة مباشرين من كتاب وشهود ، فيوليهم النائب بتواقيع كريمة منه .

٥ - نظر الخاص :

وهي وظيفة خاصة بكل ما يتعلق بالمستأجرات السلطانية وغيرها من الأغوار ، وقد يضاف نظرها للوزير[٤] .

ويرجع الفضل في تأسيس تلك الوظيفة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون من سلاطين المماليك البحرية ، إذ أنشأ هذا الديوان سنة ٦٩٨ هـ واستمر قائمًا حتى عصر المماليك الجراكسة ، وكان صاحبه يشرف على مراقبة

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٩٠، ٩٣ .

(٢) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٨٥ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٧ ، النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، جـ ٨، ص ٢٥ وما بعدها .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة ؛ دهمان : ولاة دمشق ، ص ٣٠ .

الخزانة الأميرية ، ولأن دمشق تمثل الولاية الأولى في الدولة من ناحية ، ولكثرة ما يجبى فيها من أموال سلطانية أنشيء هذا الديوان للمحافظة على ممتلكات وأموال السلاطين ، ويعاونه في هذا العمل شد الدواوين .

٦ - نظر الخزانة(*) :

هي وظيفة جليلة ، يوليها النائب بتوقيع كريم ، ويعبر عنها بالخزانة العالية ، ومتوليها يكون رفيقًا للخازندارية من الطواشية ، ويكون متحدثا في أمر التشاريف والخلع وما معها[١] .

وكان المماليك يعتمدون على (دور الطرز) وهي دور تصنع فيها الخلع والتشاريف والرنوك(**) التي يمنحها السلاطين لكبار رجال الدولة في جميع مدن الولايات ، وتنقش عليها أسماء السلاطين وألقابهم[٢] . وكانت هذه الخلع تصنع من أفخم أنواع المنسوجات ولها مصانع متعددة منتشرة في الفسطاط ودبيق(***) ودمشق وغيرها.

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٢١٣ .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٧ .

(**) الرنوك : مفرده رنك وهو الشعار الذي يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له وكان يرسمه على باب بيته وكل الأماكن المنسوبة إليه من حظائر ومخازن وأملاك ومراكب .
القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٦١/٦٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ .

(***) دبيق : بليدة بصعيد مصر تشتهر بنسج الحرير الذي كانت تصنع منه الخلع والتشاريف السلطانية في العصور المختلفة .
علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ ، ص ١٣ .

وكانت مهمة نظر الخزانة هي حفظ هذه الخلع السلطانية ويقوم بتسليمها لنائب السلطنة حيث تمنح لأصحابها في حفل عام يقام بدار العدل ، وقد تمنح لبعض رؤساء الجاليات الأجنبية [١].

٧ - نظر البيمارستان(*) النوري :

هي وظيفة مضافة لنائب دمشق ، ويفوض النائب فيها أحداً من أرباب الأقلام[٢] .

وكان يتولى الاشراف عليه والعمل به الأطباء والكحالين وموظفيه من الطبائعيين والجراحين والمجبرين ، وكذلك المشرفين والعمال والخدم[٣] .

وكذلك الإشراف على المرافق وتوزيع الأدوية والمعاجين والعقاقير والمراهم والأكحال والأدهان والسفوفات والترياقات(**) والأقراص ، ولا يصرف لأي أحد إلا بقدر حاجته إليه .

---

(١) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٢٨٤ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

(**) الترياقات : نوع من الدواء على شكل شراب يصرف لمن تعاطوا أي نوع من أنواع السموم .

٨ - نظر الجامع(*) الأموي :

وهو للنائب ، ولكنه في الغالب يعطى لقاضي قضاة الشافعية(١) .

٩ - نظر خزائن السلاح :

ويتولاها مسئول عن كل ما يستعمل من السلاح السلطاني ، ويولى صاحب هذه الوظيفة بتوقيع كريم عن النائب(٢) .

وهي خزانة مصغرة للخزانة السلطانية في القلعة وتحتوي على جميع أنواع الأسلحة التي تستخدم في الدفاع عن الولاية ضد الأخطار الخارجية . ويطلق عليها (السلاح خاناه) وتشتمل على السيوف والقسي والرماح والدروع وقاذفات النفط(**)

(*) الجامع الأموي : أنشأه الوليد بن عبدالملك في مكان متميز من دمشق ، كان معبداً لجويتر ثم عدله الرومان ، ثم بنى فيه المسيحيون كنيسة لهم ، فاشتراه الوليد وبنى فيه المسجد الجامع الذي عرف بالأموي ، وأنفق على بنائه خمسين صندوقًا من الذهب ، وعمل به حوالي عشرة آلاف عامل ومعظمهم من أهل البلاد والروم والقبط والفرس ، واتبع في شكل البناء الأقواس والأعمدة والقباب والأروقة على الطراز البيزنطي ، ولكن مخطط المسجد وزخرفته إسلامية الطابع .

د . يوسف العش : الدولة الأموية ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ . ولتفصيلات أكثر انظ الجامع الأموي للشيخ علي الطنطاوي .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٣ ، ٩٨ .

(**) قاذفات النفط : آلة على شكل المقلاع استخدمها المماليك في حصارهم للقلاع وهي تلقي قطع من القماش على شكل كرة مدهونة بمادة سريعة الاشتعال وتقذف على الحصون والقلاع عند حصارها لاشعال النيران بها .

وراجمات الحصون(*) والعرادات(**) .[١]

ويشترك مع متولي السلاح خاناه ، صاحب ديوان الركاب خاناه حيث يعتني الأخير بالخيول وآلاتها من سروج وأكاديش ، وتكون جاهزة للقتال في أي وقت فيعتني بترويضها واطعامها ونظافتها ورياضتها وكل ما يلزم لاصلاح الخيول[٢] .

وكان يشترك معهما في الاستعداد صاحب ديوان الطبلخاناه : التي تشتمل على الطبول والنقارات والأبواق والكوسات والرايات والأعلام وغيرها[٣].

(*) راجمات الحصون : آلة عسكرية ضخمة تصنع من الخشب وهي تشبه المنجنيق وهي تقوم بقذف كمية كبيرة من الاحجار الصلبة على الحصون والقلاع .

(**) العرادات : آلة حربية على شكل مستطيل وهي مجوفة ولها سقف من الخشب المدهون بمادة تمنع اشتعال السقف وتتحرك على عجل ويتحصن بها الجنود عند دك باب الحصن أو نقب الجدران .

(١) القلقشندي ، جـ ٤ ، ص ٩٩ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ١٧٧ حاشية ٥ .

(***) النقارات : عبارة عن قطع متراصة من خشب رقيق بينها مسافات متقاربة ويقوم ضاربها بتحريك عصا دقيقة عليها فتحدث صوتًا موسيقيًا مميزًا .

ابن القيم ، محمد بن أبي بكر ، الفروسية ، القاهرة ١٩٤١ م ، ص ١١٦ ، ١٤٧ ، ابن الطنبغا الأشرفي ، كتاب الجهاد والفروسية ، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١١ ، ١٢ .

١٠ - نظر البيوت :

هو نظر جليل ، يشارك صاحبه الاستادار(*) فيما يتحدث به ، وهذه وظيفة اسم على مسمى ، وذلك يرجع لعدم وجود البيوت السلطانية بدمشق ، ولكنها ترمز إلى دمشق على انها العاصمة الثانية للدولة المملوكية (١).

وكان ديوان نظر البيوت في دمشق صورة مصغرة لديوان الحوائج خاناه وخصصت لها ميزانية تحت يد نائب السلطنة ينفق منها على ديوان نظر البيوت وما يحتاجه من لحوم وتوابل وخضر وحلوى وبخور وما يلزم توزيعه على الأمراء والمماليك من مرتبات عينية ، وكان لناظر البيوت في دمشق دراية بأسماء أرباب الرواتب ونصيب كل منهم وما يعرف في الأعياد والمواسم المختلفة (٢).

ويتصل بنظر البيوت المطبخ الذي يتولى طهي الطعام للنائب وحاشيته ومماليكه ، وله طباخون ومرقدارية ، وله خبرة في تقديم الأسمطة وأصناف الأطعمة في المناسبات المختلفة . وكان للمطبخ تقاليد متنوعة فبعد تقديم الطعام توزع المشروبات المبردة والمطيبة بماء الورد على الحاضرين . ويتولى

(*) الاستادار : كلمة مركبة من است دار ، وتطلق على كل من يتولى شئون البيوت السلطانية من المطابخ إلى الشراب خانه ، وله التصرف في طلب كل ما تحتاجه البيوت السلطانية ، كما ان له الإشراف على الطباخين والوقادين والغلمان والجواري القائمين على الخدمة وتقديم الطعام . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٧٢/٢٧١ ؛ خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٢١ / ١٢٢ .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٢ .

الإشراف على المطابخ مسئول كبير هو الأمير الجاشنكير(*) . (١)

١١ - نظر بيت المال(**) :

كان لا يلي هذا المنصب إلا ذو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة والأخلاق، ويقوم متولي هذه الوظيفة بالإشراف على الأموال المتحصلة في دمشق والتصرف والتحفظ عليها ، ويساعده في مهمته شهود بيت المال ، والصيارفة وكاتب المال فيه قبضًا وصرفًا- يقصد الدخل والخرج - ، وتكون ولاية هؤلاء من قبل النائب، ولقد ذكرها القلقشندي بأن حكمها كما في الديار المصرية(٢) .

وكان صاحبها يعرف بناظر الخزانة ، واختص صاحب الوظيفة بمراقبة حسابات النيابة الدمشقية ، والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها ، والقيام بصرف رواتب الموظفين ، وكان جانب منها يصرف نقداً ، على حين يصرف الجانب الآخر عينًا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع عدا الكسوة التي كانت تصرف سنويًا . أما باقي الأصناف السابقة فتوزع شهريًا(٣) .

(*) الجاشنكير : كلمة تركية ، ومعناه الذي يتذوق الطعام قبل تقديمه للسلطان أو كبار الأمراء خوفًا من دس السم لهم في الطعام أو الشراب .

القلقشندي ، جـ ٥ ، ص ٣٩٦ .

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

(**) النويري ، نهاية الأرب ، جـ٨ ، ص ٢١٧ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٨ .

(٣) المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

ويعتبر المقريزي صاحب هذا الديوان من أهم موظفي الإدارة لأن له « أمر ونهي وحال جليلة ، لكثرة الحمولة الواردة ، وخروج الأموال المصروفة في الرواتب لأهل الدولة وكانت أمراً عظيماً »(١) .

وكان يعاون صاحب هذا الديوان (مستوفي(*) الصحبة) وهو برتبة وكيل عنه ، وشهود بيت المال ، عدا الكتبة .

١٢ - نظر ديوان الأسرى :

ويتولاها مسئول عن الأوقاف التي تفدى بها الأسرى(٢) . كانت جيوش المماليك تعود من أغلب معاركها منتصرة ، وتسوق أمامها الآلاف من أسرى الأعداء ، وكانت المدن تتزين من أجل استقبال المنتصرين ، وتعلق الرايات وتنصب الزينات والتعاليق على البيوت والخانات والقيساريات ، ويصف لنا المقريزي أحد هذه المواكب(٣) ، وهي تعود بالأسرى ورؤوس القتلى من مغول فارس معلقة على أسنة الرماح ، وكان عددها ألف رأس على ألف رمح ، وبلغ عدد الأسرى ألف وستمائة ورؤوس من قتل منهم معلقة في رقابهم ، فكان في

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .

(*) المستوفي : موظف من كتاب الأموال بالدواوين ، عمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . ومن المستوفين : مستوفي الصحبة وهو يشارك الوزير ويعاونه في الأمور العامة مثل كتابة المراسيم وتسجيلها ، ومثله في النفوذ مستوفي الدولة . وكان لكل ديوان من دواوين الدولة ناظر وتحته المستوفي والشاد .
المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٦٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٨ .

(٣) السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٣٨ .

أعناق الأسرى ألف وستمائة رأس أخرى غير التي على الرماح .

ويصور لنا ابن إياس[١] صورة أخرى لأسرى (سوار بن دلغار) ملك التركمان بآسيا الصغرى الذي كان سوار نفسه أحد هؤلاء الأسرى ، وكان يغير على أطراف حلب وهزم ثلاث حملات مملوكية وشغل بال اثنين من كبار السلاطين هما خشقدم[*] وقايتباي قرابة خمسة أعوام (٨٧٢ - ٨٧٧هـ) ، حتى استطاعت حملة بقيادة الأمير يشبك[**] الدوادار ان تهزمه وتأسره وتسلمه الأمير برقوق نائب السلطنة في دمشق وزينت دمشق ثلاثة أيام ليشبك زينة حافلة . وأخيراً رحل موكب الأسرى إلى القاهرة حيث تم توسيط الأمير سوار

---

(١) بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٠ ، أحداث سنة ٨٧٢ / ٨٧٣ هـ .

(*) خشقدم : هو السلطان الملك الظاهر ابن سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي وهو من أصل رومي بويع بالسلطنة بعد خلع الملك احن بن اينال ولم يقع في أيامه بمصر طاعون أو غلاء ، وكان شهماً مهاباً يتحدث اللغة العربية بمهارة ، ومن مساوئه انه كان سريعاً لعزل أرباب الدولة والاستيلاء على أموالهم . وحدثت في عهده فتنة شاه سوار وكان عدواً لابن عثمان ملك الروم ، وتوفي في ربيع الأول سنة ٨٧٢ هـ وتولى بعده يلباي المؤيدي .

ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٧٨ وما بعدها .

(**) كان الأمير يشبك دواداراً للسلطان قايتباي من سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، وكان عسكرياً متميزاً كان على رأس الحملة الأخيرة سنة ٨٧٦ هـ التي انزلت الهزيمة بشاه سوار ملك التركمان واستولى على غينتاب وأدنه وطرسرس ، وتولى يشبك إدارة إمارة دلغادر ثم عين عليها الأمير أبو داق أخو شاه سوار بعد أن أعلن الانصياع لسلطان مصر . ولقد قتل الأمير يشبك سنة ٨٨٥ هـ في معركة قرب الرها لإخضاع حاكمها أند نواب يعقوب بك بن حسن الطويل .

ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٧١ .

وتسميره هو وجمع كبير ممن معه من الأسرى[٢] .

وكان من الطبيعي أن تقع أعداد كبيرة من جند المماليك أسرى في أثناء الصراع مع أعدائهم من التتار أو الصليبيين أو التركمان فكان يتم تبادل الأسرى بين المماليك وأعدائهم وإذا بقي أحد من أسرى الدولة المملوكية في أيدي أعدائها يقوم ديوان الأسرى بدفع الفدية للجنود وللقادة المأسورين كل حسب رتبته العسكرية .

١٣ - نظر الأسواق :

وهي وظيفة موضوعها : النظر في أسواق الرقيق[*] والخيل وما إلى ذلك[٢] .

وكان متولي هذه الأسواق يشرف على التجار الذين يقومون بجلب الرقيق والجواري لبيعهم في الأسواق ويفتش عليهم ويختار للقصور السلطانية أقوى الغلمان وأجمل الجواري ، كما يشرف على أسواق الخيل ومراقبة تجارها والتأكد

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٧٠ وما بعدها .

(*) أسواق الرقيق : عني الإسلام بالرقيق والجواري وأباح للسيد ملك اليمين ما عدا أن يجمع الولي بين الأختين أو الأم وابنتها ، وتحصل الجارية على حريتها بعد أن تصير أم ولد فلا يحق له أن يفرق بينهما ولا يبيعها ، ولا يهبها ، وأكرمهن الإسلام . فسمح للسيد أن يكاتب عبده وجاريته مقابل مبلغ محدد يدفع للسيد منجما ، حتى إذا استوفى القيمة المتفق عليها أصبحت الجارية حرة .

المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٥٦٦ ، علي عبد الواحد وافي ، أحكام الرقيق في الإسلام ، جـ ٣ ، ص ١٤٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ١٧٥ .

من سلامة الخيول وعراقتها وخلوها من الأمراض ، ومما لا شك فيه أنه كانت تفرض على هذه الأسواق ضرائب باهظة .

ولأسواق الرقيق أهمية خاصة ووضع متميز في العصر المملوكي فيجب ألا ننسى ان المماليك أصلاً هم من أجلاب هذه الأسواق ، وكانوا يحتاجون باستمرار إلى شراء المماليك وتربيتهم تربية عسكرية ، فهم قوام دولتهم واستمرار شرائهم وكثرتهم عند كل الأمراء تجديد لدماء الدولة وضمان لبقائهم في الحكم [١].

وكان تجار الرقيق : يحملون إلى تلك الأسواق رقيقًا من أصول مختلفة فهم يعلمون شراهة أسواق مصر والشام لهم . ففي عهد دولة المماليك البحرية تنوعت أصولهم فكان منهم التركي والمغولي والصيني والاسباني والألماني والسلافي وغير ذلك من الجنسيات التي ورد أصحابها إلى مصر صحبة تجار الرقيق[٢] .

وكان هؤلاء الأجلاب ينسبون دائمًا إلى سادتهم الذين اشتروهم بالمال فبيبرس البندقدار نسبة إلى سيده علاء الدين البندقدار ، والأشرفية نسبة إلى الملك الأشرف ، والناصرية نسبة إلى الناصر محمد ، وربما انتسب المملوك إلى تاجره إذا كان مشهوراً ، مثل المماليك العثمانية نسبة إلى التاجر الخواجا عثمان فخر الدين[٣] .

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ١٤٧ .

(٢) د . سعيد عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٣ .

(٣) ابن قاضي شهبة : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ، المجلد الثاني ، ص ٢٧٣ .

وربما انتسب المملوك إلى قيمته التي اشتري بها إذا كانت مبلغًا كبيراً مثل قلاوون الألفي الذي اشتراه الأمير علاء الدين اقسنقر بألف دينار فسمي بالألفي[١] .

أما المماليك الشراكسة - الذين نؤرخ لهم في هذا المبحث - فمعظمهم أجلاب من بلاد الترك في منطقة بحر قزوين .

وكما راجت تجارة الرقيق ، نشطت أيضًا تجارة الجواري ، فأكثر الناس من شرائهن وكانت أغلاهن سعراً الجواري الجنكيات[**] ، وهي ما تتخذ للمتعة وتتميز بجمال الصوت .

كما أكثر المماليك من شراء الخيول بأنواعها المختلفة ، الخيول العربية الدقيقة المتناسقة الأعضاء والخيول المغولية الضخمة .

وكانوا يبذلون فيها الأموال الطائلة فهي عدتهم في القتال زمن الحرب ، وكانوا بطبعهم فرسانًا مشهوداً لهم بالمهارة والتفوق في المناورة بها زمن الحرب ، أما في اسلم فكانت عدتهم في رحلات الصيد ومختلف ألعاب الفروسية التي يجيدونها ، ولذا انتعشت أسواقها وكانت مصدراً من مصادر الدخل للخزانة المملوكية وخصص لها موظف كبير هو ناظر أسواق الرقيق والخيل[٢] .

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٣ ، ص ٣٧ .

(*) الجنكيات : نسبة إلى الجنك ، وهي آلة موسيقية تشبه العود ، وهم طبقة من العازفات والراقصات كن في الأصل من اليهود والأرمن واليونان والمغول .
ابن الصيرفي : إنباء الهصر بأنباء العصر ، ص ٩١ ، حاشية ١ .

(٢) السيد الباز العريني ، المماليك ، ص ١١٤ نقلاً عن مخطوط علم الفروسية ورقة ٢٨ ب ، د/ نبيل عبد العزيز ، الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك .

١٤ - نظر مراكز البريـد(*) :

ومتوليها يكون رفيقًا لأمير آخور(**) البريد[١] .

وتمتعت إدارة البريد في دمشق بمكانة عالية فهي عين السلطان الساهرة على مراقبة الولايات الداخلية في حلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك خاصة ومراقبة أعداء الدولة من التركمان والتتار ولا غرو في ذلك ، فلقد كانت همزة الوصل بين القاهرة وولايات الشام فربطت مختلف أطراف الدولة المملوكية بعضها ببعض ، وكان البريد على نوعين : جوي وبري [٢].

(*) عمال البريد في الولايات : كان لكل عامل منهم عمال يتبعونه ويعاونونه على تصريف شئون البريد في مركز عمله ، ومنهم :

المرتبون : وهم السعاة المسئولون عن حمل الرسائل في حقائب خاصة من محطة بريد لأخرى.

الموقعون : وهؤلاء مهمتهم تثبيت أوقات انطلاق السعاة ووصولهم بهدف ضبطها في دفاتر خاصة.

القراقيون : ومسئوليتهم مراقبة سكك وطرق البريد والسعاة والخيالة ومن واجباتهم تقديم تقاريرهم عن كل ذلك إلى صاحب الديوان في العاصمة .

الوكلاء المخبرون : يقومون بمساعدة عامل البريد عن طريق جمع المعلومات والاخبار في الولاية .

محمد كرد علي ، خطط الشام ، ص ١١٦/٤٥ ، لتفصيلات أدق انظر نظام البريد في الدولة الإسلامية ، نظير حسان سعداوي .

(**) أمير آخور : لقب كان يطلق على المشرف على اصطبل السلطان وخيوله ويسكن باصطبل السلطان ، ثم أطلق على المشرف على خيول البريد .

محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ١٨٤ .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٨ حاشية رقم ٣ .

ويرجع الفضل الأول إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقداري في تنظيم البريد ، خاصة البريد الجوي ، واستخدم فيه (الحمام الزاجل) ، وكانت قلعة الجبل المركز الرئيسي للبريد القادم من الولايات .

وروعي في الرسائل التي ترسل مع الحمام الزاجل أن تكون خفيفة فتكتب على نوع خاص من الورق الرقيق مع مراعاة الدقة والإيجاز ، وكان يستخدم في نقل الرسائل العاجلة[١] .

وعلى طول طريق البريد الجوي كان هناك مجموعة من الموظفين المدربين على التعامل مع الحمام وإطعامه وحسن استقباله وإراحته .

أما البريد البري فكان بواسطة الخيل ويخترق بلاد الشام قادمًا من دمشق إلى العاصمة المركزية عبر فلسطين وعلى امتداد هذا الطريق أقيمت محطات واستراحات لرجال البريد وخيولهم .

وكان بعض هؤلاء البريديين يحمل الرسائل شفوية في أغلب الأحيان ، ولذا روعي فيهم أن يُختاروا من الأشخاص (ذوي البصر بمخارج الحروف مؤديًا الألفاظ عن السلطان أو نائب دمشق بمعانيها وأن يكون صدوقًا بريئًا من الطمع أمينًا)[٢] .

---

(١) حسان سعداوي : نظام البريد في الدولة الإسلامية ، ص ١٤٣ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

١٥ - نظر الحوطات :

وهو الحديث عن الأموال المرتجعة من الأمراء الذين ماتوا - سواء كان لهم وارث أو لم يكن - ، فيعتبر السلطان ان هذا المال مال الدولة ، ويوقع الحوطة على أموالهم ويصادرها ، وتضاف لمال الدولة خاصة إذا ثبت أن من مات من الأمراء كان يتعاطى الرشوة أو يختلس من مال الدولة[١] .

وكثيراً ما توقع الحوطات على كبار الأمراء والموظفين من المماليك ممن أثروا ثراءً فاحشًا ، فحينئذ يعتبر السلطان ان هذا المال ملك للدولة ، فيوقع الحوطة أي المصادرة عليه ويضاف لخزانة الدولة ، وقل من الوزراء من لا تجري الحوطة امواله واموال أقربائه وجماعته حيًا كان أو ميتًا[٢] .

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٥٠ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

ثالثاً : الوظائف الدينية :

« القضاء ، نقابة الأشراف ، الحسبة »

١ - قضاء القضاة :

وهي أرفع الوظائف الدينية قدراً وأجلّها رتبة ، وموضوعها : النظر في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها والقيام بالأوامر الشرعية ، والفصل بين الخصوم ، ونصب النواب للتحدث فيما يعسر عليه مباشرته بنفسه .

وبدمشق أربعة قضاة من المذاهب[١] الأربعة أعلاهم الشافعي ، وهو رأس الهيئة القضائية[٢] ، ويليه في الرتبة الحنفي ، ثم المالكي ، ثم الحنبلي ، ويختص الشافعي بتولية النواب في جميع نواحي دمشق[٣] وأعمالها حتى في غزة[٤] .

كما ينظر في الأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال والإشراف على أحوال اليتامى .

وجرت العادة أن يخلع السلطان على القضاة في المناسبات الخاصة والأعياد الدينية فكانت خلعة الشافعي بيضاء ، والحنفي حمراء ، أما خلعة المالكي فكانت خضراء[٥] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٩ ؛ دهمان : ولاة دمشق ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٢٥٥ .

(٣) النعيمي : الدارس في أخبار المدارس ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٤) ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٢ .

(٥) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ص ١٢ .

ويعاون القاضي في وظيفته كل من :

الكاتب : وكان يُختار من الفقهاء المشهود لهم بحسن الفهم والذكاء وشدة الملاحظة والدراية بتسجيل القضايا بالمحاضر والسجلات وإن كان عارفًا لمدلولات الألفاظ العرفية واللغوية(١) .

الحاجب : ويتولى الاستئذان للشهود والخصوم على القاضي ، ويرفع إليه الشكايات ، وكان يشترط في اختياره لمنصبه أن يكون حسن الخلق ، مشهوراً بالتقوى والصلاح ، نظيف اليد ، لا يقبل البراطيل ولا يحجب عن القاضي من يريد مقابلته(٢) .

النقيب : ومهمته داخل مجلس الحكم ويتولى تنبيه القاضي على الشهود ، وتنبيه الشهود على القاضي(٣) .

الأمناء : وهم موظفون يتبعون القاضي مباشرة يقومون بالتحفظ على أموال اليتامى والغائبين ، ويقومون بإخراج زكاة اليتيم لمن يعينهم القاضي ، ويختارهم القاضي من الموظفين المشهود لهم بالعفاف والأمانة ، كما كان القاضي يختار مجموعة من الموظفين لمساعدته في عمله القضائي ويطلق عليهم في اصطلاح ذلك الوقت (الشهود العدول) ، ومهمتهم النظر في تطبيق الاجراءات القضائية الصحيحة(٤) .

---

(١) السبكي : معيد النعم ، ص ٧٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٢٨٢ .

(٢) النصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٣) السبكي : معيد النعم ، ص ٨٦ .

(٤) عبدالمنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٤٧ .

الترجمان : يقوم بمهمة الترجمة بين القاضي والمتقاضين إذا كان هؤلاء لا يعرفون العربية .

والواقع ان القضاة قاموا في المجتمع المملوكي بدور بارز أملته عليهم كثرة اختصاصاتهم وتنوع مسئولياتهم التي امتدت إلى أنواع القضايا من مدنية وجنائية وأحوال شخصية ، وهذا فضلاً عن إمامة المسلمين ونظر الوصايا والاحباس وشئون اليتامى والمحجور عليهم والتدريس بالمدارس .

وكان من عادة السلاطين أن يجلسوا في دار العدل بالقاهرة مرتين في الأسبوع وذلك للنظر في شكوى أي مواطن مدني أو عسكري في مصر أو الشام أو الحجاز ، شعر بظلم وقع عليه ولم ينصفه أحد ، ويكون قد استنفد كل الوسائل القضائية للوصول إلى حقه ولكنه شعر بأن الأجهزة الإدارية والقضائية قد ظلمته فيلجأ آخر الأمر إلى السلطان لينصفه[1] .

٢ - قضاء العسكر(*) :

كان للحامية المملوكية بدمشق « قضاة عسكر » وهم مختصون بشئون الجند وليس لهم ولاية على غيرهم ، كما كانوا يفصلون في القضايا القائمة بين العسكريين والمدنيين .

ويلاحظ ان قضاة العسكر كانوا قاضيين يمثلان المذهبين الشافعي والحنفي وجلوسهم في دار العدل دون القضاة الأربعة . ويسافر مع النائب إذا

---

(١) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الإسلام ، ج ١ ، ص ١٢ .

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٦ ، ص ٤٨ .

ســافر[١] .

وفي عهد المماليك بلغ راتب القاضي خمسين ديناراً ، عدا ما كان يحصل عليه من الأوقاف التي كان يتولى إدارتها وما يجري عليه من الشعير والغلال والخبز واللحم والكساء [٢].

٣ - إفتاء دار العدل[*] :

ويوجد بها مفتيان ، شافعي ، وحنفي فقط[٣] كما في قضاء العسكر ، وولايتهما عن النائب بتواقيع كريمة. ويبدو أنهما المذهبان الشائعان في الشام .

وكانا لا يفصلان في خصومات المدنيين والعسكريين ، بل كانا يبينان حكم الشرع فيما يسألان فيه من المسائل كلاً على حسب مذهبه[٤] .

٤ - وكالة بيت المال :

تكون ولاياتها من قبل النائب ، وموضوعاتها تتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض ودور ، والمعاقدة وما إلى ذلك من أعمال[٥] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦ ، ١٩٩ .

(٢) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٦٥ .

(*) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٦ ، ص ٢٦٥ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .

(٤) نفس المصدر ، والجزء ، ص ٤٦ .

(٥) نفس المصدر ، والجزء ، ص ١٩٩ .

٥ - نقابة الأشراف :

ولايتها تكون من قبل النائب ، وموضوعها : التحدث على ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمراد بهم هنا الأشراف ، في الفحص عن أنسابهم والتحدث في أقاربهم والأخذ على يد المتعدي منهم ونحو ذلك [١].

٦ - مشيخة الشيوخ :

وهي التحدث على جميع الخوانق والفقراء والصوفية بدمشق وأعمالها ، وفي العادة يكون متوليها شيخ الخانقاه السميساطئية[*] بدمشق ، وولايتها من قبل النائب[٢] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ .

(*) الخانقاه السميساطئية : نسبة للسميساطي علي بن محمد بن يحى السلمي الحبشي من أكابر الرؤساء بدمشق ت ٤٥٣ هـ حدث عن الكلابي وطائفة ولم يرو عنه غير ابنه أبي القاسم . دفن بدمشق كان مقدمًا في الهندسة وعلم الهيئة ، وسميساط قلعة على الفرات بين قلعة الروم وملطية ومن علمائها ابو المظفر الفلكي وابن حمويه ، والصدر البكري وجمال الدين البزوري آنشد في مدحها علاء الدين الوداعي أبياتًا منها :

لدويرة الشيخ السميساطي من ... دون البقاع فضيلة لا تنحل

اني لأنشد كلما شاهدتها ... ما مثل منزلة الدويرة منزل

النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، جـ ٢ ، ص ١٥١ وما بعدها .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ .

٧ - الحسبة[*] :

وهي صدى لمبدأ عني به الإسلام في مجال الأخلاق والتشريع والمتمثل في مبدأ الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر[**] إذا ظهر فعله .

والحديث عن أهل المعايش والصنائع ، والأخذ على يد الغاش في معيشته وصناعته ، وإليه ولاية نواب الحسبة بجميع أعمال دمشق واختصاصات الحسبة تقوم بها في الوقت الحالي عدة إدارات في الوزارات المختلفة ، ولا غرو في ذلك فلقد كان المحتسب مشرفًا على التجارة الداخلية والأسواق والمكاييل والموازين والغش والاحتكار والتدليس في الأسواق ومراقبة المترددين على الأسواق ويمنع الفسق والفجور وتعاطي المسكرات واقتراف المعاصي ، كما يشرف على الصنائع المختلفة ويفحص عيار الذهب ، والفضة ويفحص عيار النقد خوفًا من الزغل[***] في النقد[١] ، ويشترط فيمن يلي تلك الوظيفة ان يكون فقيهًا عارفًا بأحكام الشرع ، وأن يتصف بنظافة اليد ، ونقاء السيرة يجمع في صفاته بين الشدة واللين ، وطلاقة الوجه وعبوسه[٢] . وكان هذا

(*) نهاية الأرب ، جـ ٦ ، ص ٢٩١ .

(**) كما عرفها أحد الذين اهتموا بالكتابة عنها وهو محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بإبن الإخوة في كتابه (معالم القرية في أحكام الحسبة) . و الماوردي ، الأحكام السلطانية ، انظر ص ٢١٠ .

(***) الزغل : أطلق هذا المصطلح في العصر المملوكي على تزييف النقد بمعنى الغش في العيار وإنقاص وزن النقد من الذهب أو الفضة .

سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٤٣٠ .

(١) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٩٣ .

(٢) ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠ ، ١٣ .

النظام مطبقًا في جميع نيابات الشام حيث يزدحم الإقليم بالمدن العامرة بالسكان وكثرة الحرف والصنائع ، وتعدد مصالح الناس وتشابك العلاقات الاجتماعية .

ووظيفة الحسبة قوية الصلة بالقضاء غير أن عمل القاضي يتميز بالأناة والروية والتثبت من الوقائع . أما المحتسب فيقوم عمله على أساس سرعة البت في المخالفات « فمن وجده المحتسب قد غش مسلمًا أو آكل بباطل درهمًا ، أو أخبر مشتريًا بزائد ، أو خرج عن معهود العوائد شهّره في البلد وأركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد »[١] .

أو عقاب المذنب الخارج على الآداب العامة بالسجن في أحد السجون النيابية ، ولقد وصف المقريزي سجون المماليك « بالظلام وكثرة الخفافيش والروائح الكريهة والقبائح المهولة »[٢] .

٨ - الخطابات المضافة لنظر النائب[*] :

وهذه يتولى فيها بتواقيعه ، أما خطابة الجامع الأموي فمعظم ولاياتها تكون من قبل السلطان لأهميتها ومكانتها العظيمة ، وقد صارت لقاضي القضاة الشافعي ٧٨٥هـ[٣] .

---

(١) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٢٤ .

(٢) المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٠٦ .

(*) النويري ، جـ ٦ ، ص ٢٩١ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ .

٩ - التدريس(*) :

كانت هناك مجموعة من العلوم المختلفة منها : الفقه ، والحديث ، والتفسير ، والنحو واللغة والقراءات ، والطب ، وهذه تختلف باختلاف من يتولاها من حيث أن يكون أهلاً لها ، وولاياتها عن النائب ، وقد تكون عن السلطان[١] .

وهي تدخل أيضًا ضمن وظائف أرباب الصناعات بدمشق من رياسة الطب ، الكحالين ، ورياسة الجرائحية على نحو ما تقدم .

وكان يتولى هذه المهام أساتذة وشيوخ مشهود لهم بالعلم والفضل يتولون التدريس في المدارس المختلفة التي أنشأها السلاطين والنواب في أنحاء دمشق أو المساجد التي شعت بنور العلم في كل مكان من أرجاء المدينة ، وكذلك انتشرت هذه التداريس في الربط والخنقاوات المختلفة[٢] .

١٠ - وظائف رؤساء أهل الذمة :

كان يوجد في دمشق بطرياركين للمسيحيين وهما بطرك اليعاقبة(**) ،

(*) النويري ، جـ ٦ ، ص ٢٩١ .

(١) القلقشندي ، جـ ٤ ، ص ٣٩ ، ١٩٣ .

(٢) الدارس في تاريخ المدارس ، جـ ١ ، جـ ٢ ، صفحات مختلفة .

(**) اليعاقبة : نسبة إلى راهب يدعى يعقوب البرادعي ، وهم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة ، وحدة اللاهوت والناسوت وصدق قول الله فيهم : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ [المائدة : آية ٧٢] .

ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ص ٢٣٢ .

وبطرك الملكانية(*) ، ورئيس لليهود القرائين والربانيين ورئيس لليهود السامرة مقيم بنابلس ، المدينة المعظمة عندهم ، وكان يوجد من ينيب عنه بدمشق ، وهؤلاء الرؤساء تنتخبهم طائفتهم أولاً ، ثم يوليهم السلطان رأسًا ، أو بواسطة نائب دمشق[١] .

(*) المذهب الملكاني : نشأ هذا المذهب في القرن الخامس في أعقاب مجمع خلقدونية ٤٥١ - م . وأطلقه اليعاقبة على من خالفهم من نصارى الشرق ووافقوا امبراطور بيزنطة على قبول مقررات المجمع الخلقدوني المقدس ، وهم أصحاب مذهب الطبيعتين ويؤمنون بتعدد الآلهة إلى ثلاثة ، الأب ، والابن ، وروح القدس ، وصدق قول الله فيهم : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ [المائدة : آية ٧٢] .

الشهرستاني : الملل والنحل ، ص ٢٢٣ .

(١) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ٢٠١ .

الفصل الثالث

دور طبقات الشعب في الأنشطة السياسية

ويشتمل على المباحث الآتية :

أولاً - مكانة أهل العلم وأرباب القلم في المجتمع ودورهم السياسي في قيادة الرأي العام .

ثانيًا - أهمية دور طوائف العامة في العمل السياسي .

ثالثًا - وضع أهل الذمة في دمشق ودورهم السياسي في المجتمع وعلاقتهم بالطبقات الأخرى .

أولاً : مكانة أهل العلم وأرباب القلم في المجتمع ودورهم السياسي في قيادة الرأي العام :

كانت طبقة أهل العلم وأرباب القلم من الطبقات المميزة المقربة إلى السلاطين والأمراء ، وتشير إليهم مصادر(١) العصر بمصطلح (أهل العمامة) وكانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب ونظار الأوقاف والمدرسين وغيرهم ، ونعمت هذه الطبقة بامتيازات كثيرة طوال عصر المماليك ، ويبدو أن السبب في ذلك حاجة طبقة المماليك إلى دعامة يستندون إليها في إضفاء صفة الشرعية على حكمهم . ولا غرو في أن العلماء كانوا أسرع وسيلة إلى اكتساب قلوب سائر الفئات الاجتماعية ، ولذا نعموا بالمرتبات المجزية والمنح الدائمة والوظائف العالية ، وبنى المماليك كثيراً من المدارس(*) والمساجد(**) والخنقاوات والزوايا والأسبلة

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ ؛ ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

(*) أنشأ الواقفون من سلاطين وتجار وأمراء وعلماء كثيراً من المدارس في دمشق لتؤدي الوظائف التعليمية والدينية ، ولم تكن المدرسة تتميز عن المسجد إلا بمساكن الطلبة التي كانت تلحق عادة بالمدارس ليعيش فيها الطلاب ، وقد عين لكل مدرسة عدداً من المدرسين في التخصصات المختلفة ، كما حدد عدد الطلاب لكل مدرسة ونوعية المذاهب التي تُدرس ، كما اشترط تدريس كتب معينة ، وألحق مؤسسوا المدارس بها (خزانة كتب) ايرجع إليها المدرسون والطلاب ويشرف عليها من أصحاب العامة (خازن الكتب والربعات الشريفة) .

الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، جـ ٢ ، صفحات متفرقة ، ابن قاضي شهبه ، الإعلام ، جـ ١ ص ١٧٦ / ١٨٣ .

(**) من أبرز الوظائف التي يتولاها (أهل العمامة) في المساجد : وظيفة الإمام وفي بعضها كان الواقفون يرتبون أربعة أئمة في أروقة المسجد (على المذاهب الأربعة) وتصرف لهم في كل شهر المرتبات الجزيلة ، وفي نهاية كل أسبوع أربعة أرطال من الخبز ، ويلحق بالمسجد =

في دمشق[٢] ، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة لينعم العلماء والفقهاء بالوظائف الفخمة من ناحية وليتقربوا إلى الشعب ويظهروا بمظهر المتدينين من ناحية أخرى .

ونتيجة لاحترام المماليك للعلماء ولمكانتهم الدينية والعلمية صاروا يشكلون النخبة المميزة من سكان دمشق والمدن الشامية الأخرى ، وقوى اتصالهم بسائر الفئات ، فهم عند المماليك قوة لها خطرها ينعمون باحترامهم ، ويشعرون بمدى حاجة المماليك إليهم بالإضافة إلى أنهم الواسطة بين طبقات الحكام وسائر فئات المجتمع ، وكانت طبقة (أهل العمامة) بحكم تكوينها تنتمي إلى جميع المستويات الاجتماعية ، ولا غرو في ذلك فهي نابعة من مختلف طبقات الشعب وإليه تنتمي . ولذا كان لهم موقع قيادي في الأمور السياسية والثقافية والدينية[١] .

ولقد أضفى كثير من العلماء صفة الشرعية على حكم المماليك وكانوا يمثلون أسرع الطبقات اعترافًا بالسلاطين الجدد أو المعينين . ويبدو أن الدافع إلى ذلك الخوف من وقوع الفتن والاضطرابات في المدن الشامية البعيدة عن العاصمة المركزية في مصر ، وهذا السلوك يمثل معنًى سياسيًا هامًا في الطاعة والولاء والاخلاص ، وكان من نتيجة ذلك انصياع العامة وانقيادهم لأي سلطة

= = المساكن المخصصة لهم ، ووظيفة الخطيب : وهو يقوم بأداء مهمته أيام الجمع والعيدين والكسوفين والاستسقاء ، كما رتب الواقفون عددًا من المؤذنين يتناوبون الآذان على المئذنة . السبكي ، معيد النعم ، ص ١٠٩ ، ١٤٠ .

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٤١٠ ؛ مارفين لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي ، ص ٢١٥ .

(٢) سعيد عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ١٥٧ ، ١٧٠ .

سياسية جديدة تبعًا لرأي زعمائهم السياسيين ، وكان وصول العلماء إلى قصر دار العدل بدمشق أو إلى قلعتها عند وصول نائب أو قائد جديد ليقدموا احترامهم وترحيبهم ، كان معنى ذلك هو قبول السلطة والاعتراف بالتعيين والتعاون ، ثم يقوم العلماء بدورهم السياسي وتأثيرهم القيادي في الدعوة إلى الترحيب بالسلطة الجديدة في كل الأماكن ذات التأثير السياسي والديني في المدارس والمساجد والخنقاوات والرُبط[١] .

وكان الأمراء البارزون في الدولة المملوكية يهتمون بالعلماء ويحرصون على كسب تأييدهم ، ونيل رضاهم ، إذ معنى ذلك ضمان التأييد النفسي والعملي من جانب سائر الفئات .

وكان الثائرون من أمراء المماليك - إذا أرادوا إنجاح ثورتهم - أن يحرصون على استصدار فتوى أو حكم قضائي شرعي أو رسالة صادرة من القيادات الدينية تسوغ تمردهم وتضفي عليه صفة الشرعية وأنهم يقاومون الظلم ويريدون تحقيق العدل، أدرك ذلك الأمير منطاش في أثناء الصراع مع خصومه، وطلب من أهل العمامة من الفقهاء والقضاة ومشايخ الاسلام مساعدته ودعمه ، وكان يعدهم بالعدل وتحقيق مطالب الجماهير من ناحية وبالوظائف الهامة والرتب السنية من ناحية أخرى ، حتى ان حاكم دمشق في أثناء ذلك الصراع حاول إغراء العلماء بالتمرد على السلطان (المؤيد شيخ المحمودي) سنة ٨١٦هـ ، لكنهم رفضوا ذلك[٢] .

---

(١) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ص ١٠٥ ؛ النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٠٤ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٥ وما بعدها .

وبرز دور العلماء كقادة سياسيين في قيادة الرأي العام عندما كانوا يؤثرون على الشعب ويطلبون من الجماهير حمل السلاح للدفاع عن حقوقهم وحماية بلادهم في أوقات المحن والحروب ، وكانوا لا يكتفون بإلقاء الخطب على أعواد المنابر أو إلقاء الشعارات والبيانات بل يحملون السلاح جنبًا إلى جنب مع العامة ، وتشير مصادر العصر المملوكي إلى ذلك فقد وقفوا سويًا في الحروب لمقاتلة الصليبيين والمغول وضد الخونة أمثال الصالح إسماعيل ومن سكان أرمينيا وغيرهم على حدود الشام[١] ، وكان العلماء بحكم مسئوليتهم السياسية يوزعون السلاح على الناس ، ويطلبون منهم تعلم الرماية ، ويطلبون من مياسير التجار الدعم المالي لشراء السلاح وتخزينه ، كما فتح قضاة دمشق المساجد والمدارس سنة ٧٩٩ هـ للتدريبات العسكرية للدفاع عن عقيدتهم ومدينتهم .

ولم يكن في استطاعة المماليك - في بعض فترات حكمهم - فرض أي ضريبة إضافية على الشعب ، أو أخذ أي أموال بصفة استثنائية من مخصصات الأوقاف الخيرية أو فرض قروض ضخمة على كبار التجار أو غير ذلك إلا بموافقة العلماء ورضائهم على الضرائب من حيث كميتها ومتطلباتها لدفع عدو أو مواجهة مجاعة أو طاعون، وهنا يبرز دور العلماء السياسي في قيادة الجماهير ، ويظهر أثرهم في رد فعل العامة بالاسراع إلى تلبية حاجات الدولة ، بعد أن قام العلماء بإجازة القروض وإضفاء صفة الشرعية عليها ، وبذلك ساعد (أهل العمامة) الدولة المملوكية في الخروج كثيراً من أزماتها[٢] .

---

(١) لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٤ .

(٢) سعيد عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ١٢٤ ، ١٣٥ .

ولشعور المماليك المتزايد بأهمية العلماء ودورهم السياسي في المجتمع قاموا بتعيينهم في كثير من الوظائف إيحاء للجماهير بأن قادتهم الدينيين يشغلون حيزاً كبيراً من السلطتين التنفيذية والتشريعية مثل القضاة من المذاهب الأربعة ، والمحتسبين[١] ، والمدرسين ، والخطباء ، وأئمة المساجد ، والقراء ، والوعاظ ، وكانت بعض الوظائف ذات الحساسية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية لا يسمح بالتعيين أو العزل فيها إلا بعد أخذ إذن المشايخ ، ظهر ذلك واضحًا عندما احتج العلماء في دمشق لسماع قرار أصدره الوالي حول عزل محتسب السوق دون استشارتهم ، كما أن وظيفة (نقيب الأشراف) كان لا يعين فيها ولا يبت في شغلها -غالبًا- إلا بموافقة (أصحاب العمامة)[٢] .

كما كان يؤخذ برأي العلماء حول تنظيم المسائل التعليمية والقضائية ، وإدارة الأوقاف لأهمية دورهم السياسي وتأثيرهم على الجماهير . وقام العلماء بتنظيم المدارس وتدريس المذاهب الفقهية الأربعة ، وحددوا نظم التعليم وطرقه والاشراف على اختيار الكتب والمؤلفات التي تدرس[٣] للطلاب والموائمة بين ذلك وبين متطلبات حجج الأوقاف ، كما أشرفوا على السلك القضائي ووضعت الشروط لاختيار القضاة الأربعة وشمل ذلك المدن المملوكية في مصر والشام والحجاز وشمال العراق ، واختاروا للنظام القضائي رئيسًا للقضاة أطلق عليه (قاضي القضاة) ومهمته اختيار القضاة بالإضافة إلى مسئوليته في التعيين

---

(١) نظير حسان سعداوي ، صور ومظالم من عصر المماليك ، ص ١٠٩ ، ١٣١ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٣٥٣/٣٥٦ .

(٣) النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

لموظفي الإدارات القضائية ، وأوكل إلى القضاة في كثير من الفترات الإشراف على الأوقاف[١] .

وكان القضاة متصلين بالجماهير اتصالاً مباشراً ، ونتيجة لهذا الاتصال عظم تأثيرهم عليهم ونظرت إليهم جموع العامة على أنهم مختارون لتنظيم شئون حياتهم الاجتماعية فمن باب أولى هم مسئولون عن توعيتهم السياسية فكان القضاة مسئولين بالنظر في صرف مخصصات الأوقاف للجماهير ، وهم أولياء النساء اللاتي لم يبلغن سن الرشد وغير المتزوجات والمطلقات والأرامل ، كما أشرفوا على تنفيذ الحجر على بعض الناس - لظروف صحية أو اجتماعية - وإدارة أملاكهم، كما استفاد السلاطين من فئة القضاة -لارتباطها الوثيق بالجماهير- في الوظائف العديدة الرسمية إدراكًا منهم لخبرتهم الدينية ومكانتهم السياسية من ناحية ولاستخدام دعمهم ومؤازرتهم في أوقات المحن والأزمات من ناحية أخرى وتم تعيينهم في مناصب (كاتب السر) والذي تحدثنا عنه بالتفصيل في الفصل الثاني من البحث وفي الإشراف على (خزانة الخاص السلطاني)[٢] .

وإدراكًا من المماليك لأهمية دور العلماء في المجتمع سياسيًا واجتماعيًا قاموا بتقوية الروابط بينهم عن طريق المصاهرة ، ويعتبر ذلك تدعيمًا وتقوية لتقارب الفئات الاجتماعية والوحدة -إلى حد ما - بين المماليك وطوائف العلماء [٣].

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٨٥ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٢١٣ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٢٤ ، ١٣٤ .

(٣) نظير حسان ، صور ومظالم من عصر المماليك ، ص ٨٦ .

وتصف لنا مصادر[1] العصر المملوكي مرتبات ومعاشات العلماء والفقهاء والقضاة والمحتسبين وغيرهم بأنها مرتبات باهظة حتى شاع في ذلك العصر مقولة ساخرة تقول : متى تبدل الهاء في كلمة (الفقيه) راء ، والمعنى واضح، أي متى يصير الفقيه فقيراً[2] .

ويبدو أن هذا الثراء كان من مصادر الدخل المتنوعة التي حصل عليها الفقهاء كالمرتبات المجزية ، وعائدات الأوقاف ، والجرايات العينية اليومية والاسبوعية ، والشهرية ، وهبات كبار التجار والمياسير لهم .

ومع هذا لا ينبغي أن نفهم من الصورة السابقة أن كل العلماء كانوا موظفين داخل أجهزة الدولة المملوكية ، بل يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن كثيراً منهم عملوا بالتجارة أو بعض الحرف أو الأعمال الحرة لكسب معايشهم من طريق آخر غير طريق الوظيفة ، وفي تصوري أن هؤلاء كانوا أكثر حرية في التحرك واتخاذ القرار بعيد عن أي سلطة أو ضغط ، وأستطيع أن أقرر أن هؤلاء المثقفين الذين مارسوا العمل الحر ، كان تأثيرهم السياسي أكثر عمقًا ووضوحًا من غيرهم .

وهكذا ارتبط العلماء بالجماهير ، وقادوا الرأي العام وشاركوا في اهتماماته وقضاياه ومسائله العامة . فكثيراً ما وقفوا ضد تصرفات المماليك وحاربوا المفاسد وقاوموا - نظم المصادرات - التي كان المماليك كثيراً ما يلجأون إليها ضد خصومهم وبينوا للرعية أن ذلك يتناقض مع روح الاسلام

---

(١) ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ج ١ ، ص ٤٥ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور، ج ١ ، ص ٢٤ ، ٣٥؛ الجوهري ، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٣ ، ٣٣ .

(٢) لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي ، ترجمة د. سهيل زكار ، ص ٢٠٥ ، ٢٢٠ .

وتعاليمه ، كما رفض القضاة التصديق على ضريبة حاول السلطان فرج بن برقوق ٨٠٣ هـ ، فرضها على الأوقاف والتجار لدفع متطلبات الجيش إلا إذا أثبت السلطان خلو الخزانة السلطانية وقصور الأمراء من الأموال، كما وقف العلماء ضد الفساد الحكومي في الجهاز الإداري ٨٢٧هـ ، وطالبوا بطرد الموظفين المرتشين وجامعي الضرائب المتعسفة ، بل قام العلماء بدور قيادي في حماية بعض الفئات التي تأخرت في تسديد مستحقاتها[١] ، واستخدموا نفوذهم في حماية شوارع المدينة من عبث المماليك الذين يركضون بخيولهم في حارات المدينة وأزقتها مما يعرض الناس للأخطار[٢] .

كما قاموا بدور سلمي في حل المنازعات والخصومات بين الأمراء أثناء الحروب الأهلية في دمشق سنة ٧٩١ هـ ، وتحقيق المصالحة السياسية بينهم فكان العلماء والفقهاء يتدخلون لإنهاء القتال واقناع المتمردين والمتآمرين على قبول الصلح خاصة عندما تحيق الأخطار الخارجية بالدولة ، كما عارض العلماء والفقهاء والقضاة محاولات سلاطين المماليك وأمرائهم إبطال الأوقاف والاستيلاء عليها . من ذلك ما ذكره ابن حجر من قول القاضي أبو البقاء السبكي للسلطان في خلال مناقشة بينهما عن إبطال وقف : « إسمع يا مولانا السلطان إن كنت ما تعرفني فأنا أعرفك بنفسي »[٣] . أما موقف قاضي الحنفية سراج الدين الهندي فكان أشد عندما تناقش مع الأمير آلجاي يوسف ،

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٨ ؛ نظير حسان سعداوي ، صور ومظالم من عصر المماليك ، ص ١٢٢ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٥١ .

(٣) ابن حجر العسقلاني ، رفع الإصر ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

أحد نظار الوقف الذي استكثر معلوم التدريس للشيخ وما يأخذه من مرتبات أحد الأوقاف ، فقال له سراج الدين : «إقطاعك أيها الأمير مبلغ ألفي ألف درهم وتستكثر هذا المعلوم للتدريس » ، فقال الأمير : « أنا آخذ الإقطاع لحفظ بلاد المسلمين » ، فقال : « ومن علمكم الجهاد إلا الفقهاء ؟ » ، فسكت[١] .

على أننا يجب ألاّ نبالغ في إبراز دور العلماء السياسي كثيراً ، فالمجتمع المملوكي بحكم تكوينه مجتمع تحكمه طبقة المماليك بالقوة الغاشمة ، وكثيراً ما كانوا يفرضون آراء هم وتوجهاتهم على الشعب وعلى علمائه فيتعرض العلماء والفقهاء والقضاة لكثير من ألوان العسف والهوان والاضطهاد ، ويشدد المماليك قبضتهم على كل فئات المجتمع فيحكمون بقسوة وظلم ، وكثيراً ما تنكروا للعلماء وأنزلوا بهم الصغار والهوان في بعض الفترات وتعرضوا لهم بالنقد .

كما ساعد على هذا الموقف أن بعض أرباب الأقلام والقضاة والفقهاء من الموالين للسلاطين والأمراء حبًا في المال والسلطان ، كانوا عونًا للحكام المماليك ضد الجماهير المغلوبة على أمرها ، ومنهم من ساهم في تخريب الأوقاف لصالح المماليك كالقاضي الحنفي يوسف الملطي الذي ولي القضاء سنة ٨٠٠هـ في عهد برقوق وقيل عنه : « أنه قَرَّبَ الفُساق ، واستكثر من استبدال الأوقاف »[٢] .

ومنهم من استولى على أموال الناس حتى أوقاف الحرمين الشريفين ،

---

(١) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ٣ ، ص ١٥٩ .

كالقاضي علم الدين البلقيني الشافعي ، الذي يروي ابن حجر عنه : « ولا وجدنا في حساب السنة التي باشرها أنه ورد للحرمين شيئًا إلا من جهة واحدة بمبلغ تافه أربعمائة درهم ولعله حصّل من الجهة المذكورة وحدها عشرة أضعافها ذهبًا »[١] .

وبلغ من الكلام عن خراب الأوقاف أن لاجين الجركسي ت ٨٠٤هـ ، وعد إذا ولي أمر الدولة أن يبطل الأوقاف – لما فيها من سرقات – وأن يحرق كتب الفقه ويعاقب الفقهاء[٢] ، فأعطى هؤلاء الفقهاء بسلوكهم مبرراً للمماليك ليبطشوا -أحياناً كثيرة- بهذه الفئة ويصور لنا الشاعر جمال الدين السلموني رأي الجماهير الشعبية في قلة من الفقهاء والقضاة الذين خربوا الأوقاف بعد خراب ذمتهم في قصيدة يهجو بها بعض متوليها ، ومما جاء فيها[٣] :

أجاز أموراً لا تحل بملة ... بحل وبرم مظهرا منكراتها

ألست ترى الأوقاف كيف تبدلت ... وكانت على تقديرها وثباتها

ولو أمكنته كعبة اللّه باعها ... وأبطل منها الحج مع عمراتها

فإن كان في الأوقاف ثَـمَّ بقية ... تكذبني فيما أقول فهاتها

وتحفظ لنا المصادر سجلات باهرة لكثير من العلماء العاملين الذين كتبوا صفحات مطولة من الكفاح مع فئات الشعب المختلفة ضد الحكام المماليك لعل من أبرزهم :

---

(١) ابن حجر ، رفع الإصر ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، قسم ٣ ، ص ١٠٩٠ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١١٣ .

١ - زين الدين أبو حفص عمر بن مسلم الكتاني الدمشقي الإمام المحدث الشافعي ت ٧٩٢هـ ، انتفع به خلق كثير من العوام ، فوضت إليه دار الحديث الأشرفية(*) ، كان شجاعًا كثير المساعدة لطلبة العلم ، يقول الحق على كل إنسان من غير مداراة في الحق ولا محاباة ، توفي معتقلاً بقلعة دمشق لوقوفه دائمًا ضد ظلم الأمراء المماليك ودفن بالقبيبات وحضر جنازته ما لا يُحصى كثرة(١) .

٢ - فتح الدين أبو بكر محمد بن إبراهيم الشافعي النابلسي الأصل الدمشقي المعروف بابن الشهيد ، اشتغل في العلوم وتفنن فيها ، وفاق أقرانه في النظم والنثر والكتابة ، ولي كتابة السر ومشيخة الشيوخ ، ودرّس بالناصرية(**) والظاهرية ، وكانت بينه وبين الأمير سيف الدين نائب الشام عداوة شديدة لأنه كثيراً ما كان يعزل ويصادر ويؤذي الأحرار من الفقهاء ، توفي قتيلاً بظاهر القاهرة سنة ٧٩٣ هـ بعد أن حمل إليها في عهد برقوق لأثره

(*) دار الحديث الاشرفية : جوار باب قلعة دمشق الشرقي غربي العصرونية ، وكانت دار الحديث الاشرفية دار للأمير صارم الدين قايماز بن عبدالله النجمي اشتراها الملك الأشرف موسى بن العادل وجعلها دارًا للحديث ٦٢٨ هـ ، ومن علمائها تقي الدين بن الصلاح شهاب الدين أبو شامة .

النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، جـ ١ ، ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

(١) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(**) الناصرية : نسبة إلى الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وهي تقع بدرب خلف قيسارية الصرف وكانت داره لما كان واليًا على دمشق ، ويشير محقق كتاب الدارس في تاريخ المدارس حاشية رقم (١) ص ١٧٨ أنها خربت ولم يبق لها أثر .

الدارس في تاريخ المدارس ، جـ ٢ ، ص ١٧٨ .

في العامة وقوة بيانه في تحريك الجماهير[١] .

٣ - شهاب الدين أحمد بن صالح البقاعي الدمشقي الشافعي ، أخذ عن ابن قاضي شهبة والأردبيلي ، وسمع الحديث عن البرزالي ، درّس بالشامية[*] والعدلية [**] وغيرهما ، وولي إفتاء دار العدل واستقل بالقضاء في ولاية منطاش، كان مهيبًا مقتصداً في معاشه ، كثير التلاوة ، انتهت إليه رئاسة الشافعية بدمشق، وكان حسنًا مهيبًا كأنما خُلِقَ للقضاء، دفن بمقبرة الصوفية ٧٩٥هـ[٢].

٤ - الشيخ الحافظ زين الدين عبدالرحمن الدمشقي الحنبلي ، الشهير بابن رجب ، كان لا يتردد على أحد من أصحاب الولايات عفيفًا ، يسكن في المدرسة العسكرية بالقصاعية واشتغل بسماع الحديث والفقه الحنبلي وصار أعرف أهل عصره بعلل الحديث ، وتوفي سنة ٧٩٥ هـ ، ودفن بالباب الصغير بجوار أرض الخميرية[٣] .

---

(١) ابن العماد ، شذرات الذهب ، جـ ٦ ، ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

(*) المدرسة الشامية : بانيها والدة الملك الصالح إسماعيل وهي الملكة ست الشام الخاتون الجليلة بنت أيوب بن شادي وهي تقع بمحلة العونيه . أول من درس بها تقي الدين بن الصلاح ثم شمس الدين الأعرض وكانت من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقهاء وأكثرها أوقافًا وهي باقية إلى الآن ورممتها مديرية الآثار .

الدارس في تاريخ المدارس ، جـ ١ ، ص ٢٧٧ .

(**) العدلية : تقع غربي دار الحديث الناصرية البرانية بسفح قاسيون ، دفن بها الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري وله عليها أوقاف دارة على وظائف من قراءة وآذان وإقامة . توفي سنة ٧٢١ هـ .

الدارس في تاريخ المدارس ، جـ ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٢) ابن العماد ، شذرات الذهب ، جـ٦ ، ، ص ٣٣٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤٠ .

٥ - شهاب الدين أبو العباس أحمد بن راشد الدمشقي الشافعي أقضى القضاة ، وكان أحد العلماء الأئمة المعتبرين ، اشتغل بالفقه والنحو والأصول . قال الزهري : ما في البلد من أخذ العلوم على وجهها غيره، ناب في القضاء، وناب في الشامية الجوانية ، وكان يميل إلى ابن تيمية كثيراً ، ويعتقد رجحان كثير من مسائله ، اشترك في الحرب ضد تيمور مع ضعف في بدنه ، ودفن بمقبرة الفراديس سنة ٨٠٣ هـ على حد رواية ابن قاضي شهبة[١] .

٦ - زين الدين عمر بن براق الدمشقي الحنبلي، كان محبًا لابن تيمية ، وكان له طلبة وأتباع . اشترك في الأحداث السياسية بدمشق ، وأُخذ ماله ، وأصيب في أهله وولده ، فصبر واحتسب حتى مات سنة ٨٠٣ هـ[٢] .

٧ - محي الدين أحمد بن إبراهيم ابن النماس الدمشقي الشافعي الإمام العلامة القدوة . صنف كتابًا في الجهاد وقال في فاتحة كتابه : « أحمدك اللهم، وأسألك أعلى رتب الشهادة » ، قتل بدمياط لمّا دهمها الفرنج في معركة معهم [*] ، مقبل غير مدبر ، وكأن اللّه استجاب لدعائه . وذلك في سنة ٨١٤هـ[٣] .

---

(١) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٢ .

(*) وهم الفرنج دميلط قادمين من جزيرة رودس بعد أن تحول الصراع بين المماليك والفرنجة إلى صراع بحري ودأب الفرسان الاسبتارية برودس على تهديد دولة المماليك وتجارتها في البحر ومهاجمة أهم موانيها في البحر .

د/سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ وما بعدها .

(٣) ابن العماد ، شذرات الذهب ، جـ ٧ ، ص ١٠٥ .

ثانيًا : دور العامة في الحياة السياسية بدمشق :

قام العامة بدور رئيسي في العمل السياسي في المدن المملوكية في مصر والشام ، ونقصد هنا بالعمل السياسي قيامهم بالانتفاضات الشعبية والمقاومة السياسية المسلحة للحصول على حقوقهم في المجتمع ، وكانوا يشكلون قوة ضاغطة على الحكومات ، ولم يكن للمماليك أية روابط أو علاقات قوية ومستمرة معهم اللهم إلا في النذر اليسير عندما يحتاجون إلى مشاركتهم ، بينما كانت فئات العلماء ومياسير التجار -وهم الطبقة الوسطى- إن صح إطلاق هذا المصطلح عليهم ، أقرب إلى العامة بل يجب علينا أن نؤكد على أنهم قادتهم السياسيون .

وكان يوجد تعاطف عام بين جموع العامة من مختلف المستويات من سكان دمشق ، فيتحد السوقة أو المتسببون[١] ، وصغار التجار من أصحاب الحوانيت وزعار دمشق للقيام بمظاهرات الاحتجاج الاقتصادي ضد المماليك بقصد إرباك الدولة وإغلاق الأسواق والحوانيت ، وكان ذلك احتجاجاً على فرض الضرائب الزائدة أو التلاعب بالعملة، أو فرض نظام التسعير على السلع، كما قام العلماء بالتضامن مع الجماهير وتوعيتهم باغلاق محالهم وأسواقهم احتجاجًا على المماليك عندما يسرقون المتاجر علانية ، أو يكثرون من حوادث الشغب في الأسواق ، وكان المماليك يقفون مكتوفي الأيدي أمام تلك الاضطرابات ولا يملكون وسيلة سياسية لإنهاء المظاهرات سوى التهديد بنهب المتاجر[٢] التي يصر أصحابها على إغلاقها .

---

(١) إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٤٩ ، ٢٧٠ .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

واتسم العمل السياسي الذي قام به العامة ضد المماليك بعدم التنظيم وعدم وضوح المقاصد والأهداف البعيدة ، إلا أنهم كانوا طاقة فعالة مؤثرة في الأحداث ، وبرز دور فئات الشعب عندما تطحنهم المشاكل كنقص الغذاء ، وارتفاع الأسعار ، وكانت الجماهيو تندفع عبر حارات المدينة وشوارعها بحثًا عن الغذاء . وفي ذلك العهد لم يكن لدى الجماهير من يتحدث باسمها وينقل مشاكلها إلى السلطان أو الوالي سوى طبقة العلماء ، فكانوا يجتمعون أمام مقر الحاكم أو كبار الموظفين مطالبين بعزل أحد المحتسبين أو المفتشين أو جباة الضرائب، وفي بعض الأحيان كان يُقتل بعض الموظفين أثناء الثورات العنيفة ، وهذا يدل على أن العامة اعتبروا هذا العنف السياسي هو أبسط تعبير للدفاع عن حياتهم ضد الجوع . وكانت هذه الأحداث رغم محدوديتها تمثل تهديداً مباشراً للسلطان نفسه ، حتى أن السلاطين والولاة – في زمن الاضطرابات – كانوا يخشون من عبور الطرقات والحارات المكتظة بالسكان[١] ، ولقد طالب العامّة من السلطان الظاهر برقوق في إحدى زياراته لدمشق بعد تجمعهم أمام مقره حيث طالبوه بعزل محتسب السوق الذي حملوه سبب المجاعة التي حدثت ٧٨٥ هـ ، كما هاجموا منزل سودون الوالي في دمشق سنة ٨٤٣هـ[٢] ، الذي يمثل أعلى قيادة مملوكية في المدينة ورموا منزله ومماليكه بالحجارة ، وكان المماليك غالبًا ما يلجئون إلى العلماء والقضاة لتهدئة العامة الذين كانوا سرعان ما يستجيبون لهم ، وأدرك العامة بحسهم السياسي خوف المماليك من كثرة أحداث الشغب في المدن بعد أن نظروا إليها على أنها ليست مجرد ثورات

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٣ .

(٢) ابن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، مارفين لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي ، ص ٢٢٦ ، دهمان ، ولاة دمشق ، ص ٣٥ .

من الغضب والقنوط بعد أن امتد أثرها إلى التهديد المباشر للسلطة المملوكية ، وإن استمرار هذا العنف الشعبي المتواصل يعقد الموقف في المدن أمام المماليك خاصة وأن بعض الوظائف كانت تُباع وتُشترى ، وأن كبار الأمراء كانوا هم سبب البلاء فلقد قاموا باحتكار السلع في المدن الكبرى في الشام ومصر مما أحرج موقفهم أمام السلاطين ، وهكذا شكلت أعمال الشغب دوراً مباشراً في الوضع السياسي في المدن ، حتى أن المماليك استغلوها في لعبة الصراع الدائمة بينهم ، ولم يسمح المماليك طوال فترة حكمهم لفئات العامة أن يكون لها تمثيل في تولي بعض الوظائف[١] التي لها اتصال مباشر بالجماهير مما جعل العصر كله موصوفًا بكثرة الانتفاضات السياسية من قبل العامة ضد الدولة ، ولقد تحولت طوائف العامة مع استمرار الظلم والقهر إلى القيام بالأعمال السياسية والمقاومة الشعبية فقاموا بضرب وخطف واغتيال بعض الولاة والموظفين ، فقد ألقى سكان دمشق القبض على أحد موظفي الإدارة المملوكية وقتلوه سنة ٨٦٨ هـ ، وتم إحراق منزل نائب السلطان بدمشق سنة ٨٩٣هـ[٢] ، وأعلنوا ثورة عارمة بدمشق عندما اعتقل أحد الفقهاء الذين هاجموا سياسة استيراد الخمور إلى دمشق ، وتبرز أهمية دور طوائف العامة في العمل السياسي بأن أحياء دمشق كانت تشكل مراكز للمقاومة المسلحة المنظمة ، ظهر ذلك واضحًا في أحياء الصالحية والشاغور وسوق جقمق وحي المسجد الأموي سنة ٨٨٦هـ . كما قام سكان الضواحي بحمل راية المقاومة الشعبية ضد المماليك تقليداً لإخوانهم

---

(١) سعيد عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٢١٤ .

(٢) إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٢ .

من سكان المدينة فقد قامت ضاحية المزة(*) والقابون(**)(١) سنة ٨٩٩هـ بالثورة على المماليك عندما قبضوا على أحد المشايخ وإن كان المماليك قد قضوا على الثورة ورجالها بقسوة وشراسة إذ قتلوا حوالي ٧٠ شخصًا ، ونهبوا بيوت القرية ، إلا أن طوائف العامة قد كلفت المماليك كثيراً من الضحايا ولقنتهم درسًا قاسيًا(٢) ، ولا يجب أن ننسى الدور الكبير الذي قام به العلماء - كما ذكرنا في المبحث الأول من هذ ا الفصل(***) - في دعم وتأييد تلك الأعمال السياسية المسلحة التي قام بها العامة للحصول على حقوقهم ، بل تولوا قيادتها في بعض الأحيان ، وأضفوا على تلك الأعمال السمة الشرعية لها .

ومن أهم طوائف العامة التي قامت بدور أساسي في المقاومة السياسية الشعبية ضد المماليك الجراكسة « طبقة الزعار »(٣) وأطلق عليهم أوباش العامة والأوغاد وغوغاء الحارات وكانوا يعملون بكثير من المهن والصناعات البسيطة وكثير منهم كان عاطلاً عن العمل ، وكان غالبيتهم يقطنون الأحياء السكنية خارج أسوار دمشق وفي القرى المجاورة لها في الشاغور والقبيبات وميدان الحصى ، والصالحية ، والجابية ، والمزابل ، وباب مصلى ، ومحلة جامع حسن ، والسويقة ، واحتفظت المصادر المملوكية بكثير من أسمائهم وألقابهم

(*) المزة : قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق وبينها وبين دمشق نصف فرسخ .
ياقوت ، المعجم ، جـ ٥ ، ص ١٢٢ .

(**) القابون : موضع بينه وبين دمشق ميل واحد في طريق القاصد إلى العراق في وسط البساتين.
المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٩٠ .

(١) نظير حسان سعداوي ، صور ومظالم من عصر المماليك ، ص ١٢٩ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، أحداث سنة ٨٩٩ هـ ، ص ٢٩٧ وما بعدها .

(***) ص ٢٩ وما بعدها .

(٣) إبراهيم طرخان ، دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٤٩ ، ٢٦٨ .

كابن الطباخ ، وأبي طليقة والجاموس وابن المبارك ، وابن المحجوب ، وهيمل وغيرهم[١] .

ونتيجة للتدهور الاقتصادي والظلم الاجتماعي والانحلال السياسي ، ازداد عدد العاطلين عن العمل وامتلأت أحياء دمشق بالفقراء والموعزين الذين يبحثون عن كسرة من الخبز فلا يجدون وامتلأت المدينة بالسخط ، وصار الزعار بحكم ميلهم إلى العنف زعماء وقادة للثوار فكانوا يهاجمون جند المماليك في الشوارع ، وقتلوا أكثر من ثلاثين مملوكًا في الصالحية عام ٩٠٢هـ[٢] على سبيل المثال ، وكان من بين القتلى قائد شرطة دمشق[٣] ، وكان أقصى ما يستطيع المماليك القيام به الاستنجاد بالعلماء - بعد اشتداد الخطر وعجزهم عن القضاء على الانتفاضات - لمفاوضة الثوار وتحقيق مطالبهم .

ومع استمرار العمل السياسي المسلح ضد المماليك وجد الزعار أن تحالفهم يشكل قوة كبرى ، للحصول على مطالبهم ، فلم تنشأ المقاومة في كل حي على حدة بل تجمعت عدة أحياء متجاورة للمطالبة بحقوقهم المالية والاجتماعية والسياسية ، ففي عام ٩٠٧هـ - ٩١٠هـ ، جمع زعيم حي الشاغور الرجال من القرى والأحياء الأخرى خارج الأسوار لشن معركة ضد المماليك ، وبذلك أثبت التضامن[٤] والتجمع أثره في المقاومة الشعبية ضد المماليك .

ولقد أدرك المماليك قوة الزعار في دمشق وحماسهم السياسي ورغبوا في

---

(١)

(٢) محمد أحمد دهمان ، جبل قاسيون ، ص ٣٥ ، سوفاجيه ، دمشق الشام ، ص ٦٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٤) الجوهري ، نزهة النفوس والأبدان ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ، ١٦٧ .

امتصاص هذه القوة وضمها إلى جانبهم ، فأدخلوهم في جيوشهم كقوات إضافية ضد أعدائهم في بلاد الشام من التركمان والبدو والمغول والأتراك ٨٩٠هـ ، وعمل المماليك على إسكاتهم بالمرتبات المجزية ، ولكنهم وجدوا كثيراً من الصعوبات في تحويلهم إلى قوات نظامية موالية لهم . كما استغلهم المماليك في النزاعات القائمة بينهم لتحقيق مكاسب سياسية حتى أن الأمير آقبردي أحد الثائرين على السلطنة سكن مع الزعار حي[١] القبيبات كما زودهم الأمير الثائر أركماس بالأسلحة في نزاعه مع السلطة الحاكمة عام ٩١١ هـ[٢] ، ومنحهم كثيراً من الأموال والمساعدات ليكونوا عونًا له في دمشق .

ولكن المماليك لم يحسبوا حسابًا لتغير ولاء الزعار ، إذ سرعان ما أحس المماليك بقوتهم وظهر خطرهم السياسي باشتراكهم في الفتن والإضطرابات الشعبية في دمشق فحاول المماليك الحد من خطورتهم بالقبض على زعمائهم وإعدامهم ، ونزع سلاحهم ، وتوزيع تكتلاتهم على أحياء دمشق ، بعد أن أدرك المماليك أنهم تسرعوا بضمهم إلى قواتهم المسلحة وظهر خطرهم الأكبر بمقاومة قوانين الدولة وسلطتها فصاروا يعارضون أي ضرائب تفرضها الدولة ، كما قاموا باغتيال كثير من الأمراء المماليك . وكانت الحكومة المملوكية في كثير من الأحيان تعجز عن القضاء عليهم فكانت تسمح لهم بالقيام بأعمال السلب والنهب وقطع الطرق ، وبذلك تحولت حركات الزعار بفعل السياسة المملوكية إلى أداة قمع لسكان دمشق بعد أن كانت من دعائم الانتفاضات الثورية ضد الحكومة[٣] .

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ١٨٤ ؛ مدن الشام في العصر المملوكي ، ص٢٨٥ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٤٤ .

(٣) نظير حسان سعداوي ، صور ومظالم من عصر المماليك ، ص ١٢٥ .

كما حاول المماليك القضاء على التطلعات السياسية للعامة في دمشق فعملوا على امتصاص قوتهم وتحويلها إلى روافد أخرى فعملوا على إنشاء تنظيمات عسكرية تكونت من أصحاب المتاجر والسوقة والطلاب والمشايخ وأرباب الحرف والصناعات ودربوهم على استعمال القوس والنشاب واستخدام الرمح والسيف ، وطلبوا مساعدة عرفاء الأسواق ومشايخ الحرف والصناعات في تسجيل أعداد المتطوعين ، وكانت خطة المماليك لهما وجهان أحدهما صرف العامة عن الأنشطة السياسية في الداخل ، والآخر مشاركة القوات الشعبية في الدفاع عن دمشق عند حدوث أي أخطار خارجية ، وقد كان لتلك التجربة العسكرية وجهها المفيد ، فكثيراً ما شاركت القوات الشعبية في الدفاع عن دمشق وغيرها من المدن الشامية ضد هجمات الصليبيين والمغول المتكررة على بلاد الشام .

وقام العلماء من جانبهم بإثارة حماس الجماهير في الجهاد للدفاع عن مدنهم ضد الغزو الخارجي والاشتراك في الحملات الخارجية التي حدثت خارج حدود الشام فاشترك أهل دمشق في الحملات التي قامت في القرن التاسع الهجري ضد قبرص(*) ورودس(١) بعد أن ألهبوا حماس الجماهير وانضم إليهم

(*) اشترك أهل دمشق في الحملات العسكرية البحرية في عهد برسباي ضد قبرص في السنوات ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ هـ ، وتم اخضاع الجزيرة في الحملة الأخيرة وأسر ملك قبرص جانوس ، وكما اشترك أهل دمشق في الحملات العسكرية في عهد جقمق ٨٤٤ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ هـ .
سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصيبية ص ٨٤ وما بعدها ، سعيد عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ١٦٩ .

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٤٧ ؛ زيادة ، المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ص١٩٥ .

المتصوفة والمشايخ وطلاب العلم والفقهاء .

ومع هذه القوة العسكرية الجديدة للعامة في دمشق وغيرها من المدن الشامية . لم تفطن الجماهير إلى استغلال هذه القوة وتطويرها لصالح الشعب ضد المماليك ، وبذلك استفاد المماليك من نجاحهم في تجنيد العامة ومعالجتهم لتمويل هذه الطاقة العسكرية لصالح دولتهم ، ويبدو أن ذلك كان راجعًا لعدم وضوح الرؤية السياسية في العصور الوسطى لدى العامة ، وإن كانت الفائدة الكبرى التي استفادت منها الجماهير انها استطاعت في أوقات المحن أن تدافع عن نفسها ومع ذلك يجب ألا نظلم جماهير العامة في ذلك الوقت ونتهمهم بعدم وضوح الرؤية السياسية كليًا ، فلقد أدركوا بحكم ممارساتهم مع المماليك ان حكم الجراكسة لهم اتسم بالتدهور الاقتصادي في الزراعة[1] والتجارة وفساد النظم المالية وغش العملة والضرائب المجحفة ، وأن دولتهم مصيرها الزوال .

وهكذا برزت أهمية دور طوائف العامة في العمل السياسي في عصر دولة المماليك الجراكسة وأصبحوا قوة يخشاها المماليك ، واستطاعوا أن ينتزعوا بالعمل الشعبي المسلح بعض الامتيازات والتنازلات وتخفيف بعض القوانين الجائرة .

---

(١) بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣١ ، ٣٢ ؛ إغاثة الأمة ، ص ٤١ ، ٤٧ .

ثالثاً : وضع أهل الذمة في دمشق ، ودورهم السياسي في المجتمع وعلاقاتهم بالطبقات الأخرى :

نستطيع أن نؤكد أن أهل الذمة(*) عاشوا في دمشق وغيرها مواطنين عاملين في المجتمع - في أغلب فترات العصر المملوكي - اللهم إلا في مدة حكم بعض السلاطين المتعصبين(**) أو بعض عهود الفتن والاضطرابات ولا غرو في ذلك ، فالاسلام ليس دين طبقية بل إنه دين يدعو أتباعه لقيام المجتمع السليم الذي تنصهر فيه كل العناصر الاجتماعية على اختلاف ألوانها وأجناسها وثقافتها في مجتمع واحد وإتاحة الفرصة لأهل الذمة على ممارسة حرية العبادة والعيش بسلام .

واعتمد المماليك على أهل الذمة في بعض الوظائف الإدارية والمالية لكفاءتهم في العمل واصطنعوا منهم الكتّاب والمشرفين[١] ، بل عينوا بعضهم في الأعمال التجارية الخاصة بالسلاطين والأمراء ، كما كان منهم المتعاطين

(*) الذمة في اللغة : العهد والأمان والضمان . وأهل الذمة : هم المستوطنون في بلاد الاسلام من غير المسلمين وأكثرهم من اليهود ، والنصارى ، وقد دعاهم القرآن الكريم « أهل الكتاب » .
أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، جـ ٤، ص ١٠٣ .

(**) كان بعض سلاطين المماليك يتعصب ضد أهل الذمة في العصر المملوكي خاصة إذا أظهر المسيحيون واليهود فرحهم بانتصار الفرنجة على المسلمين في البر أو البحر ، أو في عهد الفتن والاضطرابات ومن أشهرهم الاشرف برسباي ، إينال ، جقمق ويلباي الملقب بالمجنون .
انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٨١ ، ١٩٨ ، ٣٦٩ ، ٤٥٨ ومواضع أخرى متفرقة .

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٨٦ .

للطبابة وصناع الأدوية واشتهروا بمهن نبغوا فيها كالصيرفة والسمسرة والتجارة وصناعة المشغولات الذهبية والفضية وقلائد الجوهر ، وبرعوا في صناعة المنسوجات خاصة الحرير ، كما عملوا باحتكار تجارة الأصباغ ، كما عملوا بعصر الخمور والمتاجرة بها ، كما اتصل كثير من اليهود بالسلاطين نظراً لمهارتهم في صقل المجوهرات وتزيينها والمتاجرة فيها ، وشهدت بداية العصر الجركسي إسلام الكثير من الذميين وأقبلوا على الإسلام وتلاوة القرآن ، ولكن يبدو أن فئات الشعب الأخرى لم يطمئنوا إليهم أو يثقوا بإيمانهم وربما ظنوا انهم اعتنقوا الاسلام لكي يتمكنوا من الحصول على الوظائف والامتيازات الاجتماعية ، ومع ذلك فلقد اعتنقت أسر مسيحية بكاملها الاسلام واختلطوا بالمسلمين وعاشوا بين ظهرانيهم أمة واحدة في مدينة واحدة ، دينهم الاسلام وقبلتهم واحدة[١] .

وكانت للمسيحيين واليهود كنائسهم ومعابدهم في الغوطة ، كما وجدت بعض الأديرة لهم أيضًا ، ولكن المراسيم السلطانية كانت تصدر محرمة على المسيحيين واليهود القيام بأي إصلاح أو ترميم في كنائسهم أو بيعهم أو أديرتهم إلا بأذن خاص ، وكان من عادة المماليك معاقبة كل من يخالف ذلك حتى ولو كان من القساوسة[٢] ، وفي أوقات المحن والفتن كانت الأوامر السلطانية تصدر بأن يلبس النصارى العمائم الزرقاء واليهود العمائم الصفراء ، وارتداء الزنانير ، وحرم عليهم ركوب الخيل والبغال ، أما من يركب منهم حماره فيركبه مقلوبًا ، وألا يدخل نصراني حمامًا إلا وفي عنقه جرس ، وألا

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٠٠ ؛ ساويرس ، سير الآباء البطاركة ، ص ١٩٤ .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ .

يلبسوا ملابس المسلمين ، وألا يستعمل الأمراء كُتّابًا من أهل الذمة ، وطرد من كان منهم في الوظائف العامة وكتب بذلك إلى سائر الجهات .

ولم تكن العلاقة بين اليهود والنصارى ودية على الدوام ، بل كان اليهود في بعض الفترات يقومون بالتجسس على النصارى لمصلحة المسلمين ، بل يمكننا القول أن اليهود كانوا يكرهون النصارى سواء في مصر والشام ، وكان النصارى يبادلونهم نفس المشاعر ويحملون - في زعمهم - يهوذا الاسخريوطي اليهودي تبعة صلب المسيح ، ولكن ذلك لم يمنع وقوفهم إلى جانب بعضهم البعض في زمن الاضطهادات ، فكان اليهود يمنحون المسيحيين عمائمهم الصفراء في زمن اضطهاد المسيحيين ليستطيعوا عبور الطرقات أمنين من وثوب العامة عليهم ، وكان المسلمون يكرهون اليهود لغدرهم وخيانتهم وحبهم للربا .

ومن الأمثلة التي شاعت في الشام عن اليهود منذ العصر الفاطمي واستمرت طوال العصر المملوكي قولهم : « اليهودي لا يعطي الجزية حتى يُلطم »[1] ، ويقال أنه كان ثمة مسلم راكبًا مع يهودي فسأله المسلم ما يفعل ؟ فقال : انه يمشي حيث يكون ظل دابة المسلم واقيًا لرأسه على الدوام . والمعنى واضح في هذا القول ، فأنه يدل على المكر والخديعة حتى وإن كان فيه كثير من المبالغة .

وكان المسيحيون في دمشق يحتفلون بأعيادهم النصرانية كعيد القيامة ،

---

(١) أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

وعيد الميلاد ، وخميس الأرز[١] ، وعيد التعميد ، ويعملون على تزيين الكنائس والخروج في بعض المواكب وحمل سعف النخيل أمام مواكبهم ، وجرت عادة النصارى أن يتهادوا في هذه الأعياد فيما بينهم وبين بعضهم ، وكانوا يتهادون بالسمك والبيض ، ويخرج القساوسة والشمامسة بالمجامر والبخور في الاحتفالات وأمامهم الصلبان والأناجيل ، وكانوا يقومون بغمس أطفالهم في نهر بردى في عيد التعميد ، وكان اليهود في عيد الحنطة يوقدون على كل باب من أبواب دورهم سراجًا[٢] .

ولما كان أهل الذمة جزءاً من نسيج المجتمع في دمشق ، فلقد شاركوا العامة في بعض مطالبهم السياسية لتحسين أوضاعهم - ولكن بحذر - إذ سرعان ما تنقلب عليهم الدولة بعد هدوء الأحوال وتسمح للرعاع والغوغاء بنهب ممتلكاتهم[٣] .

ونستطيع أن نشير إلى أن الوضع المالي والاجتماعي لأهل الذمة كان أحسن حالاً من غيرهم من فئات المجتمع - ما عدا العلماء ومياسير التجار - لأن منطق الأقلية كان يتحكم في أوضاعهم وكانت كنائسهم وبيعهم ترعاهم اجتماعيًا وتوفر لهم سبل العيش ، وتساعدهم علاوة على مهارتهم في بعض الصناعات وتقلدهم لكثير من الوظائف متظاهرين بالأمانة والصدق ، كما أن الآباء الكنسيون والبطاركة يتولون نيابة عنهم مختلف الشئون السياسية والدينية .

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٦٦ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٣٨ .

(٣) سوفاجيه ، دمشق الشام ، ص ١٥ .

ولا توفر لنا مصادر العصر المملوكي معلومات وفيرة عن مدى اشتراك أهل الذمة في الانتفاضات الشعبية ، ولم تشر حتى إلى بعض الأسماء أو الجماعات منهم في هذا المجال .

ويبقى أن نقول انهم عاشوا على هامش الدور السياسي لفئات العامة الذين انخرطوا بكثافة في أحداث المدن الشامية في العصر المملوكي .

الفصل الرابع

الحركات الشعبية في دمشق

ويشتمل على المباحث الآتية

(١) الإجراءات المملوكية التي أدت إلى قيام الحركات الشعبية .

(٢) موقف العلماء من الحركات ونتائجها.

(٣) موقف العامة من الصراع بين الأمراء المماليك وتحقيق مكاسب سياسية .

أولاً: الاجراءات المملوكية التي أدت إلى قيام الحركات الشعبية:

كان استيلاء المماليك الجراكسة على السلطة عام ٧٨٤ هـ بداية لعهد طويل من القلاقل السياسية والاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية وسادت الفوضى بين أمراء المماليك ، وشاع بينهم حب الاقتتال على السلطة ، وشهدت بلاد الشام في أول عهد هذه الدولة كثيراً من حوادث العنف والقتال بين أنصار برقوق وأعدائه وسببت كل هذه الأحداث كثيراً من الأضرار للتجارة والصناعة والزراعة وعلى سبيل المثال ، فإن إقتتال المماليك في أحياء دمشق عام ٧٩١ هـ قد أحرق الأحياء الواقعة حول القلعة والجامع الأموي ومناطق باب الجابية وباب السلام وباب الشاغور وقصر حجاج وباب المصلى والعتبيبات وأسواق الحدادين والتجار وصناع الأكسية [١] ، حتى أن أحد المؤرخين[٢] قد اعتبر الدمار الذي حدث آنذاك قد تجاوز الأثر الذي أحدثه احتلال تيمورلنك لمدينة دمشق وتدميرها سنة ٨٠٣ هـ .

ولعل من أهم الأسباب التي أدت إلى قيام الثورات الشعبية عوامل عدة منها أن المماليك لم يقوموا باتخاذ أي إجراء فعّال لمنع تخريب البدو والتركمان للمناطق الزراعية حول دمشق فقام البدو بمهاجمة القرى وطرق المواصلات وأوقفوا شحنات نقل الحبوب كما نهب التركمان في شمال سوريا والأناضول القرى الزراعية الصغيرة[٣] .

ثانيًا : انتشار الرشوة ، ولعل من أعجب النظم الحكومية في أمة من

---

(١) نظير حسان سعداوي : صور ومظالم من عصر المماليك ، ٣٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١١ ص ١٩٥ ، جـ١٢ ص ١٩٤ .

(٣) د/سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ١٤٥/١٤٧ .

الأمم ومجتمع من المجتمعات أن المماليك أقروا مبدأ الرشوة ، وأنشأوا لها ديوانًا خاصًا يعرف بديوان البرطيل أو البذل منذ عام ٦٩٩ هـ في عهد الملك الناصر محمد ثم ازدادت هذه الظاهرة الاجتماعية خطورة منذ عهد الملك الصالح إسماعيل بن الناصر بن قلاوون ، واستشرى خطر الرشوة في عهد المماليك الجراكسة[١] ، وتجاهر الناس في عهد برقوق أول سلاطين هذه الدولة بالبراطيل فلا يكاد يلي أحد وظيفة إلا بمال ، فأفسد ذلك كثيراً من أحوال المملكة ، حتى أن نيابة دمشق وكثيراً من النيابات الشامية لا يتولاها إلا من يدفع رشوة محددة ، بل أصبحت القاعدة المرعية في التوظيف والترقي السفالة[٢] والرشوة ، وجعله المماليك أمراً مقننًا مشروعًا ، وخير مثال على ذلك أن الأمير يلباي الإينالي اشترى نيابة صفد ٨٩٢ هـ ، بعشرين ألف دينار فضلاً عن الوظائف الأخرى التي جمعها وتولاها بالمال في وقت واحد وعددها أربع هن : دوادارية السلطان بدمشق ، ووظيفة ناظر الجيش ، ووظيفة عداد الغنم ، ووظيفة النظر على وقف الأشرف قايتباي بالشام ، بل ان ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية كالقضاء والحسبة والوزارة ونيابة الأقاليم وسائر الأعمال كانت تتم أيضًا بالرشوة[٣] ، ومن أعجب الأمور ما حدث من القاضي رضي الدين الغزي عندما رغب في تولي نيابة القضاء بدمشق أنه اتفق مع قاضي القضاة قطب الدين الخيضري على دفع تسعمائة دينار من الذهب ، دفع مبلغًا وكتب الباقي عليه بإيصال موثق فهل هناك فساد أشنع من أن يلي هذه الوظيفة مرتش تسجل رشوته بعقد وحجة . ويروي

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١١ ص ٢٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٨٦ .

(٣) محمد دهمان : ولاة دمشق ، ص ٣٧/٢٤ .

ابن طولون الدمشقي[١] ان قاضي دير زيتون الشافعي أرسل رشوة إلى نائب دمشق المملوك[*] سنة ٩٠٤ هـ ، عبارة عن كميات وافرة من قراصيا -برقوق مجفف- وسكر وتحف سنية تحملها عدة بغال .

وكان ذلك أصل الفساد ، وتردي الأحوال على حد قول المقريزي : « إذ تخطى بالرشوة كل جاهل ومفسد وظالم وباغ وصار يقرر على حواشيه وأعوانه ضرائب فيمدون هم أيضًا أيديهم إلى أموال الرعايا »[٢] .

ومن الأمراض الاجتماعية التي عانت منها دمشق وكانت من أسباب قيام الثورات - أيضاً - انتشار شهادة الزور وتلفيق التهم للناس والقائهم في غياهب السجون فقد مارس المماليك وأرباب الوظائف هذه الأفعال الشنعاء ليحصلوا من الناس - ظلمًا - على كل ما يريدونه[٣] منهم ومن يعترض أو يقاوم تدبر له المحاكم المشبوهة ، وشهداء الزور ، ويتم توقيع أقصى العقوبة عليه وتصادر أمواله ومن أقبح الأمور ان بعض القضاة من ضعاف النفوس كان يشارك أرباب المناصب في ذلك ، فكان من السهل تلفيق تهمة الزندقة لأي إنسان وهي تهمة خطيرة[٤] ، عقوبتها الموت كما حدث لرجل يدعى منصور عندما تحامل عليه بعض أرباب السلطان خشقدم سنة ٨٧٠ هـ [٥].

---

(١) مفاكهة الخلان ، ص ٣١٠ ، ٤٣١ .

(*) أنعم السلطان على كرتباي الأحمر ٩٠٤ هـ بنيابة دمشق عوضًا عن قانصوه اليحياوي .
ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٣٨١ .

(٢) إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٤٣ .

(٣) صور ومظالم من عصر المماليك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

(٤) المقريزي : السلوك ، جـ١ قسم ٢ ص ٢١ .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٧٨ وما بعدها .

ونتيجة لإنتشار ظاهرة الكذب وشهادة الزور كان بعض السلاطين يعاقب من يرتكب تلك الفعلة بالتشهير والتجريس ، فإذا كان الكاذب أو شاهد الزور قاضيًا نودي عليه (هذا جزاء من يزور المحاضر) أو يلصق بظهره شهادة مزورة ويطاف به وهو محسور الرأس .

وفي دمشق قبض على قاضي المالكية الشيخ علي شمس الدين بن الطولقي سنة ٨٩٩ هـ، وسيق معاقبًا إلى القاهرة بعمامة صغيرة مصفر الوجه، وقدامه جماعة ، وخلفه مماليك وبجانبه فارسان ماشيان عن يمينه وشماله[١] لأنه كان متهمًا بأحدى التهم المعاقب عليها بالتجريس .

ومن الأسباب التي أدت إلى تذمر الناس والقيام بالثورات ضد حكم المماليك ، ما عاناه الناس في الشام ومصر من أهوال العقوبات التي أقرها زبانية العصر المملوكي لمعاقبة كل من تسول له نفسه بالثورة على قوانين المجتمع أو المطالبة بالحقوق أو الحريات ، فتعددت السجون واختصاصاتها فمنها سجون لأرباب الجرائم الصغيرة ، وسجن لأصحاب الجرائم الكبيرة وسجون خاصة بالموظفين والإداريين[٢] .

واتخذت العقوبات صوراً وأشكالاً بالغة القسوة والعنف كالتوسيط[*] بالسيف نصفين ، والإجلاس على الخازوق وقطع الأرجل والأيدي واللسان ،

---

(١) د/ نظير حسان سعداوي : صور ومظالم من عصر المماليك ، ص ٣٢ .

(٢) الكواكب السائرة ، جـ١٢ ص ١٣٤/١٤٥ .

(*) التوسيط : عقوبة تقضي بضرب المحكوم عليه بواسطة السياف على أن تكون الضربة تحت السرة ، فتقسم الجسم نصفين من وسطه وتنهار أمعاء المحكوم عليه على الأرض .

سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، معجم المصطلحات ، حرف التاء .

كما وقع لقتلة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، إذ قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وأيديهم معلقة في أعناقهم[١] ومنها كحل[*] العينين وخلعهما ، والصلب والحرق والاغراق في بردى ، والتسمير[**] في الخشب على عجلة تدور بالجاني ، والسلخ والعصر بالمعصرة ومن العقوبات الشديدة ، نعل الرجل في قدميه بالحديد كما يفعل بالخيل ، ومنها تعليقه بيديه ، وربط أثقال في قدميه حتى تنخلع أعضاؤه ويموت[٢] ، ومنها تسعيط المذنب بالماء والملح والخل وبالجير والضرب بالمقرعة ، أو السوط أو العصا على الرأس والقدمين ، ولقد ضرب وكيل بيت المال برهان الدين النابلسي سنة ٨٨٢ هـ نحواً من الفين وستمائة سوطًا ، وقلعت أضراسه ، ودقت في رأسه كي يستخلص منه الأموال المخبأة وظل يعذب حتى مات[٣] ، ومنها إلباس المذنب خوذة حديد محمية بالنار كي يجبر على الاعتراف بذنبه ومنها الشوي بالنار والدفن في التراب والمذنب حيًا[٤] ، وكان جزءاً كبيراً من هذه العقوبات القاسية من نصيب من يخرج على أوامر السلطان أو النواب أو

---

(١) المقريزي : السلوك ، جـ١ ص ٧٧٢ .

(*) لما قام الأمير طاز بالفتن ضد صرغتمش قبض على طاز ، وكان أميرًا على حلب فكحل وسملت عيناه .

(**) في ذي القعدة سنة ٧٩٠ هـ رسم السلطان بالقبض على الأمراء البطالين بالديار الشامية وسجنهم ، ورسم بالقبض على جماعة في دمشق فقبض عليهم وسمروا ووسطوا .
محمد دهمان : ولاة دمشق في عهد المماليك ، ص ٢٥٠ .

(٢) المقريزي : السلوك ، جـ١ ، قسم ١ ، ص ٥٠٥ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٧٣ .

(٤) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١١٦ .

يعتدي على أحد المماليك أو يتأخر في تسديد ما عليه من مكوس أو يشتم أحد الأمراء أو أرباب الوظائف(١) .

ومن الأسباب المباشرة للثورات كثرة الغلاء والقحط وشح الأقوات نتيجة للمجاعات والأوبئة التي عمت بلاد الشام لعدم سقوط(*) الأمطار أو تعرض المزروعات للآفات أو الرياح أو الجراد وكان في وسع السلطة المملوكية أن تخفف من وقع هذه الكوارث الفتاكة ، إذ هيئت القمح المخزون لمثل هذه الأيام ، أو استوردت الحبوب والأطعمة من البلاد المجاورة أو البعيدة ، أو الضرب على أيدي المحتكرين من التجار ، فمثل هذه التدابير تسهل على الناس أمور حياتهم وترد عنهم أسباب الحاجة والفقر ، ولكن دولة المماليك لم يكن يعنيها عامة الناس ما دامت قصورها عامرة ، بأطايب الطعام والشراب ، وكان الأمراء والنواب تجاراً يعشقون الثروات واحتكار الأقوات . فمما يدعو إلى الأسف احتكار السلطان برسباي لصناعة السكر وتجارته وعدم التخفيف من قيود الاحتكار سنة ٨٣٣ هـ حتى مع انتشار(٢) مرض الطاعون مع علمه بفائدة السكر كعلاج آنذاك .

ومن العوامل التي أدت إلى نشوب الثورات ضد السلطة المملوكية والتي فطن إليها المقريزي - التلاعب في أوزان النقد - فلقد قام حكام الدولة

---

(١) ابن تغرى بردى ، جـ ١٢ ، ص ٣٥/٢٤ .

(*) أقصى ما كان يفعله بعض السلاطين عند شح المياه هو الاستسقاء . فاستسقى المؤيد شيخ في طاعون ٨٢٨/٨١٨هـ ، واستسقى جقمق عام ٨٥٣ هـ ، وكان الواجب أن يقوما بحفر بعض الآبار ليشرب الناس ، كما كان من الواجب على السلاطين أن يقوموا ببناء الخزانات والصهاريج والعناية ببناء القناطر والسدود لحجز المياه وعدم ضياعها في البحر .
المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٩٥ .

(٢) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٥٤ .

المملوكية بضرب الفلوس بكثرة بالغة من ناحية وتلاعبوا بكمية المعدن فيه من ناحية أخرى ، فكان المماليك كثيراً ما يستبدلون المعدن الثمين بمعدن رخيص ويعطى قيمة اسمية تعلو قيمته التجارية كثيراً [١].

وبالغ المماليك في الغش في العملة حتى أصبح الدرهم يساوي[*] ٢٤ فلسًا بدلاً من ٤٨ فلسًا ، فاضطربت أحوال الناس وثقل عليهم الأمر ، وفقد كل إنسان نصف ثروته بقرار ظالم ، حتى أنه في عهد كتبغا ووزيره فخر الدين توالى انهيار قيمة النقد حتى أصبح النقد يوزن ولا يعد ، وهذه أول مرة يخسر النقد فيها صفة العد ليصبح محلاً للوزن ، وعانى الناس من التضخم النقدي [**] فارتفعت أسعار البضائع والسلع وعاش الناس في بؤس وشقاء خاصة الطبقات الفقيرة من أصحاب الفلاحة والحرث وطبقة الفقهاء وطلاب العلم وصغار الموظفين واجناد الحلقة وأصحاب البضائع وأرباب المهن البسيطة من الأجراء والحمالين والخدم والسواس[***] والفعلة[****] ، أما المساكين وأهل

---

(١) المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ، ف ، المقدمة .

(*) أجبرت كميات النحاس المتداولة الفضة على الاختفاء من التداول وتوقف استعمال الفضة نهائيًا عام ١٤٠٠ م .

الخطيب : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، جـ ٢ ص ١٢٥ .

(**) التضخم النقدي : تعبير اقتصادي حديث يقصد به إصدار الدولة لأوراق نقدية ذات قيمة اعتبارية وليس لها رصيد من الذهب أو غيره من القيمة مما اصطلح عليه في عالم الاقتصاد .

(***) السواس : مفردها سائس وهم سائقو الحمير والبغال التي تقوم بتوصيل الناس في أنحاء المدينة أو نقل الماء بالقِرَب إلى البيوت .

(****) هم الصناع الذين يشتغلون بحرفة العمارة كالحفارون والبناؤون ، والمرخمون ، والمبلطون . المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٣ وما بعدها .

الخصاصة الذين لا يملكون شيئاً فقد فني معظمهم جوعًا وبـرداً .[١]

ومما زاد الأمر سوءاً كثرة اعتداءات المماليك على الناس خلال إعداد الحملات الحربية فكانوا يبيحون لأنفسهم اغتصاب كل شيء حتى أموال الأوقاف والتجار وكانوا يستولون حتى على دواب الحمل والدواب المستخدمة في الطواحين ، حتى أن السلطان برقوق عقد سنة ٧٨٦ هـ مجلسًا ليحصل على فتوى من القضاة والفقهاء لمصادرة الأموال الموقوفة للجوامع والمدارس عندما أخذ يستعد لمنازلة تيمورلنك[٢] .

ومن أسباب قيام الثورات في دمشق وغيرها من مدن الشام تنوع المكوس وشدة وطأتها والتفنن في تعذيب الناس لجمعها ، ومن العجيب ان الذين فرضوها كانوا مؤمنين بأنها مظالم بدليل أنهم كانوا يقومون بإلغائها في أوقات الأزمات تقربًا إلى الله ثم إلى الناس[٣] ، وكانت هذه المظالم التي عانت منها بلاد الشام وهذا البؤس والحرمان والغلاء الذي طحن الناس والآفات الإجتماعية من أوبئة ومجاعات وأمراض . كل ذلك كان وقوداً لكثير من الانتفاضات التي قام بها سكان المدن المملوكية ، وكان دور النيابات الشامية في الثورة على المماليك يفوق دور نظرائهم في مصر ، وذلك راجع إلى بعدها عن مركز السلطنة ، ولذا جاءت ثورات المدن الشامية عامة ودمشق بصفة خاصة ثورات حاسمة أقضت مضاجع المماليك ، وهددت وجودهم السياسي في مصر والشام .

---

(١) المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٣ ، المقدمة .

(٢) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٥٨ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٣١ .

ثانيًا : موقف العلماء من الحركات ونتائجه :

كان العلماء في دمشق وغيرها من المدن في المجتمع المملوكي يشكلون الطبقة المثقفة في العلوم الدينية واللغوية والأدبية والعلمية وغيرها ، كما تولوا وظائف ذات مكانة اجتماعية رفيعة كالقضاء والإمامة والفتيا والتدريس ، وكان واجبهم الأساسي تطبيق شرع الله وتعليم الناس كل ما يصلح دينهم ودنياهم [١] .

كما كان العلماء باختلاف تخصصاتهم هم النخبة المثقفة بين عناصر أمة انتشر فيها الجهل لأسباب كثيرة[*] فكانوا هم القادة والإداريون والدينيون ، ولم تكن طبقة العلماء منعزلة عن مجتمعها متعالية عالية ، بل كانت مندمجة فيه، معبرة عنه ، كثيرة الروابط بباقي عناصر المجتمع ، وكان بعضهم لا يتقاضى أجراً من الدولة على عمله بالمدارس أو المساجد أو الأوقاف بل كان يتكسب من تجارة له يرعاها ويعيش منها حتى لا يصبح مقيداً بقيود الوظيفة أو خاضعًا لراتب يتقاضاه من السلطة ، بل كان يعتبر العمل العام حسبة لله .وحتى المماليك الذين كانوا يشكلون طبقة مترفعة عن سائر الطبقات بل لقد انفصلوا عنها بسبب نظرتهم للمجتمع من ناحية ، واختلافهم عنه في الجنس واللغة من ناحية أخرى ، وإحساسهم بأنهم غرباء عن هذه المجتمعات تمس أصولهم العبودية والرق كانوا يتقربون إلى العلماء ويأنسون بهم ، حتى يسبغوا على حكمهم شرعية وعلى أصولهم المجهولة نسبًا معروفًا يرتبط بأحد العلماء بعد أن تزوجوا بناتهم ، كما اتصل العامة بالعلماء عن طريق المشاركة

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية ، جـ٤ ص ١٢١/١٢٣.

(*) لعل من أهم هذه الأسباب انتشار الفقر وحاجة الناس الملحة إلى العمل لاكتساب أقواتها .

في الحرف المختلفة إذ يشير بعض كتاب التراجم إلى أن كثيراً من عمال البناء والحجارين والنجارين والنحاسين وصناع الصابون والأبازيج[*] والأسرجة والأقواس والنساج والحدادين وصناع الحبال والخبازون والخياطون كانت لغالبيتهم اهتمام بالفقه والحديث وكانت لهم صلات وطيدة تربطهم بالعلماء في مجالس الدرس والتحصيل في المدارس والمساجد والزوايا والخنقاوات[١] ، حتى الرعاع وأوباش الناس الذين أطلق عليهم كتاب التراجم الزعر أو الزعار أو المناسر ، اختلطوا بالفقهاء والعلماء ، واتصلوا بهم وتكفل المتصوفة والدراويش والمنشدون بأن يكونوا واسطة بين العلماء وبين الزعار من العامة[٢] .

ونتج عن هذا التقارب الاجتماعي أن أصبح لكل عالم أو فقيه طلابًا ومريدين ومعجبين يتحركون حول الشيخ أو الأستاذ ، وكان لبعضهم سلطة قانونية على تلك الجماعات فلا تلجأ لمحكمة أو قانون وتنفذ كل ما يراه الشيخ بدون مجادلة ، بل كان لأعضاء كل مذهب ديني شبه تنظيم اجتماعي ديني يسيطر عليه أكبرهم سنًا وعلمًا ويتولى شئونهم ، بل كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاصد يمثل مجموعته ويتولى تنفيذ أحكامها .

وتظهر لنا الأحداث المتفرقة في العصر المملوكي تضامن العلماء مع العامة في أحداث المجتمع السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية فكان العلماء هم الطبقة التي تدافع عن الشعب وتحمي حقوقه أمام سلطان

(*) الأبازيج : الأشربة .

(١) الكواكب السائرة ، مصدر سبق ذكره ، جـ١٢ ، ص ٣٥/٢٤ .

(٢) الشعراني : لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار ، جـ٢ ص ٣٤ .

المماليك القاهر ، وكان العالم يجهر برأيه أمام السلطات وهو يعلم تمام العلم أن وراء ه قاعدة عريضة من الشعب تحميه وتؤيده وتدافع عنه - كما سبق بيانه - .

وبهذه المكانة الاجتماعية استطاع العلماء أن يقودوا سكان المدن في الدولة المملوكية من بداية تكوين الدولة غير مبالين بالعواقب ، مجاهرين بالرأي والمعارضة السافرة في وجه الباغي ، ساعدهم على ذلك تمتعهم بالشرف ونظافة اليد ، وكراهية الدنيا وحب الآخرة ، وعشق الحق ، اللهم إلا بعض العلماء ممن فقدوا الشجاعة والجرأة عن قول الحق وكانوا أذنابًا وأتباعًا للحاكم وأعوانه . وهذه الطغمة موجودة في كل زمان ومكان . ومن أمثلة هؤلاء العلماء المستقلين في بداية العصر المملوكي ما حدث من شمس الدين بن عطاء الأذرعي الدمشقي الذي اعترض على السلطان بيبرس ٦٧٣/هـ ، حين أراد مصادرة بعض الأملاك والبساتين بدمشق ، وقدم مشروعًا بذلك لمجلس القضاة الأربعة والعلماء المنعقد بدار العدل ، وخشي القضاة سطوة الحاكم فلم يعترضوا على المشروع ، أما القاضي شمس الدين فصاح قائلاً : « ما يحل لمسلم أن يتعرض لهذه الأملاك والبساتين فإنها بيد أربابها ويدهم ثابتة عليها » . فغضب السلطان وقام من دار العدل بدمشق وقد فهم مقولة القاضي وقال « إذا كنا ما نحن مسلمون إيش قعودنا » فسكن الأمراء غضبه وعظم في عينه هذا القاضي وهابه [١].

وترك علماء عصر دولة المماليك البحرية - تراثًا كبيراً من الجرأة على

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٨٧ وما بعدها .

قول الحق والمجاهرة به - لعلماء عصر دولة المماليك الجراكسة ، وعلى رأس علماء دولة المماليك البحرية كان شيخ الإسلام ابن تيمية ٦٦١-٧٤٨ هـ الذي عظمه السلطان الناصر محمد ، وعقد له المجالس في القاهرة ودمشق وسلط ابن تيمية رأيه الحر على المخالفين من أهل البدع والأهواء، والتف حوله الناس وأعجبوا به ، وتوجس منه السلطان خيفة من رأيه وقلمه فحبسه عدة مرات بالقاهرة والاسكندرية ، فظل يعيش حراً طليقًا بقلمه أثناء سجنه يدون أفكاره الجريئة بعد أن سمحوا له بالورق والأقلام ، ومع استمرار الخوف منه أمر السلطان شعبان بأن يعيش ابن تيمية في قلعة دمشق يصنف بعيداً عن الناس ولما تم لهم ما أرادوه منعوا عنه الدواة والأقلام والورق لأنهم تيقنوا أن أفكاره تنفذ إلى الناس رغم الحبس وتقييد الحرية . فكأنهم قطعوا عنه شريان الحياة فمات محسوراً في قلعة دمشق[١] .

ولكن مؤلفات ابن تيمية وتعاليمه ظلت سراجًا وهاجًا يضيء لكل صاحب رأي حر وقلم شريف للدفاع عن الدين والحق ودحض الظلم وكراهية الباطل .

كما قام العلماء بمحاربة ظاهرة السفور والإسراف والبذخ في الملبس ولم تأخذهم في الحق لومة لائم وقاوموا الطبقات المترفة من نساء السلاطين والأمراء وكبار التجار والمياسير خاصة وأن البلاد كانت تعاني كثيراً من الركود والأزمات الحادة في الصناعة والتجارة ، وأجبروا الدولة على سن القوانين التي تحد من الإسراف وتحارب البذخ ، من ذلك : أن إحساس العلماء بأنهم أهل الحل والعقد ويملكون سلطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فدعوا إلى اجتماع عام في دار العدل حضره قاضي القضاة والقضاة وكبار الأمراء وبحضرة

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ، جـ١ ، ص ٣٣٧ .

السلطان ووزير الدولة منجك حول ما أحدثه نساء السلطان وجواريهن من قمصان طوال تخب أذيالها على الأرض بأكمام واسعة سعة الكم منها ثلاثة أذرع وعرف القميص منها بالبهطلة ويتكلف ألف دينار وأحرزن الإزار الحريري بألف درهم وأبطلن لبس الإزار البغدادي وأن خف المرأة وسرموزتها بخمسمائة درهم وناقش المجتمعون أثر ذلك على الطبقات الفقيرة التي تعاني المشقات للحصول على ضروريات الحياة من ملبس ومأكل ، وأصر العلماء على إصدار فتوى تحرم هذه الملابس التي تكسر قلوب الفقراء ومنع ارتدائها ، وحددوا العقوبات التي يجب أن تفرض على من ترتديها من النساء ، وقامت السلطة على وجه السرعة بالهجوم على مناشر الغسالين ودكاكين[1] الصقل ، وأخذوا ما عندها من قمصان النساء ، ووكل الوزير مماليكه للسير في الشوارع وقطع أكمام النساء ، وطلبت الأساكفة ومنعوا من بيع الأخفاف والسراميز المذكورة ، ونودي من باع إزار حرير أخذ جميع ماله للسلطان ، وكف التجار عن ذلك حتى يقال أنه نودي على إزار حرير بثمانين[2] درهمًا فلم يلتفت إليه أحد ، وهذا يدل على سطوة العلماء وقوة رأيهم وصولتهم في تنفيذ الحق وانصياع أولي الأمر لهم ، مع أن الموضوع كان ذا حساسية خاصة إذ أنه يناقش قمصان نساء السلاطين والأمراء . أليس هذا مظهراً من مظاهر قوة رجال الدين ومكانة العلماء في المجتمع المملوكي !!

ومن مظاهر قوة العلماء ما فعله الشيخ شمس الدين الركراكي المالكي الذي رفض الموافقة على الفتوى التي وقعها العلماء بقتل السلطان الظاهر

---

(١) صور ومظالم من عصر المماليك ، ص ١٢٥ .

(٢) السلوك ، جـ٢ ، قسم ٢ ، ص ٨١٠/٨١١ .

برقوق المخلوع بتهمة الاستعانة بالكفرة على المسلمين فضربه الأتابكي منطاش مائة عصا وسجنه بالاصطبل[١] وتحمل العقوبة الظالمة وثبت على رأيه الحر ٧٩١هـ .

ومن مواقف العلماء المشرفة في تحدي رغبات السلطان والوقوف ضد رغبته المخالفة للشرع أو الدين أو العرف موقف الشيخ أمين الدين يحيى بن الأقصرائي شيخ المدرسة الأشرفية عندما احتاج السلطان قايتباي للمال لإعداد حملة عسكرية لإخماد فتنة (شاه سوار) عقد مجلس الخليفة والقضاة والأمراء للموافقة على فرض زيادات على الناس في أرزاقهم ووظائفهم واقطاعاتهم وفائض أوقافهم ، ولكن الشيخ أمين الدين أنكر على السلطان حقه في فرض تلك الضريبة وأجابه (بأنه لا يحل للسلطان أن يأخذ مال أحد إلا بحق شرعي ، ولو فقد ما في بيت المال فلا يأخذ من أحد شيئاً حتى ينفذ ما بأيدي الأمراء والجند من الأموال والمتاع والأقمشة مما لا يحتاج إليه في الحرب)[٢] . وهكذا دل هذا العالم على تمتعه بقدر كبير من الشجاعة الأدبية وحرية الرأي ولم يذعن لرأي السلطان وكان بوسعه لو رفض السلطان رأيه أو تصرف بحقه تصرفًا سيئاً أن يوضح ذلك لجموع الشعب في المدرسة أو المسجد وينتشر الأمر في الحارات والمؤسسات العلمية ومن الممكن أن يؤدي إلى انتفاضة ضد السلطان ، ولذا كان السلاطين في معظم تلك الأحوال يكتفون بالسكوت مرغمين لأنهم يعلمون نتيجة اعتراضهم على العلماء أو الاعتداء عليهم .

---

(١) النجوم الزاهرة ، جـ ١١ ، ص ٣٦٢ .

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٩٦/٩٧ .

ولم يكن العلماء في مصر أقل شأنًا من أقرانهم في دمشق ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما ذكره الشعراني[1] ان الشيخ شمس الدين الديروطي ت ٩٢١ هـ شن على السلطان الغوري حملة كلامية اتهمه بالتقصير في شأن الجهاد وضاق السلطان ذرعًا ، وتسامع الديروطي فمضى بنفسه إلى السلطان ، ولما حياه لم يرد عليه الغوري فقال الشيخ : « إن لم ترد السلام سقطت وعزلت » ، فقال السلطان : « عليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته » ، ثم قال الشيخ للسلطان : « علام تحط علينا بين الناس في ترك الجهاد ، قد نسيت نعم اللّه عليك وقابلتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت نصرانيًا ثم أسروك وباعوك من يد إلى يد ، ثم منَّ اللّه عليك بالحرية والإسلام ورقاك إلى أن صرت سلطانًا على الخلق ، عما قريب يصيبك المرض الذي لا ينجح فيه طب ، ثم تموت وتكفن ويحفرون لك قبراً مظلمًا ، ثم يدسون أنفك في هذا التراب ، ثم تبعث عاريًا عطشانًا جائعًا ، ثم تقف بين يدي الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، ثم ينادي المنادي من كان له حق أو مظلمة فليحضر على الفور خلائق لا يعلم حصرها إلا اللّه » . ولما انصرف الشيخ أرسل السلطان في طلبه يترضاه ويتألف قلبه ويستميله بالمال ، والشيخ يعرض عن ماله ويحقر من شأنه، ويعلق الشعراني على ذلك الموقف - وهو لا يحتاج في الحقيقة بقول إلى تعليق - حيث يقول : « فما رؤي أعز من الشيخ ولا أذل من السلطان في ذلك المجلس » .

---

(١) طبقات الشعراني ، جـ٢ ، ص ١٩ .

ولقد وصل الأمر بالعلماء إلى حد أنهم كانوا يشتمون المماليك إذا تعدوا الحدود الشرعية ، وظلموا الناس واعتدوا على أموالهم من ذلك قول بعض العلماء لأحد أمراء المماليك المتجبرين « لعنك الله ولعن اليسرجي الذي جاء بك ومن باعك ، ومن اشتراك ، ومن جعلك أميراً ؟ »[١] .

أما العوام فكانوا هم النبع الحقيقي الذين عبروا عن آمال الشعب بصورة عملية ويقصد بالعامة صغار التجار والعمال والصناع والباعة والسوقة والسقايين والمكارين والمعدمين وغيرهم من فئات الطبقة الدنيا من المتعطلين والشحاذين وأوباش الناس وصعاليكهم والصبيان والزعار والعياق والمنخرطين في مناسر الحرامية - الحرافيش - وغيرهم . ولقد خرج العامة في مظاهرات علنية يعبرون عن رأيهم وكانوا أداة ضغط قوية على السلاطين والأمراء . وهؤلاء هم عوام دمشق قتلوا في سنة ٧٩٩هـ تاجراً يسمى ابن النشو وأحرقوه لأنه اشترى القمح في وقت رخاء الأسعار وخزنه ثم أخرجه للبيع في وقت الغلاء ، وتعاون الناس على قتله ، وفي عام ٨٠٤ هـ رجم العوام نائبهم تغرى بردى[*] بسبب جوره وكادوا يجهزون عليه لولا هروبه والتجاؤه[٢] إلى نائب حلب ، وعين السلطان فرج بن برقوق آقبغا الجمالي بدلاً عنه ، ولما ارتكب برهان الدين النابلسي وكيل السلطان قايتباي المظالم في دمشق عند دخوله إليها عام ٨٨٠

---

(١) صور ومظالم من عصر المماليك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ .

(*) تغرى بردى : هو والد المؤرخ المعروف أبو المحاسن صاحب النجوم الزاهرة . كان من جملة المماليك القرانصه ، تولى نيابة دمشق ٨٠٣ هـ وكان ظلومًا غشوما ، اشترك مع المماليك في الجهاد ضد تيمورلنك .

السلوك ، جـ ٣ ، ص ٤١٩ وصفحات متفرقة .

(٢) إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٦٤/٢٦٥ .

هـ لم يمهله العوام طويلاً فثاروا عليه ورجموه وأحرقوا داره لولا تدخل نائب قلعة دمشق وتلطفه بالعوام لخربت المدينة ، كذلك طرد الدمشقيون نائبهم عام ٩٠٧ هـ بسبب ظلمه في جباية أجرة الأملاك[١] .

وإذا كان هذا هو موقف العامة في دمشق ، فلم يكن موقف أقرانهم في باقي النيابات الشامية أقل منه شعوراً بالظلم وتعبيراً عما يشعرون به ، وجاءت بعض ثوراتهم حاسمة كما فعل نظرائهم . ففي مدينة حلب ثار العامة على نائب القلعة وقتلوه عام ٨٨٥ هـ رغم أنه من مماليك السلطان قايتباي المقربين إليه ثم قتلوا حاجب الحجاب ، وحاربوا آزدمر النائب عام ٨٩٦ هـ وقتلوا عدداً كبيراً من مماليكه وأحرقوا عدداً آخر ، وفي نفس الوقت قتل من الحلبيين نحو خمسين شخصًا ، واستشرت الثورة الشعبية فقام الغوري حاجب الحجاب بالمدينة فأخمدها ولم يفعل السلطان قايتباي شيئاً أكثر من أنه أرسل مبعوثًا من قبله لبحث أسباب الثورة ، كذلك فعل أهل حماه فثاروا ضد نائبهم وقتلوا الدوادار وأحرقوه وعندما حاول نائب الكرك أن يظهر قوته وبطشه في مطلع نيابته عام ٩١٢ هـ وشنق حاجب المدينة وأخاه وأولاده ، لم يطق أهل الكرك هذا التعسف فثاروا ووثبوا عليه فهرب إلى غزة ، فجازاه السلطان الغوري بالعزل ونفاه إلى القدس بطالاً .

وكان العامة يتحرشون بالمماليك ويسبونهم جهاراً من ذلك قولهم للجنود المماليك « بالأمس كنتم هاربين ، واليوم تريدون أخذ أموالنا » ، فأن أجابهم الجندي قالوا له « لم لا كانت هذه الحرمة في المغل الذين فعلوا بكم كيت

---

(١) السلوك ، جـ ٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٢٠ .

وكيت وهربتم منهم »[١] .

فلما فحش أمر العامة على حد رواية المقريزي[٢] وابن إياس صار الواحد منهم يغير زيه حتى يقيم بدمشق خيفة من توبيخ العامة له ، حتى حلق بعضهم شعره وصار يغير دبوقه ، وخاف السلطان من أثر ذلك على حالة الجنود النفسية فأعلن في الناس « أي عامي تكلم مع جندي كانت روحه وماله للسلطان » .

وفي عهد السلطان إينال العلائي سنة ٨٦٥ هـ طالبوا بعدم التعامل بالعملة المغشوشة الفضية الشامية ، والحلبية المسكوكة لأن نصفها نحاس ولهجوا بأغنية شاعت بين الناس يقول مطلعها « السلطان من عكسه أبطل نصفه ، وإذا كان نصفك إينالي لا تقف على دكاني »[٣] .

وشنع العامة على السلطان يلبغا الناصري لما دبر مؤامرة ضد برقوق ونجح في إبعاده عن الحكم إذ هتف الناس علانية « راح برقوق وغزلانه وجاء الناصري وتيرانه »[٤] .

وهكذا كان العلماء والمثقفون في خدمة مجتمعهم ينيرون طريق العلم والحرية أمام شعوبهم في مصر والشام في عصر دولة المماليك .

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، أحداث سنة ٨٠٤ هـ ، ص ١٧٥ وما بعدها .

(٢) السلوك ، جـ١ ، قسم ٣ ، ص ٥٢٣ ؛ بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٧٦ .

(٣) إبراهيم طرخان : مصر في عصر ولاية المماليك الجراكسة ، ص ٨٥ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، أحداث سنة ٧٨٨ ، ص ٣٧٩ وما بعدها .

ثالثًا : موقف العامة من الصراع بين الأمراء المماليك وتحقيق مكاسب سياسية :

كانت السمة الأساسية في العلاقة بين المماليك تقوم على تدبير المؤامرات، والقضاء على المنافسين ، واستخدام أقصى درجات العنف في تحطيم عناصر قوة الخصم من المماليك والأعوان .

نرى ذلك واضحًا طوال عصر دولة المماليك البحرية[١] .

حتى أن أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة وهو الأمير برقوق استطاع أن يلي الحكم بمؤامرة محبوكة الأطراف وتمكن من عزل السلطان أمير حاج سنة ٧٨٣هـ بعد أن كان وصيًا عليه وكان من أخلص مماليك أبيه[٢] .

وفي نوفمبر من عام ٧٨٤هـ دعا برقوق الخليفة والقضاة وسائر الأجناد وخطب فيهم قائلاً : « يا أمير[*] المؤمنين ويا سادات القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان في البلاد إن الوقت قد ضاق ، ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب »[٣] .

ولقد استغل المماليك عامة الشعب في أثناء الصراع بينهم وبين خصومهم لا عن حب لهم ، ولكن لتحقيق أطماعهم في الانتصار على إعدائهم . وكانت

---

(١) ابن ايبك الدوادار : كنز الدرر جـ١، ص ٢٢ ، ابن تغرى بردى ، بدائع الزهور ، جـ ٨ ص ٢٤.

(٢) السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٤٦ وما بعدها .

(*) يقصد الخليفة العباسي المتوكل على اللّه محمد بن المعتضد .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ق ٢ ، ص ٣٥٣ .

في تلك الأوقات تتذرع بمصلحة الشعب وتحاول التقرب إليه بشتى الوسائل . وكان هدف المماليك الأساسي خلال تلك الثورات هو تحقيق نفع شخصي لهم كالوصول إلى كرسي السلطنة أو الظفر بمنصب هام في الحكومة أو الحصول على مال أو اقطاع[١] ، أو عند تعرض البلاد لخطر خارجي يهدد حدود مصر من الناحية الشمالية ، وبالتالي يهدد وجودهم في مصر والشام . ولذا فقد أدرك المماليك أهمية العامة في أرجاء دولتهم عامة ، وخاصة في المدن الكبرى في مصر والشام وحرصوا على كسبهم أشد الحرص ، وحرضوهم ضد أعدائهم من الأمراء وسمحوا لهم بنهب قصورهم وتخريب ممتلكاتهم ، وترصد لنا مصنفات ذلك العصر بعض الأحداث التي تشير إلى ذلك فتقول « نهب العوام بيت الأمير الفلاني » « ونادى الأمير الفلاني الثائر في العوام بإحراق بيت منافسه فلان »[١] .

وغالبًا ما انتهز عامة الناس فرصة الصراع بين الأمراء لتحقيق مكاسب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، كالمطالبة بعزل بعض الموظفين أو القضاة الجائرين أو العفو عن خليفة معزول وإعادته إلى منصبه أو رد أملاك بعض الناس أو أموال بعض المصادرات أو الغاء بعض المكوس والمظالم والقوانين غير الشرعية أو اشراكهم في المعارك للدفاع عن بلادهم ، كما اتخذ التقرب إلى الشعب صوراً مختلفة وكان هذا التقرب صورة من صور المكاسب التي حصل عليها الشعب في مصر والشام كمنحهم المال والأعطيات ثم السماح لهم بعقد المجالس مع العلماء والفقهاء لإلتماس الفتاوى التي تمنحهم كثيراً من الحقوق

---

(١) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٥٠/٢٥١ .

(٢) السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٢ ، ص ٨٥ ؛ ابن إياس ، جـ ٢ ، ص ٣٤٢ .

وترد عنهم المظالم .

هكذا تقرب برقوق من الشعب في القاهرة والكرك ودمشق خلال المحن التي صادفته عند تأسيس الدولة ٧٩٢ - ٨٠١ هـ[(١)] ، فأعاد الخليفة المتوكل المعزول إلى منصبه واعتذر له تقربًا إلى الشعب إبان ثورة يلبغا ومنطاش كما أن نوروز الحافظي تذرع في ثورته ضد السلطان المؤيد شيخ بأنه ما ثار إلا استنكاراً لاعتداء شيخ على الخليفة المستعين بعزله من السلطة والخلافة ، كذلك استعان أنصار الأتابك[(*)] إينال بالخليفة القائم بأمر اللّه للاشتراك معهم في الفتنة التي أدت إلى سلطنة إينال ، كما قام برقوق بتوزيع الأموال على العامة تقربًا إليهم وكذلك استعان بهم يلبغا في القبض على برقوق الذي اختفى[(٢)] ، ووعد بمنح من يقبض عليه من العامة ألف دينار وخلعه ، وبدأ سكان المدن ومنهم أهل دمشق يهتمون بمصالحهم واحتياجات مدنهم وتكون لديهم وعي سياسي بأن المماليك إنما يستغلونهم لحاجتهم الشخصية إليهم وأنهم مجرد مطايا توصلهم إلى أغراضهم فانتهزوا الفرصة لتحقيق أكبر قدر من المكاسب على حساب المماليك .

فخلال النزاع بين يلبغا ومنطاش انضم العوام إلى الأخير لأنهم وجدوا أن مصلحتهم في تأييده ضد يلبغا ، كما أن عوام الكرك أطلقوا سراح برقوق من سجنه على غير رغبة الأعيان من المماليك نكاية لهم وحتى يكسبوا السلطان

---

(١) محي الدين بن عبد الظاهر : الألطاف الخفية من السيرة الأشرفية ، ص ٣٥ .

(*) الأتابك : مقدم العسكر والقائد العام للجيش المماليكي . صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٨ .

(٢) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٥١/٢٥٢ .

الجديد إلى صفوفهم[١] ، ووصل الأمر بالمماليك الناصرية -نسبه إلى الناصر فرج- إلى حد طلب المعونة والنصرة من الشعب ضد المماليك الظاهرية انصار الظاهر برقوق ، كما استنجد طومان باي آخر سلاطين المماليك بالحرافيش والزعر لمعاونته في صد العثمانيين [٢].

وحقق العامة كثيراً من المكاسب السياسية والمادية فكانوا ينهبون بيوت المنهزمين ، فضلاً عما يأخذونه من المنتصر لقاء معونتهم له ، وكانوا ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم فاستولوا على ما في حواصل الإسطبل السلطاني من سروج ولجم ، كما ساقوا أمامهم نحو ألفي رأس من الغنم ، وكانوا غالبًا ما ينتقلون إلى بيوت سائر الأمراء ويستمرون في نهبها حتى أنهم كانوا يقتلعون ما فيها من أبواب ونوافذ ، وكان منطاش يستحث العامة ضد أعدائه من الأمراء بقوله « أنا واحد منكم وأنتم اخواننا وأصحابنا »[٣] .

واستمر العامة يحققون مكاسب سياسية واجتماعية واقتصادية في أثناء الفتن والصراع بين المماليك وكانت فرصة للتعبير عن سخطهم وأدركوا ألاّ مصلحة لهم في انتصار منافس على آخر ، ولذلك تنقلوا بين الخصوم من وقت وآخر ، ووقفوا إلى جانب المنتصر ولم يترددوا للحظة واحدة في الانقلاب عليه إن أصابته الهزيمة ، ولم ييأسوا من المماليك وعرفوا أن نهاية دولتهم قد حان موعدها ، ولم يتردد عوام حلب في نهب فلول العساكر المملوكية المنهزمة بعد

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٣٩٧ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٨ وما بعدها .

(٣) النجوم الزاهرة ، جـ ١١ ، ص ٢٤ .

مرج دابق ٩٢٢ هـ جزاء لما ارتكبوه في حلب خلال الاستعداد للقاء الأتراك العثمانيين ، وحدث ما يشبه ذلك على أثر دخول قوات سليم الأول العثماني إلى القاهرة ٩٢٢ هـ - ١٥١٧ م واستباحتها ان اشترك العوام في نهب المدينة وقتل المماليك[١] .

---

(١) بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ، ١١٩ .

الفصل الخامس

النشاط السياسي والعسكري لطوائف السكان

في صد العدوان الخارجي على مدينة دمشق

ويشتمل على المباحث الآتية :

(١) - حملة تيمورلنك على دمشق ٨٠٢هـ .

(٢) - عجز المماليك عن الدفاع عن المدينة .

(٣) - دور العلماء وطوائف العامة في الدفاع عن دمشق أمام العدوان .

المبحث الأول

حملة تيمورلنك على دمشق ٨٠٢-٨٠٣هـ

تعرضت مدن الشام عامة ، ومدينة دمشق خاصة منذ حوالي منتصف القرن السابع الهجري ومنتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى خطر الزحف المغولي من جانب مغول فارس وملكها هولاكو(*) بن تولى بن جنكيزخان(**) في بداية ظهور أطماعهم ، وأخذ خطر المغول يزداد على بلاد الشام بشكل واضح عقب سقوط بغداد ٦٥٦هـ ، ولم يمض وقت طويل « حتى ظهرت جيوشهم بدمشق »[1] في مارس ٦٥٨هـ/١٢٥٩م بقيادة كتبغا(***) الذي دمر المدينة وأحال عمرانها إلى خراب ، واستطاع السلطان قطز ، أحد سلاطين دولة المماليك البحرية ، أن يهزم المغول في عين جالوت ٦٥٩هـ / -١٢٦م ، ويقتل

(*) هولاكو : ابن تولى بن جنكيز خان خاقان التتار مؤسس دولة مغول فارس بعد تقسيم دولة جده ، اقتحم مدينة بغداد ومزق أهلها كل ممزق سنة ٦٥٦ هـ ، وقتل الخليفة العباسي المستعصم بطريقة بشعة ، ثم رحل إلى أقصى الشرق لظروف سياسية وعين نائبًا له في الهجوم على الشام هو القائد المغولي (كتبغا) .

ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٦ .

(**) جنكيز خان : قائد مغولي نصب خاقانًا على القبائل المغولية في منطقة منغولية ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م ، وأسس امبراطورية كبيرة تمتد من غرب الصين إلى أواسط إيران .

د . محمد الصياد : المغول في التاريخ ، ص ١٥/١٨ .

(١) القلقشندي : صبحي الأعشى ، ج ٨ ، ص ٦٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٩ .

(***) كتبغا : أحد قادة هولاكو خان اعتنق المسيحية وفق المذهب النسطوري .

د . سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٣٤ .

كتبغا ويطرد المغول من دمشق ، وكانت هذه أول مرة يحتل المغول فيها المدينة ويشيعون الرعب والفزع بين سكانها .

ومع تطهير بلاد الشام منهم إلا أن خطرهم كان ما زال مستمراً عليها ، وكان السلطان بيبرس البندقداري[*] يراقب تحركاتهم ويهاجمهم في مناطق الحدود بين آونة وأخرى[١] .

ثم واصل غازان[٢] سياسة أسلافه التقليدية للتوسع على حساب دولة المماليك في الشام ومهاجمة قصبتها دمشق التي نجح في احتلالها وتدميرها بعد فرار كثير من أهلها أملاً في النجاة من أنفسهم من وجه المغول ، وكانت هذه الهجمة الشرسة هي الهجمة المغولية الثانية في تاريخ دمشق ٧٠٤هـ / ١٢٩٥م ، ولم يقض على أطماع المغول إلا هزيمة المماليك لهم في موقعة مرج الصفر بالقرب من دمشق ٧١١هـ / ١٣٠٢ م ، وانقطعت الحروب بين الدولتين المملوكية والمغولية الفارسية طوال القرن الرابع عشر الميلادي .

ولم تتعرض دمشق لهجوم مغول القفجاق (القبيلة الذهبية)[**] طوال

(*) بيبرس البندقداري : سبق التعريف به في الفصل الثاني ، ص

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٦٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٢٤٣ وما بعدها .

(٣) جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٠١ ، ٢٠٤ .

(**) القبيلة الذهبية : سميت بذلك تبعًا للون خيامهم وكان مركزهم شمالي بحر قزوين والبحر الأسود وحوض نهر الفولجا .

محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢١٨.

عصر دولة المماليك البحرية حتى هزمت تلك القبيلة أمام غازٍ جديد ظهر في آسيا هو (تيمورلنك) .

وتيمورلنك من سلالة ايتمش أحد وزراء المغول ويلقب تيمورلنك(*) بالطاغية الأعرج ، ولد بقرية (خواجا ايناز) من أعمال مدينة كش(**) ، وكانت أمه من سلالة جنكيزخان ، ثم تزوج من أم السلطان محمود بن طقتمش خان وكان صغيراً فأصبح وصيًا عليه واستبد بالأمر دونه ، وتاريخه حافل بالحروب وسفك الدماء خاصة في ديار الإسلام ، مات في أثناء حملته على بلاد الصين في مدينة اقدار ودفن في مدينة سمرقند(***) ت ٨٠٧ هـ[١] .

ولقد بدأ نجمه في الظهور بعد أن أخضع مدينة سمرقند ، ونجح في

(*) امتدت أعمال تيمورلنك العسكرية على مساحات جغرافية واسعة بين الشام وآسيا الصغرى وروسيا إلى بلاد الهند ، ولم يجن في حروبه سوى السلب والنهب والخراب والقتل . وقد فاق في هذا المجال (جنكيز خان) وكان هدفه الشخصي الاستيلاء على العالم .
ابن عرب شاه ، عجائب المقدور في نوائب تيمور ، المقدمة ، ص ٤ .
وللمزيد من التفاصيل عن تيمورلنك انظر : ابن عرب شاه ، غرائب المقدور في أخبار تيمور ، أحمد عبد الكريم سليمان ، تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة .

(**) كش : إحدى مدن ما وراء النهر ، قال عنها ابن حوقل : « وهي مدينة مقدارها ثلث فرسخ في مثله ، جيدة التربة والهواء ، تجود فيها زراعة الفاكهة » .
صبح الأعشى : ج ٤ ، ص ٤٣٥ .

(***) سمرقند : بفتح أوله وثانيه ، بلد مشهور يقال لها سمران ، وهي عاصمة بلاد الصغد ، اتخذها تيمورلنك عاصمة له وبنى بها مسجداً كبيراً ، ورباط للزهاد .
ياقوت الحموي : معجم البلدان ،

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣ ، ص ٤٦ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٧ ، ص ٦٢ ، ٦٧.

الاستيلاء على خوارزم ، وهراة ، وسستان ٧٨٥هـ[١] .

وفي سنة ٧٩٠هـ ، استطاع الاستيلاء على مناطق شاسعة من شمال فارس ثم أذربيجان ، وجورجيا وأقاليم القبيلة الذهبية في حوض نهر الفولجا ، ثم واصل تحركاته العسكرية حتى إقليمي العراق العربي وحدود الدولة المملوكية ثم اكتسح الشام واحتل مدينة دمشق .

ولما وصلت أخبار تحركاته إلى السلطان برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة بأن واحد الجغطاوية من التتار يقال له تمرلنك قد استولى على البلاد ، ووصلت مقدمة جيوشه إلى تبريز وخربتها[٢] .

وتوالت الرسائل على يد الحكام وأمراء الأقاليم تحذر الظاهر برقوق من خطر هذا السفاح الجديد القادم من وراء النهر[*] ، فلقد وصلت إليه رسائل متعددة من أمير ماردين[**]، ومن صاحب بغداد الخان ابن اويس[***] الجلائري .

---

(١) شذرات الذهب ، جـ ٧ ، ص ٦٨ .

(٢) ابن عرب شاه : عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ٥ / ١٤ .

(*) وراء النهر : اسم اطلق على البلاد التي وراء نهر جيحون من ناحية إيران الشمالية والشرقية كما أطلق عليها بلاد توران ، وتشمل بلاد الصغد وفرغانة والشاش وخوارزم .
معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٧ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٤٨٤ .

(**) ماردين : مدينة في تركيا ، وهي تقع على نحو نصف المسافة بين رأس العين ونصيبين . بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٢٥ .

(***) أحمد بن أويس الجلائري : من أصول مغولية والأويس اسم من أسماء الذئب ، كان يتوقع منه أن يقف في وجه تيمور بعد القضاء على قوة المظفر في بلاد فارس وتجاور أملاك الدولة =

وواصل تيمور زحفه إلى مدينة الرها(*) بأرض الجزيرة وخربها عام ٧٨٩هـ، وتقدمت طلائع جيشه إلى مدينة تبريز بآذربيجان وهزم ملكها قره محمد ، وشارفت قواته على أول حدود الدولة المملوكية في ملطية . ولقد كان برهان الدين صاحب سيواس أشد الأمراء إحساسًا بالخطر فأرسل إلى كل من الظاهر برقوق صاحب مصر والسلطان العثماني بايزيد(**) يطلب منهما التكتل للدفاع عن المنطقة - وليتهما استجابًا لرجائه - إذ ضاعت جهودهما في الصراع والتنافس على السلطة واحتلال مناطق الأطراف لكلا الدولتين[١] ، ويبدو ان إحساس برقوق بالخطر كان أسرع من إحساس بايزيد . ولقد دفع هذا الأخير حياته ثمنًا لتراخيه عندما أسره تيمورلنك فيما بعد .

= التيمورية مع أفلاك أحمد الجلائري في العراق ، ولكنه كان حاكمًا سيء السمعة والاخلاق ، يجاهر بالفسق والظلم وأساء الحكم في بغداد ، ويقال أن سكان بغداد هم الذين كاتبوا تيمور عندما اقترب منهم ، وكان تيمور يعتقد ان السيطرة على العراق أمر حيوي لأنه الطريق التجاري الهام من الخليج الفارسي والمتجه إلى ما وراء النهر عبر الهضبة الايرانية فضلاً عن أهميته الاستراتيجية إلى بلاد الشام ومصر والحجاز حيث الأماكن المقدسة .

الزركلي ، الاعلام ، جـ ١ ، ص ١٠١ .

(*) الرها : مدينة بين الموصل والشام وهي اليوم في تركيا وتعرف بأدسا ، وسماها العرب الرها تحريف للاسم اليوناني كلرهو .

بلدان الخلافة الشرقية .

(**) بايزيد : ولقبه يلدرم أي الصاعقة ، وهو ابن مراد الأول وقد حكم من سنة ٧٩٢ إلى سنة ٨٠٥ وفيها قتل على يد تيمورلنك بعد أن أسره وجعله في قفص كان يحمله معه أينما ذهب .

دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٦ ، ص ١٦٤ ، زمباور ، المعجم ، ص ٢٣٩ .

(١) ابن عربشاه ، عجائب المقدور ، ص ٤٩ .

ولذا جهز برقوق جيشًا مملوكيًا خرج من القاهرة سنة ٧٨٩هـ متوجهًا إلى حلب استعداداً لمقابلة قوات تيمورلنك ، ثم انضمت إليها قوات الشام بقيادة الأمير الطنبغا الجوباني نائب دمشق ، ثم زحف الجيش إلى ديار بكر ، وفي أثناء ذلك استطاع الأمير قره يوسف التركماني أمير مملكة (الشاه السوداء) أن يهزم طلائع من قوات تيمورلنك يقودها ولي عهده ، كما أسر قائداً من أمهر قواده هو (اطلاميش) وأرسله مكبلاً بقيوده إلى مصر . وعادت الحملة إلى حلب ثم إلى مصر ، ودقت البشائر وعلقت الرايات بالانتصار سنة ٧٩٠ هـ[١] .

ويبدو ان تلك الحملة المصرية الشامية نجحت في إيقاع الهزيمة بقوات تيمورلنك أثناء انشغال هذا الأخير في الحرب الدائرة في (جورجيا) ضد خان القبيلة الذهبية ، ثم انشغال تيمور بعد ذلك في التوجه إلى حوض نهر السند .

ويبدو أن الجميع أحسوا بخطر الزحف المغولي ولا سيما في مصر بعد طوال معاناتها مع المغول وهجومهم على الشام ومصر طوال عهد المماليك البحرية ، وسرعان ما تكوّن تحالف قوي من خان القبيلة الذهبية ، والقاضي برهان الدين أمير سيواس ، وأمير التركمان قره يوسف والسلطان العثماني بايزيد ولكن كان الأخير غير جاد في دخوله هذا الحلف لسوء العلاقة بينه وبين المماليك ، كما ان المماليك من جانبهم كانوا يخشون تنامي قوة الأتراك العثمانيين المتواجدين على حدودهم في منطقة آسيا الصغرى أكثر من توافد

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، القسم الثاني ، ص ٣٨٩ وما بعدها .

قوات تيمورلنك التي سرعان ما تغادر المنطقة بعد تحقيق أغراضها في السلب والنهب والهجوم والتدمير[١] .

وفي تلك الأثناء وصلت إلى الظاهر برقوق رسالة[*] تحذيرية من تيمورلنك بعد أن استعد الأخير لقيادة الهجوم بنفسه ، ولقد رد الظاهر برقوق على رسالة تيمور برسالة صيغت بنفس القوة والشدة تهدد وتتوعد وتخبر تيمورلنك بأن مصيره سوف يكون كمصير أسلافه الذين أريقت دماؤهم على سهول الشام قبل وصولهم أرض فلسطين[٢] .

وتوفي الظاهر برقوق ٨٠١ هـ ، دون أن يشترك مع تيمور في معركة

---

(١) ابن عرب شاه ، غجائب المقدور ، ص ٥٦ .

(*) ويوجد نص للرسالة في كتاب عجائب المقدور ص ٧٠ ومنها « اعلم اننا جند الله مخلوقون من سخطه ، مسلطون على من يحل عليه غضبه قد نزع الله الرحمة من قلوبنا ، فالويل كل الويل لمن لم يتمثل أمورنا فإنا قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد ، قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، خيولنا سوابق ورماحنا خوارق كثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وقد انصفناكم إذ راسلناكم ونثرنا جوهر هذا الكلام عليكم والسلاح » .

ومن هذه الرسالة : « إنما النار لكم خلقت ، ولجلودكم أحرقت ومن العجب العجاب تهديد الليوث بالليوث والسباع بالضباع والكماة بالكراع إن قتلناكم نعم البضاعة ، وإن قتلتمونا بيننا وبين الجنة ساعة ، نحن من المنية في غاية الأمنية ، إن عشنا عشنا سعداء وإن متنا متنا شهداء ، أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين تطلبون منا طاعة ، لا سمع لكم ولا طاعة ، حصل الوقوف على كتابك كصرير باب أو طنين ذباب » .

ونلمح من الرسالتين أن مجموعة من الكتاب والفقهاء المسلمين كانوا يعملون في بلاط السلاطين ويقومون بكتابة تلك الرسائل واظهار مهارتهم في صياغتها .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ .

حربية تحدد مصير المنطقة وتولى بعده ابنه الصغير أبو السعادات فرج(*) ، وفي تلك الأثناء توفي القاضي برهان الدين أمير سيواس . ولما علم تيمورلنك وهو في بلاد الهند بموتهما ، وان السلطان أحمد بن اويس الجلائري قد تحالف مع قره يوسف التركماني واستعاد بغداد بعد أن قضى على حامية تيمورلنك بها .

فعاد تيمور مسرعًا بجيوشه عام ٨٠٢هـ ، فعبر نهر جيحون بعد أن عين ابنه ميرانشاه أميراً على مملكة الشاه السوداء وتقدم بقواته إلى العراق ، وسرعان ما فر أمامه أحمد بن أويس الذي لجأ إلى حلب بعد أن سبقه إليها حليفه القديم قره يوسف التركماني ، وفرضت الأحداث العسكرية نفسها على المنطقة فأعد نائبا حلب وحماه جيشًا قوامه سبعة آلاف فارس ومعها قوات ابن أويس وقره يوسف ولكنهم هزموا أمام تيمورلنك[١] .

وكان من أبرز نتائج هزيمة جيش الشام لجوء قره يوسف التركماني وابن أويس إلى بلاط السلطان العثماني بايزيد في بروسه الذي انتهز فرصة وفاة برقوق وحقق أطماعه القديمة في الاستيلاء على ملطية من الدولة المملوكية ، كما استولى على سيواس بعد وفاة أميرها القاضي برهان الدين ، ولقد بدأ تيمورلنك أعماله العسكرية بتعقب الفارين فاستولى

(*) أبو السعادات فرج بن برقوق : تولى السلطنة في دولة المماليك الجراكسة سنة ٨٠١ هـ وله من العمر عشر سنين .

الكواكب السائرة ، ج ١٢ ، ص ١٦٨ .

(١) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ٨٨ .

على سيواس(*) ٨٠٣هـ(١) « وأباد حاميتها »(٢) .

ثم استمر زحف تيمورلنك إلى دمشق فاستولى على مرعش وعنتاب وتجمعت القوات الشامية بقيادة نائب دمشق الأمير سودون(**) .

وعندما أحس جميع ملوك المنطقة بالخطر سارع بايزيد العثماني بالدعوة إلى تكوين حلف ضد تيمورلنك ولكن السلطان فرج بن برقوق رفض دعوته خاصة بعد ظهور أطماعه واستيلائه على ملطية عقب وفاة الظاهر برقوق ، وتقدم تيمورلنك في زحفه والتقى بالجيش المملوكي الذي تجمع من نيابات الشام أمام حلب وهزمه هزيمة منكرة ، ثم سلمت قلعة حلب بعد مقاومة استمرت أربعة أيام ٨٠٣هـ ، وتم تسليم المدينة ووقع في الأسر عدد كبير من

(*) سيواس : اقليم من بلاد الروم وسيواس اليوم مركز ولاية سيواس في تركيا وتبعد حوالي ٢٢٥ ميلاً إلى الشرق من انقرة .

النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ٣٧ .

(١) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٧ .

(**) سودون نائب الشام : هو قريب لبرقوق ، قدم من جركس مع جدته لأمه أخت الظاهر ، تربى في الحريم السلطاني ، فلما كبر وترعرع رقاه حتى صار مقدمًا ثم أمير آخور ، ثم بعد موت برقوق قبض على سودون وسجن بالاسكندرية ، ثم أفرج عنه ، واستقر دوادار كبير مع اقطاع كبير ، ثم عين نائبًا للشام ، وخرج لقتال تيمور وأبلى في المعارك بلاء حسنًا ، ثم هزم المعسكر الشامي وقبض على سودون وظل أسيرًا إلى أن مات إما ذبحًا أو تحت العقوبة أو القائه للفيلة، وذلك بظاهر دمشق في أواخر رجب سنة ٨٠٣ هـ .

وأمير آخور ، وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على اسطبل السلطان ورعاية ما فيه من خيل وحيوانات .

السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٨ ، حاشية رقم ٣ ؛ السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ .

أمراء المماليك ونواب الشام منهم شيخ الخاصكي(*) نائب طرابلس ونائب غزة ونائب صفد(**) وغيرهم ، واستباح تيمور حلب نحو شهر .

ويذكر ابن تغري بردي[1] وهو مؤرخ معاصر لهذه الحوادث أنه لما التقى جيش تيمورلنك بجيش حلب يقوده سودون نائب دمشق ومماليكه وعساكره في الميمنة، ودمرداش نائب حلب وعساكر حلب في الميسرة ، وبقية النواب في القلب، ولكن تيمورلنك صدم جيش حلب صدمة هائلة فانكسرت الميسرة وبرز الأمير عز الدين أزدمر أخو الأتابك اينال اليوسفي وولده يشبك وقاتلوا قتالاً شديداً مع فرسانهم ، ويقول أن تيمورلنك ركب اقفيتهم فهلك تحت حوافر الخيل من البشر ومن أهل حلب ما لا يدخل تحت حصر حتى النساء والصبيان ، ثم ازدحم الناس عند دخولهم المدينة وداس بعضهم بعضا « حتى صارت الرمم طول قامة » .

(*) شيخ الخاصكي : هو الملك المؤيد أبي النصر شيخ بن عبدالله المحمودي الظاهري ، وكان يعرف بالخاصكي . بويع بالسلطنة في مستهل شعبان سنة ٨١٥ هـ ، أصله من مماليك الظاهر برقوق ، تولى نيابة طرابلس والشام ، وأسره تيمورلنك في حلب . وتوفي الشيخ سلطانًا في المحرم ٨٢٤ هـ . ويقول السخاوي عن قصة هروب شيخ من أسر تيمور « أن الخاصكي انتهز فرصة رحيل الجيش من دمشق وألقى بنفسه بين الدواب وستره الله فمشى إلى قرية من عمل صفد حتى وصل إلى طرابلس » .

السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ .

(**) نائب صفد : هو الطنبغا العثماني الظاهري .

ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٧١ .

(١) المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٢٢٢ .

ويصور ابن إياس[١] ما حل بأهل حلب بعد اقتحام المدينة بقوله : « فلما كان يوم السبت حادي عشر ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانمائة خرج عسكر حلب وسائر النواب بعساكرهم وأوقعوا بتمرلنك فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي وولوا على أعقابهم مدبرين ، وأقبلوا نحو المدينة منهزمين وقد داست حوافر الخيل أجساد العامة وحل بهم من البؤس كل داهية طامة . وكان قد احتمى بالمزارات والمساجد الجمع الغفير من النساء والأطفال فدخلوا إليهم وأسروهم وقرنوهم بالحبال ، وأسرفوا في قتل النساء والرجال وصارت الأبكار تفتض في المساجد ولم يراعوا حرمة المساجد فلم يرثوا لبكاء الرضع ولم يخشوا دعاء الركع وقد صارت المساجد كالمجزرة من القتلى فلا حول ولا قوة إلا بالله، واستمر هذا الوضع الشنيع يتزايد من يوم السبت إلى يوم الثلاثاء».

ويستمر ابن إياس[٢] مصوراً فظاعة ما حل بأهل حلب من المصائب على يد الجيش الغازي « واستمر مقيمًا على حلب نحو شهر وعسكره ينهبون القرى التي حول المدينة ويقطعون الأشجار التي بها يهدمون البيوت وقد أسرفوا في القتل ونهب الأموال ، وصارت الأرجل لا تطأ إلا على جثة إنسان لكثرة القتلى التي تركوها في الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش ، فكان عدة من قتل من أهل حلب من صغار وكبار ونساء ورجال نحواً من عشرين ألف انسان ، ثم ان تمرلنك أقام على حلب نحو شهر ثم رحل عنها بعدما جعلها خاوية على عروشها وقد تعطلت في مدة هذه المحاصرة عن الأذان والإقامة

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٢٧ .

وعن صلاة الجمعة » .

كما يشير صاحب الكواكب السائرة[١] إلى ما حدث بقوله : « واقتحم عساكر تيمورلنك مدينة حلب في الحال وأشعلوا فيها النيران وأخذوا في الأسر والنهب والقتل ، فهرب سائر نساء البلدة والأطفال إلى جامع حلب (الكبير) وبقية المساجد ، فمال أصحاب تيمور عليهن ، وربطوهن بالحبال أسرى ثم وضعوا السيف في الأطفال ، فقتلوهم بأسرهم وشرعوا في تلك الأعمال القبيحة على عادتهم وصارت الأبكار تفتض من غير تستر ، والمخدرات (النساء المتزوجات) يفسق فيهن من غير احتشام ، بل يأخذ التتري الواحدة ويعلوها في المسجد بحضرة الجم الغفير من أصحابه ومن أهل حلب فيراها أبوها وأخوها وزوجها وولدها ولا يقدر أن يدافع عنها لقلة مقدرته ولشغله بنفسه بما هو فيه من العقوبة والعذاب » .

أما قلعة حلب فيشير ابن تغري بردي إلى أنها في أشد ما يكون من الحصار والقتال وقد نقبها عسكر تيمور من عدة أماكن وردم خندقها ولم يبق إلا أن تؤخذ[٢] .

أما تيمورلنك فقد رحل من حلب بعد أن أقام بها شهراً وتركها خاوية على عروشها لا يأويها إلا الهوام والبوم ، ثم سار متوجهًا إلى دمشق عاصمة الشام ، وكان سبب هزيمة المسلمين في حلب هو الاختلاف والتنازع بين الأمراء

---

(١) االغزي ، نجم الدين محمد ، جـ ٢ ، ص ١١٥

(٢) النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ١٧٧ وما بعدها .

والحكام على المكاسب والمصالح ، ولقد أدرك هذه الحقيقة أحد المؤرخين[١] المعاصرين وإلى ذلك يشير في قوله : « إلا أن الأهواء مختلفة والآراء مغلولة والعزائم محلولة والأمر مدبر » .

وكان تيمورلنك يتقدم نحو دمشق والحقد المذهبي يحرق قلبه ويأكل كبده -لأنه كان شيعيًا متعصبًا - فقد وصف أهل دمشق بأنهم (يزيديون) أي أتباع الخليفة الأموي يزيد بن معاوية الذي قتل جنوده الإمام الحسين بن علي -رضي الله عنه- في موقعة كربلاء[٢] المشهورة بالعراق ، وكان يتقدم صوب دمشق ونواب الشام مأسورين في صحبته إلا الأمير سودون نائب الشام الذي توفي مريضًا من شدة التعذيب في قبة يلبغا[*] ، كما استقر في نيابة دمشق الأمير تغري بردي[**] .

ويبدو أن الأخبار وصلت على عجل إلى دمشق باحتلال تيمورلنك لحلب وما فعله بأهلها ، فنادى الناس بالرحيل من ظاهر المدينة إلى داخلها

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٣٢ .

(٢) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٦٥ ، ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ص١٥.

(*) قبة يلبغا : أنشأها الأمير سيف الدين يلبغا اليحياوي نائب السلطنة المملوكية في دمشق عام ٧٤٦هـ ، ولقد أنشأها لانتصاره على السلطان الملك الكامل شعبان وخلعه سنة ٧٤٧هـ ، وسماها قبة النصر .

محمد دهمان : ولاة دمشق ، ص ١٧ .

(**) تغري بردي الكشمبغاي الرومي والد الجمال يوسف المؤرخ صاحب النجوم الزاهرة ، ولي نيابة حلب سنة ٧٩٦هـ ، وتولى نيابة دمشق بعد اعتقال سودون سنة ٨٠٢هـ ، وتولى نيابة دمشق عدة مرات كان آخرها سنة ٨١٥ هـ ، وتوفي نائبًا عن دمشق ودفن بها .

السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

والاستعداد لقتال العدو ، وسرت الإشاعات في المدينة بأنه لا قدرة لهم على مواجهة تيمور فخاف أهلها وهموا بالرحيل عنها فمنعوا من ذلك ، ونودي في الناس (من سافر نهب) . وأحس أهل دمشق بأن عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد هذا الغازي القادم من وراء النهر ، فحصنوا المدينة ، ونصبوا المجانيق على قلعة دمشق ونصبت المكاحل على أسوار المدينة ، ويقال ان رسل تيمور وصلت إلى نائب الغيبة بدمشق تطلب منه تسليم المدينة ، فهم النائب بالفرار ولكن العامة ردوه رداً قبيحًا ، وفي تلك الأثناء أرسل تيمور ابنه ميران شاه إلى مدينة حماه فاستطاع احتلال الضواحي ثم المدينة[١] .

وكان سبب استسلام حماه هي الحرب النفسية والاشاعات التي سربها ميران شاه إلى حماه بما فعله التتار في مدينة حلب . ويقال انه اقتحم المدينة فسبى الناس والأطفال وأسر الرجال ، واستمرت أيدي أصحابه يفعلون في النساء والأبكار الأفعال القبيحة وخربت المدينة وضواحيها إلا قلعة حماه التي استعصى فتحها على طليعة التتار ، ولكن تيمور لما قدم على المدينة في طريقه إلى دمشق ، مر على سلمية وأشرف على حماه - ثم تمكن من اجتياح قلعتها ، ثم أكمل على خراب المدينة ؛ وإلى ذلك يشير المقريزي واصفًا للمدينة بعد أن دمرها تيمور « سوداء مغبرة ، خالية من الأنيس »[٢] .

وبقي تيمور مع قواته في حماه لمدة عشرين يومًا ، قضاها في أعمال

---

(١) ابن تغري بردي ، ج ١٢ ، ص ٢٢٥ .

(٢) السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٣٦ .

السلب والنهب ثم قرر التوجه إلى حمص إلا أنه عندما دخلها لم يتعرض لتحصيناتها ومبانيها ومرافقها بأي تخريب أو تدمير ويقال أن ذلك كان بسبب وجود قبر خالد بن الوليد بها (*)، ثم جدّ السير حتى وصل إلى مدينة بعلبك(**) . ومع أن أهلها قد طالبوا بالصلح عندما سمعوا بما حدث لأهل حلب وحماه ، إلا أنه رفض صلحهم وأباح المدينة لجنوده ، ثم واصل الرحيل حتى أشرف على دمشق من قبة سيار(***) ، وكانت أخبار تيمور تصل إلى دمشق بين الحين والآخر ، فتحدث في المدينة الخوف والذعر ، وكان الناس يسترجعون الذكريات المريرة والتجارب المؤلمة مع المغول قبل نيف وقرن من الزمان ، وما زالت ذكريات غارة السلطان محمود غازان عام ٦٩٩هـ حية بين الناس وكأنها حدثت بالأمس القريب[١] .

ويصور ابن قاضي شهبة[٢] ما حدث في المدينة باعتباره معاصراً للأحداث

(*) وإلى ذلك يشير الشاعر :

ألم تر حمص وسكانها نجو من بحار بلايا تيمور

لأنهم جاوروا خالداً ومن جاور الأتقياء لا يبور

(**) بعلبك : معناها مدينة الآلهة ، بعل البقاع ، ازدادت شهرة في عهد الرومان وصارت مقراً لعبادة أبو الآلهة ، وأقيم له معبد ضخم بالمدينة ما تزال أطلاله باقية إلى اليوم ، فتحها المسلمون سنة ١٥ هـ ، بقيادة أبي عبيدة بن الجراح .

أحمد كمال : الطريق إلى دمشق ، ص ٩٥ .

(***) قبة سيار : تنسب القبة إلى سيار بن شجاع ، وتقع على تلة صغيرة في جبل قاسيون غرب دمشق .

محمد دهمان : ولاة دمق ، ص ١٨٤ .

(١) ابن تغري بردي ، جـ ١٢ ، ص ٢٢١ .

(٢) الاعلام بتاريخ الاسلام ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ .

بقوله :« بأن ما حدث في حلب على يد القوات الغازية قد بلغت دمشق بعد أربعة أيام من دخوله المدينة ، فاختبط البلد وحدث البكاء وبدأت منذ السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ جماعات من سكان حماه بالوصول إلى دمشق » .

ويبدو أن بعض السكان قد غادروا المدينة سراً تحت جنح الليل على الرغم من تعليمات السلطان بعدم مغادرتها ، فاتجه بعض الناس إلى الجبال والمناطق الوعرة في جنوب دمشق ، ومن السكان من وصل إلى القدس ، كما تابع بعضهم السير فاراً بنفسه إلى مصر ، كما توافد على دمشق كثير من المهاجرين من بعلبك والزبداني ووادي بردى ، وزادت الأحوال سوءاً في المدينة ازدحام الوافدين بدوابهم ، وتساقط الثلوج الغزيرة على المدينة ، وعزّت الأقوات والأعلاف ، ثم سارع تيمور بإرسال خطابات التهديد إلى المدينة في ١٥/ صفر عام ٨٠٣ هـ وهو في طريقه إلى حلب جاء فيها « ففعلنا بسيواس ما بلغكم » « وبأن تكون الخطبة والسكة باسمه »[١] وغير ذلك من مطالب السيادة التي تحمل عبارات التهديد كقوله « وإن لم نجب إلى ذلك فتصير دماء أهل الشام وغيرهم في ذمتكم » وحدد لهم مدة أربعين يومًا ليصل رد القضاء والأئمة[٢] .

كما أرسل لهم رسالة تهديد أخرى حملها أحد الأمراء المماليك الذين كانوا في أسر تيمور ، ووصلت الرسالة إلى دمشق في ٢١ من ربيع الأول من

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ١٨٥ .

(٢) عجائب المقدور ، ص ٩٥ .

نفس العام يذكرهم بقرب انتهاء مدة الإنذار ، وكانت قوات تيمور قد واصلت تقدمها من سهل البقاع باتجاه دمشق ، ثم واصل تيمور تقدمه باتجاه دمشق فوصل إلى قرية داريا التي تبعد عن جنوب دمشق بمقدار فرسخ واحد من ناحية الجنوب الغربي . وأقام مخيماته هناك ، وقد مكن احتلال داريا تيمور من تطويق دمشق من الجنوب بعد أن طوقها من الغرب منذ نزولها في قبة سيار ، وبينما قوات تيمور تستعد للهجوم الرئيسي كان تيمور يناور السلطان فرج -الذي وصل سريعًا إلى دمشق - عارضًا عليه الصلح وتسليم الأسرى من كلا الفريقين .

ولكن الأمور تغيرت لصالح التتار بانسحاب قوات المماليك في اتجاه مصر بعد أن وصلت أنباء - يبدو أنها مغرضة - تفيد بأن مماليك السلطان قد قاموا بانقلاب ضده وهم في سبيلهم إلى تعيين سلطان جديد .

وبدأت القوات المغيرة هجومها على دمشق من المناطق الجبلية القريبة من سفوح قاسيون ، وكان تشكيل الهجوم على شكل صف واحد امتد طوله إلى ثلاثة أو أربعة فراسخ تتقدمهم بعض الفيلة باتجاه أسوار المدينة الشمالية ، وكان الهجوم مباغتًا حتى فوجيء السكان باقتراب الغزاة من الأسوار لا يفصلهم عن المدينة إلا نهر بردى ، واستماتت أهل المدينة في الدفاع عنها ، وأحس تيمور بأنه سيفقد جزءاً كبيراً من قواته[١] ، فاحتال إلى الصلح حتى يتمكن من دخول المدينة وتدميرها ، ولقد انقسم الرأي العام في دمشق بين

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٣٨ .

مؤيد ومعارض للصلح ، ونجح تيمور في تفتيت وحدة المدينة ، حتى أن شجاراً وقع في الجامع الأموي ، وأصر جمع كبير من الناس على الاستمرار في المقاومة وقالوا (لا نرجع عن القتال)[١] .

وكان على رأس المعارضين للصلح نائب قلعة دمشق الذي هدد بحرق المدينة عليهم إن فعلوا ذلك ، وتمخضت المفاوضات بين أعيان المدينة وتيمور عن اعلان أمان للمدينة ولأهلها قريء على أهل[*] دمشق في الجامع الأموي وفتحوا باب المدينة الصغير وما يدرون أنهم وقعوا في الفخ الذي نصبه تيمور لهم[٢] .

وتمكن تيمور من دخول دمشق بعد أن أمر بأن يجبى من أهلها ألف ألف دينار ، كما عين تيمور (شاه ملك) حاكمًا عسكريًا للمدينة ، وعين بعض العلماء من أعيان الوفد المفاوض في عدد من الوظائف الهامة بدمشق كالقضاء والحجابة والدواوين وبيت المال [٣].

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٤٦ .

(*) أورد ابن قاضي شهبة نص الأمان في ص ٣٠٨ وجاء فيه (يعلموا السكان بدمشق كذا أن الله تعالى بفضله العميم ملكنا بلاد الشام ، لما يعلم في قلوبنا من الرحمة للرعية فليعلم الاشراف والمشايخ والتجار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريمهم » .
ويعلق ابن قاضي شهبة على هذا الأمان وكأنه غير مصدق لما جاء به «ونحو ذلك من الكلام». الشهاب : ص ١٥٤ .

(٢) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ص ٤٦ .

(٣) ابن قاضي شهبة ، الإعلام ، ص ٣٠٦ .

وبدأ التتار في حصار قلعة دمشق لأن نائبها الأمير (ازدار) رفض الموافقة على تسليمها لتيمور كما فعلت المدينة ، وحوصرت القلعة حصاراً شديداً حتى استسلمت بعد تسعة[١] وعشرين يومًا ، وقد تعرضت القلعة أثناء الحصار للضرب بالمجانيق والمكاحل[*] بلغ عددها تسعين منجنيقًا ، ولقد أنشأ التتار قلعتين خشبيتين حشدوهما بالمقاتلة ، ولقد تمكنت حامية القلعة من إحراق إحدى القلاع الخشب بما عليها من الجنود المغول بعد أن رموا عليها نفطًا وناراً حارقة ، ولقد استشهد جنود الحامية ، وأعدم الناجون منهم . ويعلق ابن تغري بردي على هذا الموقف النبيل بقوله : « لا شلت يدهم هؤلاء الرجال الشجعان . رحمهم اللّه تعالى »[٢] .

وفي تلك الأثناء عزّت الأقوات بدمشق في عهد الاحتلال المغولي حتى بيع مد القمح بأربعين درهمًا شامية ، كما تعطلت صلاة الجمعة والخطبة بدمشق[٣] .

كما تعطلت الصلوات الخمس في الجامع الأموي وغيره من المساجد ، ويبدو أن التتار أعلنوا الأحكام العرفية في المدينة مخافة القيام ببعض

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٤١ .

(*) المكاحل : يُقال لها مكاحل النفط واحدتها مكحلة وهي المدافع التي يرمى بها بالنفط وبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخترق الحجر، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد تزن الواحدة من عشرة أرطال إلى مائة رطل .

صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ١٤٤ / ١٤٥ .

(٢) ابن تغري بردي ، جـ ١٢ ، ص ٢٤٠ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

المظاهرات أو أي شكل من أشكال التمرد ضدهم ، كما أن (شاه ملك) دخل الجامع الأموي وأخذ بسط الجامع وحُصُره فستر بها على البوابات وصاروا يشربون الخمر في الجامع ويضربون بالطنابير ويلعبون بالكعاب ، كما تعطل الآذان والبيع والشراء ، وتعطلت الأسواق ؛ ثم جمع تيمور ضرائب باهظة فرضها على الأهالي ، كما استولى على ما تركه الأمراء والعسكر والنواب من المماليك ، كما احتاط على كل ما في القلعة من (صامت [*] وناطق) ، ثم أمر بجمع أموال التجار ولا سيما التجار الفرنجة الغائبين وأعيان البلد ، كما جمع كل دابة في دمشق من فرس وبغل وجمل وحمار فكان عدتها اثني عشر [١] ألف دابة ، كما جمع كل الأسلحة جليلها وحقيرها ، ثم أمر تيمور الوفد التفاوضي بكتابة أسماء حارات دمشق وخططها جميعها [٢] ، ويبدو أنه أمر بذلك حتى يتبين جميع الخطط ويتم حصرها حتى يدمرها تدميراً كاملاً ، ويروي ابن تغري بردي في كتابه « النجوم الزاهرة » أن تيمور فرق أسماء الأحياء والحارات والسكك على أمرائه وقسم المدينة بينهم فساروا إليها بجنودهم وحواشيهم ، ونزل كل أمير في قسمه وطلب من فيه وطالبهم بالأموال - ويبدو أن الهدف من كل ذلك كان استيفاء ما بقي لدى السكان

(*) (صامت وناطق) : تعبير كان يطلق على كل ما ينهب من قصور الأمراء أو الحصون أو المدن المفتوحة ، والصامت كل ما ليس له صوت كالأموال والنفائس ، والناطق كل ما له صوت كالحيوان وغيره .

محمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ١٤٥ .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٤٩ .

من صامت وناطق[١] - وأجرى التتار التيمورية أنواع العذاب من الضرب والعصر والاحراق بالنار ، والتعليق منكوسًا ، وغم الأنف بخرقة قماش فيها تراب ناعم كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد تزهق روحه ، فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلى عنه حتى يستريح ، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعًا ، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت ، ويقول ليتني أموت[٢] وأستريح مما أنا فيه ، ومع ذلك كله تؤخذ نساؤه وأولاده الذكور ، ويقسمون جميعهم على أصحاب ذلك الأمير ، فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو ابنته وهو توطأ وولده وهو يلاط به ويصرخ من ألم العذاب ، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط وكل ذلك من غير تستر في النهار يحضره الملأ من النـاس .

كما يضيف ابن تغري بردي[٣] أن أهل دمشق قد رأوا أنواعًا من العذاب لم يسمع بمثلها ، « منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فيشد شعره بحبل ويلوى حتى يغوص في رأسه ، ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان ، ومنهم من كان يربط إبهام يدي المعذب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره ويذر في منخريه الرماد مسحوقًا فيقر على ما عنده شيئًا بعد شيء ، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدقه صاحبه على ذلك ، فلا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت ، ويعاقب ميتًا مخافة أن يتماوت ، ومنهم من

---

(١) ج ١٢ ، ص ٢٤٣ .

(٢) عجائب المقدور ، ص ٨٤ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ٢٤٤ / ٢٤٥ .

كـان يعلق المعـذب بابهـام يديه في سقف الدار ويشـعل النار تحتـه ، ويطول تعليقه ، فربما يسقط فيها ، فيسحب من النار ويلقوه على الأرض حتى يفيق ثم يعلق ثانيًا « واستـمر هذا العـذاب بأهل دمـشق[١] تسعة عـشر يومًا » آخـرها يوم الثـلاثاء من شـهـر رجب سنة ٨٠٣ هـ ، وهلك في هذه المدة خلق بالعقوبة والجوع لا يعلم عددهم إلا الله »[٢] .

وبعد أن انتهت قوات تيمور من جمع الأموال بتلك الصورة المفزعة طلب من جنده القيـام بغـارة عـامـة على المدينة ، وكـان غرضـه تمشيط المدينة من أعلاها إلى أدناها حتى لا يبقى فيها أي شيء من مقومات الثروة أو الحياة ، ولذا تنادى الجنود (بالنهب العام) يوم الاربعاء ٣٠ رجب ٨٠٣هـ ، « واندفع الجنود في أعـداد غفـيـرة وبأيديهم السيـوف المسلطة وبقلوب قدت من صخر ينهبون ويأسرون ويقتلون لمدة ثلاثة أيام حتى أفنوا ما بداخل المدينة من الأرواح كباراً وصغاراً نساء ورجالاً وأفحشوا علنًا بالنساء والأطفال »[٣] .

ويصـور (ابن إياس) الأهوال والمجازر التي حلت بأهل دمشق تصـويراً ينفطر له قلب الإنسان من هذه المذابح التي أعادت إلى الأذهان ما حل ببغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وبالمدن الشـامـيـة على عـهـد غازان فـيقـول[٤] « دخل عـسـكر كأمواج البحـر وبأيديهم بسيـوف مـسلولة فأسروا النسـاء والشباب والرجال

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ١٠٧٣ .

(٣) ابن قاضي شهبة : الشهاب ، ص ٣١٧ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

وساقوهم في حبال لا يعلمون أين يذهبون ولم يتركوا إلا الأطفال الرضع ومن عمره أربع سنين والشيوخ الفانية » .

وفي يوم الخميس مستهل شهر شعبان من نفس العام أمر تيمور بأحراق المدينة واضرام النار فيها وتحولت عاصمة الأمويين كبقية مدن الشام إلى خرائب قائمة بغير جدر ولا سقوف ولا أبواب وأحرقوا منشآتها ومساجدها وأسواقها وقياسرها حتى غدت اطلالاً بالية ، ورسومًا خالية ، وصارت مطعمًا للذئاب ومغنمًا للكلاب لا يستهدي اللبيب فيها إلى داره على حد وصف المؤرخين[١] لها بعد تدميرها .

ثم سار تيمور من دمشق يوم السبت ثالث شهر شعبان من نفس العام بعدما أقام بدمشق ثمانين يومًا ولم يغادرها إلا - كما ذكرنا - خرائب واطلالاً بالية وامتلأت أرضها بالجثث ويحاول بعض المؤرخين من حاشية تيمور مثل (يزدي) وغيره أن يصور تلك المجازر بأنها (عدالة تيمور) التي رأت محاسبة سكان دمشق لوقوف اسلافهم إلى جانب معاوية وابنه يزيد ضد علي بن أبي طالب - رضي اللّه عنه - وولده الحسين[٢] . وهو تعليل لا يتفق مع روح الإسلام ولا مع أخلاق الملوك ، ولقد أخرج[٣] المغيرون من مخازن دمشق وقيسارياتها أنواعًا مبهرة من الأقمشة والأمتعة التي جاء بها تجار دمشق من

---

(١) ابن قاضي شهبة ، ص ٣١٨ ، النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٤٧ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ .

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور ، ص ٢٨٦ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٣٥ ، عجائب المقدور ، ص ١١٢ .

قبرص ومصر وبلاد الروس كما استولوا على كثير من الجواهر والنفائس التي عثر عليها في دور مياسير التجار والأمراء .

ويذكر كلاً من ابن عربشاه وابن اياس نقلاً عن المؤرخ الفارسي يزدي ما رآه شاهد عيان كان في دمشق في هذا العهد : فقال إن كثيراً من عمائر المدينة كان يرتفع إلى أربعة طوابق وكأن الطابق الأرضي يبنى من الحجارة ؛ وأما الطوابق الأخرى فتبنى من الخشب وقد تفنن سكان دمشق في تزيين المنازل وتجميلها بالنافورات والزخارف وأتت النيران على كل شيء وفشلت فيما بعد جميع محاولات الأطفال فسقطت السقوف على الأرض وسال الرصاص واحترقت الأبواب والنوافذ وتفطر الرخام ، وتحولت الحجارة إلى رماد .

ويعلل بعض المؤرخين سبب انسحاب تيمورلنك من دمشق ، فالمؤرخ الفارسي يزدي يعزو ذلك إلى أن تيمور حقق غرضه من إخضاع بلاد الشام وإحراق دمشق وتأديب دولة المماليك ، أما ابن عرب[١] شاه فيذكر ان سبب الرحيل كان لنقص المواد التموينية والأعلاف بعد إحراق كثير من المدن بدليل أنه أرسل بعض الكتائب للبحث عن المؤن في أرض كنعان وفي حوران والحولة، أما ابن إياس[٢] فيعزو ذلك إلى خوف تيمور من الاستعدادات المصرية للهجوم عليه ، كما أن تيمور - على حد قول ابن قاضي شهبة[٣] - كان يخشى من الوقوع بين فكي كماشة من قوات السلطان فرج من الجنوب وقوات

---

(١) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ٢٨٧ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .

(٣) ابن قاضي شهبة ، الشهاب ، ص ٣٢٠ .

حلفائه الجلائريين حكام بغداد من الشرق .

ولقد فزع تيمورلنك من أفعال جيوشه في دمشق خاصة وفي مدن الشام عامة فيما بعد لدرجة أنه بكى أمام وفد مملوكي حضر لمقابلته عام ٨٠٥هـ ، وكان لا يزال في آسيا الصغرى ، واعتذر عما حدث وقال (هذا كان مقدراً)[١] .

ويذكر ابن عرب شاه قائمة بأسماء عدد من الأطباء والقضاة والأمراء وغيرهم من أرباب الصنائع والفنون الذين أجبروا على مرافقة الغزاة عند انسحابهم فقد اصطحبوا من أرباب الصنائع نساجي الحرير والنجارين والنقاشين والحجارين والبيطرية والخيمية والباردارية وغيرهم وعدد من حفظة القرآن . واضطر أغلب من بقي على قيد الحياة من أهل دمشق إلى النزوح عنها بعد رحيل الغزاة بسبب انهيار كل مقومات (البنية الأساسية) للحياة ، واتجه أغلب النازحين إلى مصر عن طريق البر أو عن طريق البحر وكان بعض من سلك طريق البر يتعرض أحيانًا لغارات الاعراب[٢] ، ومن سوء الطالع أن الشام بعد اكتساح تيمور لها وكثرة المذابح والمجازر بين أهلها حل بها عقب الغزو مباشرة جراد[٣] هائل فزادت مزارعها خرابًا على خراب ، ورحل تيمور بدون أن يحقق أي غرض من أغراضه السياسية أو العسكرية أو الشخصية إذ لم يتمكن من فك أسر وزيره (اتلاميش) واطلاق سراحه إذ رفضت ذلك حكومة

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٣٥ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٥٣ .

المماليك ، كما لم يستطيع أن يقيم سلطة سياسية أو دويلة تحكم باسمه إو حتى حاميات تضمن له تبعية الشام لحكومة سمرقند وما كانت غاراته - على عادة التتار - إلا للسلب والنهب والخراب وهتك الأعراض .

ولم يمهل القدر تيمورلنك إذ توفي سريعًا سنة ٨٠٧هـ (٣) ، أي بعد غزو دمشق بأربع سنوات ، ولم ينعم بلذة التشفي والانتصار وتبعثه إلى مثواه الأخير لعنات الضعفاء والمساكين من أرض الشام فتمزق ملكه واختلف ورثته على تولية العرش .

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٦٧ .

المبحث الثاني

عجز المماليك عن الدفاع عن المدينة

وقف السلطان المملوكي المظفر سيف الدين قطز موقفًا مشرفًا للدفاع عن االديار المصرية ضد خطر التتار[١] ، خاصة وأن خطرهم آخذ يهدد بلاد الشام بشكل واضح منذ سقوط بغداد ٦٥٦هـ ثم أخذوا في الاستيلاء عليها مرحلة مرحلة ، إذ زحف هولاكو خان على ديار بكر ومنها إلى آمد وحلب ، ولما أدرك الناصر يوسف الأيوبي أنه أمام عدو متعطش للدماء وتخريب العمران استنجد بالأمراء المجاورين له في الشام ، كما استنجد بالمظفر قطز في مصر ، وعمل المماليك بهمة عالية على تعبئة جيوشهم، وعندما امتنع بعض الأمراء عن السير معه إلى بلاد الشام صاح فيهم متوعداً «يا أمراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزو كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن اللّه مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين »[٢] .

ووصلت طلائع المماليك مسرعة بقيادة الأمير بيبرس البندقداري إلى غزة فطبرية وهو أمر لم يتوقعوه أو يعملوا له حسابًا مما أدى إلى هزيمتهم في موقعة عين جالوت قرب بيسان -٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ، وتم طرد المغول من الشام كلها وأثبت المماليك صلاحيتهم لتولي المسئولية للدفاع عن منطقة

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٧/٤١٨ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء والقسم ، ص ٤٢٩ .

الشرق الأوسط في القرن الثالث عشر ، وكما شهد أول سلاطين الدولة المملوكية الأولى خطر هولاكو يقترب من الشام ويحتل دمشق ويتطلع إلى احتلال مصر ، فكذلك شهد أول سلاطين الدولة الثانية - التي نؤرخ لها - وهو برقوق خطر تيمورلنك الذي وصلت أخباره إلى مصر سنة ٧٨٨هـ .

وكان برقوق شخصية قوية استطاع أن يقف بحزم ضد أطماع تيمورلنك، فكون جبهة إسلامية موحدة لقتاله وبذلك أحجم تيمورلنك عن تطوير الهجوم على الشام ، واحتلال دمشق في عهد السلطان الظاهر ، وبموت برقوق سنة ٨٠١هـ وتولية ابنه فرج ، الذي فشل فشلاً ذريعًا في الدفاع عن الشام وتكوين جبهة متحدة كما فعل أبوه في الوقت الذي كانت قوات تيمور تتقدم صوب مرعش وعينتاب فلم يسرع فرج بإعداد قوات كافية والخروج لمقابلة العدو ، وإنما اكتفى بجمع قوات النيابات الشامية في حلب تحت قيادة الأمير سودون نائب دمشق ، وكان فرج غلامًا ضعيف الشخصية في العاشرة من عمره[1] فلم يستطع تدبير المال اللازم لإعداد الحملة العسكرية من ناحية ، كما أن أمراءه أبوا الخروج معه للحرب وبذلك كانت البداية سيئة والنهاية غاية في السوء إذ عجز المماليك عن الدفاع عن الشام وسقطت معظم مدنه تحت سنابك خيول المغول .

وتبدأ العلاقة بين تيمورلنك والمماليك - الذين يحكمون مصر والشام وتخضع لهم دمشق العاصمة الثانية لدولتهم المترامية الأطراف - ،

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٣٧٥ .

عندما تقدمت قوات تيمور واحتلت بغداد ثم انطلقت شمالاً فاحتلت تكريت في المحرم سنة ٧٩٦هـ ، ثم استسلمت لها الموصل والرها(*) ، فأرسل حاكم ماردين السلطان الملك الظاهر مجد الدين عيسى الأرتقي يعلم السلطان الظاهر برقوق سلطان المماليك في مصر بتحركات تيمورلنك ومطالبته بالخطبة والسكة باسمه ، فقدم رسل الملك الظاهر مجد الدين عيسى على برقوق تخبره بأن تيمورلنك آخذ منه تبريز ، وأرسل يستدعيه إلى عنده فاعتذر لمشاورة سلطان مصر ، فلم يقبل منه تيمور ذلك وقال له : « ليس لصاحب مصر بملكك حكم وأرسل إليه خلعة وسكة ينقش بها الذهب والدنانير »[١] .

ولكن المماليك لم ينتبهوا إلى حقيقة الخطر المتربص بهم ولم يهتموا برسالة صاحب ماردين حتى ان برقوق أرسل إلى الظاهر عيسى يطالبه بعدم خلع طاعته والخطبة له وختم رسالته بقوله « إلى أن نرى ما نختاره » .

وهذا يدل على قصر النظر ، وعدم تقدير العواقب ، وعدم تقدير الأخطار. ولما أحس صاحب ماردين بعدم حماسة المماليك في مصر وتكاسلهم عن مجابهة تيمور فاضطر الظاهر عيسى أن يرسل رسولاً إلى تيمورلنك يعلن له الخضوع والولاء في أواخر صفر ٧٩٦هـ ، ثم ذهب بنفسه مسرعًا لتقديم

(*) الرُها : مدينة بأرض الجزيرة بين الموصل والشام وهي بأعلى حران ، وهي الآن مدينة تركية. فهارس فتوح البلدان ، ص ٧٢٤ .

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٣٢٥ .

الولاء لتيمورلنك بمعسكره محملاً بالهدايا والأموال(*) ، ثم تحول تيمور بجيوشه في منطقة الجزيرة فاستولى على آمد(**) وميافارقين ، ثم انتهز فرصة مروره بالقرب من سيواس(***) ، فأرسل إلى حاكمها القاضي برهان الدين أحمد بن شمس الدين يطالبه بالولاء له وضرب السكة وإجراء الخطبة باسم السلطان محمود بن سيور غتمش صنيعة تيمورلنك ، وتسرع القاضي برهان الدين بقطع رؤوس الرسل الذين حملوا إليه الرسالة وأرسل يعلم السلطان برقوق بذلك ، وبعث الظاهر برقوق برسالة جوابية إلى القاضي برهان الدين يوافقه على تصرفه ويعده بتقديم يد العون إليه ، ولكن يبدو أن السلطان المملوكي لم يقدر حجم الخطر المغولي وأخطأت حساباته السياسية والعسكرية في تقدير أطماع تيمور مما كان له أوخم العواقب على الشام عامة ودمشق خاصة .

(*) قبض تيمورلنك على الظاهر عيسى وأودع السجن مكبلاً بقيود ثقيلة يزيد وزنها على خمسين رطلاً وتم اقتحام ماردين وتعيين الصالح شقيق الظاهر عيسى مكانه نائبًا عن تيمور ، ثم غض تيمورلنك عن الظاهر عيسى الأرتقي وسمح له بالعودة إلى حكم ماردين ، ويقال أن زوجة تيمور المحببة إلى قلبه (سراي ملك خانم) هي التي توسطت للظاهر عند زوجها ، وسمح له بحكم المناطق من أذربيجان إلى ديار بكر بعد أن أخذ منه عهدًا ويمينًا بالطلاق على الوفاء طيلة الحياة وإقامة الخطبة والسكة باسم تيمور .

المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٨٦٩ .

(**) آمد : قصبة ديار بكر على يمين نهر دجلة وهي الآن مدينة تركية .

فهارس فتوح البلدان : ص ٦٧٩ .

(***) سيواس : إقليم بالروم بينها وبين قيسارية ستون ميلاً وهي الآن مدينة تركية .

كما أن برقوق لم ينتبه إلى خطر الغزو المغولي رغم التحذير الثالث الذي أتاه من قبل السلطان بايزيد العثماني ، فلقد « حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد أبي يزيد بن مراد بك بن عثمان ملك الروم على يده تقادم عظيمة للسلطان ، وكان سبب مجيء قاصد بن عثمان أنه أرسل يخبر السلطان بأمر تيمورلنك ويحذره عن الغفلة في أمره »[١] .

وأخذ تيمورلنك يعد العدة للهجوم على الشام ومصر ، فأشاع عهداً من التسامح والرحمة والعطف مع حكام المناطق في العراق وإيران وأرض الجزيرة ومع السكان بصفة خاصة ، حتى يضمن ولاء هؤلاء الحكام مع رعاياهم له أثناء قتاله مع المماليك وأثناء غزوه للشام .

ويبدو أن الظاهر برقوق قد تنبه أخيراً لخطورة أعمال تيمورلنك العسكرية، ففي سنة ٧٩٧هـ ، جاءته الأخبار من مدينة حلب بأن المغول في طريقهم إلى قلب الشام ، وانهم استولوا على مدينة ارزنجان في بلاد الروم بالاضافة إلى استنجاد القاضي برهان الدين صاحب سيواس به ، فأصدر أوامره إلى الأمير سيف الدين تنبك الحسنى المشهور بالأمير تنم نائب دمشق بأن يعد جيشًا من سائر البلاد الشامية ويخرج إلى أرض الفرات ويحصن البلاد ، وأن يستعين في هذا العمل بكل نواب الشام[٢] ، كما أن عليه أن يقف بجانب صاحب سيواس القاضي برهان الدين[٣] . وبذلك كان رد الفعل عند برقوق

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٠٠ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٤٤ .

متأخراً إذا كان يستطيع ان يعد العدة لملاقاة المغول خاصة وأن كل الشواهد كانت تؤكد بما يدبره لمدينة دمشق خاصة وسائر بلاد الشام عامة .

ولكن الأقدار عجلت بوفاة برقوق في شوال سنة ٨٠١هـ وقد ولج المغول أبواب الشام متعطشين للقضاء على دولة المماليك ، وبايع الأمراء الناصر فرج بن برقوق بالسلطنة وعمره إثنا عشر سنة ، ولصغر سنه وقلة خبرته لم يكن مهيأ في هذه اللحظة التاريخية للوقوف في وجه تيمور من ناحية ، وللصمود أمام أطماع مماليك أبيه من ناحية أخرى الذين استصغروا شأنه ، كما أن المماليك لم ينتبهوا للخطر المحدق بهم من الشمال واستمروا في تدبير مؤامراتهم -كالعادة- ضد سلطانهم الصغير ، ومن هؤلاء المتآمرين الأمير تنم الذي أعلن العصيان لأنه اعتبر نفسه أحق بالسلطنة من فرج - حسب زعمه - في الوقت الذي كان يجب عليه بحكم مسئولياته كقائد لجيش الشام أن يتناسى خلافاته وأطماعه وان يتفرغ أولاً لصد جيش تيمورلنك ، ولكن تنم لم يهنأ طويلاً بحلم السلطنة إذ سرعان ما قبض عليه نائب قلعة دمشق وقتله جزاء خيانته للسلطان في رمضان سنة ٨٠٢هـ في محبسه بالقلعة ثم نقلت جثته إلى مقبرته ، وهكذا كان عصيان الأمير تنم في هذا الوقت بالذات بالإضافة إلى اختلاف المماليك في الشام على الأطماع والمغانم بالإضافة إلى الفرق المؤيدة لسلطنة فرج والمخالفة له ؛ كل ذلك فتح الطريق أمام المغول حتى استطاع تيمورلنك أن يحاصر قلعة دمشق بعد مقتل تنم لسنة واحدة[١] .

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢١٢ .

وكذلك لم يقدر كبار المماليك في القاهرة خطورة الوضع ، فانتشرت الفتن ووقع الإضطراب في عاصمة السلطنة وكان أشد هذه الفتن في شهر ربيع الأول سنة ٨٠٢هـ حيث وقع صدام مسلح بين فصيلين من الأمراء المماليك تزعم إحداهما ايتمش ، والفريق الآخر يشبك الدوادار .

وتشير المصادر التاريخية[١] المعاصرة لتلك الفترة إلى أن الأحوال في القاهرة بعد موت برقوق وفتنة ايتمش بقولهم « وصارت المدينة مائجة ليس بها حاكم ولا وال ولا حاجب ، والسلطان صغير ليس له حرمة ولا كلمة ، واضطربت الأحوال ، ولولا لطف الله تعالى بالناس لنهبوا القاهرة عن آخرها في هذه الحركة » .

ويبدو أن ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى صغر سن السلطان فرج بن برقوق وافتقاره إلى قوة الشخصية التي كانت لأبيه ، كما كان ضعيف الإرادة ، مستسلم بحكم صغر سنه لمماليك أبيه الذين اختلفت آراؤهم وتضاربت أطماعهم ، وفي تلك الأثناء في ٢٥ من المحرم سنة ٨٠٣هـ ، ورد البريد على السلطان من حلب بأن تيمورلنك استولى على مدينة ملطية ، ثم وصل البريد في اليوم الثاني بوصول مقدمة جيش تيمور على مدينة عينتاب . وفي الكتاب « أدركوا المسلمين وإلا هلكوا »[٢] .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٨٤ ؛ ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر ، ج ٢ ، ص ١٣٦ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٢٠ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ١٨٥ .

فاستدعى السلطان فرج بعد يومين الخليفة العباسي -المتوكل على الله-[١] والقضاة الأربعة والأمراء والأعيان لتتدبر في إعداد العدة لملاقاة المغول ، وكان السلطان فرج يقصد بهذا الاجتماع أخذ موافقة العلماء والقضاة على الاستيلاء على أموال التجار لتجهيز الجيوش ، ووقع الخلاف بين المجتمعين إذ كان رأي العلماء عدم مصادرة أموال التجار بدون وجه حق للأعمال العسكرية إلا إذا استنفدت الأموال الضخمة الموجودة بحوزة أمراء المماليك في قصورهم ، واستقر الرأي[٢] على إرسال الأمير اسنبغا الدوادار لكشف الأخبار وتجهيز عساكر الشام لمقاتلة تيمورلنك ، ورحل الأمير اسنبغا في ٥ صفر من سنة ٨٠٣هـ « ووقع التخاذل والتقاعد لاختلاف الكلمة وكثرة الآراء ، هذا وأهل البلاد الشامية في أمر لا يعلمه إلا الله ، مما داخلهم الرعب والخوف ، وقصد كل واحد أن يرحل من بلده، فمنعه من ذلك حاكم بلده ، ووعده بحضور العساكر المصرية والدفع عنهم »[٣].

وبعد أيام قدم البريد من الشام إلى مصر بكتاب من نائب حلب والأمير دمرداش المحمدي ومعه كتاب من الأمير اسنبغا الدوادار بأن تيمور يحث المسير إلى قلب الشام ووصل الخبر إلى مصر في ١٤ من صفر من نفس العام ، فتجهز السلطان فرج للسفر في ٣ من ربيع الأول بعد أن اعلمه اسنبغا الدوادار

---

(١) بدائع الزهور ، جـ ١ ، القسم الثاني ، ص ٥٩٣ .

(٢) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ١٨٦ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢١٨ .

أنه وصل إلى دمشق في ٧ من صفر وقرأ على الناس كتاب السلطان في الجامع الأموي وهو يتضمن تجهيز العساكر الشامية وخروجهم لقتال تيمور . كما أن الكتب المذكورة أخبرت بأن تيمور نزل بظاهر حلب وأنه قد اجتمع بها نواب الشام ، واستحثوا السلطان على الإسراع بالخروج من مصر خاصة وأن الأمير شيخ المحمودي نائب طرابلس اشتبك مع ثلاثة آلاف فارس من جيش تيمور ولم يكن تحت قيادته إلا سبعمائة فارس وبعد فترة من القتال تراجع كلا الفريقين إلى مواقعه وأن الأمير شيخ قبض على أربع من قادة التتار ، فوسطهم(*) على أبواب مدينة حلب ، وكان قد اجتمع بحلب من نواب الشام الأمير سودون بعساكر دمشق وأجنادها وشيخ المحمودي نائب طرابلس والأمير دقماق المحمدي نائب حماه وعربانها ، والطنبغا العثماني نائب صفد وعشائرها ، وعمر بن الطحان نائب غزة بعساكرها ، وعلى الرغم من كثافة عدد الجيش وشجاعة جنده التي كانت ستمكنهم من هزيمة تيمور إلا أن الكلمة متفرقة والعزائم فاترة لعدم وجود السلطان القوي الذي يستطيع قيادتهم . ولما طال انتظارهم ويئسوا من مجيء السلطان وتأكدوا ان الأحوال في مصر

(*) التوسيط : أحد العقوبات المنتشرة في العصر المملوكي ، وكان التوسيط أحد عقوبات الإعدام فيؤتى بالمذنب ويشد على الأرض من أطرافه ثم يضرب بسيف ثقيل حاد تحت السرة . ويطلق على هذه العقوبة اسم التوسيط . هذا عدا عقوبات أخرى متنوعة مثل : عصر أعضاء المذنب بين خشبتين حتى تتكسر عظامه أو خلع بعض أضراس المذنب وأسنانه ودقها في رأسه، أو تسخين طاسة من المعدن وإلباسها له في رأسه أو إجلاسه على مقعد معدني محمى بالنار ، وغير ذلك من العقوبات .

المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٠٥/٣٠٦ .

تسير من شيء إلى أسوأ ، فسلطان الدولة في سن صغيرة لا تمكنه من قيادة البلاد والسيطرة على المماليك بالإضافة إلى اختلاف الأمراء وضياع عزائمهم في تدبير المؤامرات ، فلم يقدروا أن يجابهوا تيمور . وكان من الواجب على السلطان فرج أن يسارع إلى نجدة الشام والاستعداد للحرب بمجرد وصول البريد إليه . ويصور لنا ابن إياس حال الناصر فرج في تلك الظروف العصيبة أصدق تصوير حيث يقول : « قيل لما علق السلطان الجاليش(*) بسبب خروجه إلى تيمورلنك ، ركب شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني والقضاة الأربعة وحاجب الحجاب ووالي القاهرة ونادوا في الشوارع بأن النفير عام بسبب قتال تيمورلنك ، فاضطربت أحوال القاهرة في ذلك اليوم جداً ، وكان الملك الناصر كلما طرقته هذه الأخبار يتغافل عنها ، ويتشاغل بشرب الراح وحب الملاح ، حتى تمكن تيمور من البلاد وعم فعله من الفساد »[١] .

وبدأ جيش الشام في حلب يستعد للنزال ، حتى نزل تيمور بجيوشه على قرية جيلان خارج حلب ، ودارت بينه وبين الحلبيين معارك كثيرة في يومي الخميس والجمعة التاسع والعاشر من شهر ربيع الأول ، ولم تمض غير ساعة حتى هزمت الجيوش المملوكية ، وتراجع القادة إلى القلعة وتحصنوا بها والتف حولهم خلائق من الحلبيين[٢] ، وكانوا قبل ذلك قد نقلوا إليها سائر أموال

(*) الجاليش : راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر ، كانت ترفع إيذانًا بالاستعداد للحرب واستعمل اللفظ بمعنى طليعة الجند .
النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ٢٣ .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

الناس بحلب ، وكأنهم كانوا يحسون بنذير الهزيمة .

وكان من نتيجة الهزيمة المفجعة أن مجزرة بشعة حدثت لأهل المدينة ، وأحاط بهم البلاء من كل صوب ، ولما احتموا بالمساجد، داهمهم تيمور وقواته حتى تحولت المساجد إلى مجازر للقتلى ، ولم يرحموا صغيراً ولم يرقوا لشكوى امرأة[١] ، ثم استسلم نواب الشام لتيمورلنك وطلبوا الأمان ، فلما حضروا بين يديه لم يظهر لهم العداوة حتى يتبين منهم حقيقة الأمور ، ويعرف أسرار المدن وتحصيناتها ، فخلع على كل منهم قباء من المخمل وألبسهم تيجاناً مذهبة وقال لهم أنتم صرتم نوابي ثم أرسل معهم جماعة من أمرائه يتسلمون القلعة فأنزلوا من كان بها مقيداً في الأغلال ، واستولوا على كل ما بها من الأموال[٢] . وأخيراً وبعد أن حقق تيمور هدفه من مدينة حلب أحضر النواب المماليك ووبخهم على قتالهم له وقتلهم لرسله إليهم وأكثر لهم الوعيد ، ثم قبض عليهم وقيدهم ، ودفع كل واحد منهم إلى من يحتفظ به وعلى رأسهم سودون نائب الشام كلها .

ويعكس لنا المؤرخون صورة قاتمة عن سبب سقوط حلب وهزيمة المماليك « بأن الروح المعنوية للجيش كانت مفقودة ، والأهواء مختلفة والآراء مقيدة مغلولة »[٣] . وبعد سبعة أيام من سقوط مدينة حلب استعد المماليك في مصر في الثامن عشر من شهر ربيع الأول وفرقت الجامكيات (المرتبات) على

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٣٢ .

المماليك السلطانية بسبب الخروج لحرب تيمور ، ثم ركب شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني وقاضي القضاة والأمير آقباي الحاجب ، وخرجوا إلى الناس ونودي بين أيديهم الجهاد في سبيل اللّه ضد المغول ، الذي قتل الأطفال على صدور النساء في حلب وأنه قاصدكم (يخرب بلادكم ويقتل رجالكم فاضطربت القاهرة)[١] .

وخرج الملك الناصر في مستهل ربيع الآخر من القاهرة وسار إلى الريدانية بأمرائه وعساكره والخليفة العباسي والقضاة ، ثم رحل من الريدانية في طريقه إلى الشام واستدعى بعض الأمراء ليستشيرهم في خطة المعركة ، ولعل من أهمهم الأمير تغري بردي وآقبغا الجمالي الأطروش ، ثم عين الأمير تغري بردي على نيابة دمشق ، بدلاً من الأمير سودون الذي وقع في أسر تيمورلنك في مدينة حلب ، ولقد وقع الخلاف بين المماليك في هذا اللقاء وفشلت أنجح خطة كان من الممكن أن توقع تيمورلنك في مصيدة تنصب له بإحكام ، ولكن المجلس انفض بعد أن وقع الاختلاف بين الأمراء نتيجة للأحقاد والتنافس فيما بينهم ، وعدم اهتمامهم بمصالح البلاد ، ذلك ان الأمير تغري بردي أشار على السلطان فرج بأن يظل مرابطًا في مدينة غزة ، ويتوجه تغري بردي إلى دمشق ويتحصن بها ويحرض أهلها على القتال وبها ما يكفي من المبرة والمؤن سنين طويلة ويعجز تيمور على اقتحام المدينة ، وجيشه ضخم لا يصبر على الانتظار مدة طويلة حول الأسوار ، وفي هذه الحالة ليس أمامه إلا طريقين ، إما أن يترك حصار دمشق ويتوجه إلى السلطان في غزة وعند ذلك يحصر بين

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٢٨ .

معسكرين ، وإما أن يعود إلى بلاده لقلة ما بيده من الميرة ولجهل عساكره بالبلاد والطرق ، وفي هذه الحالة يطارده السلطان إلى الفرات ، واستصوب المجتمعون هذه الخطة حتى يقال ان تيمور أعجب بها بعد أن عرف مضمونها بعد احتلاله دمشق ، ولكن الأمراء الحاقدين على الأمير تغري بردي اتهموه بالخيانة وأوعزوا إلى السلطان بأن تغري بردي يريد الاتفاق مع تيمور ضد السلطان وضاعت النصيحة بين حقد الحاقدين وخيانة الخائنين من الأمراء [١].

أما الحالة في دمشق فكانت في غاية السوء من الخوف والفزع من توقع وصول تيمور قبل مجيء السلطان فرج ، واكتساح مدينتهم مثلما حدث في حلب وحماه وسلمية وبعلبك . ومما أزعج سكان المدينة أن كبار رجال الإدارة المملوكية وعلى رأسهم نائب الغيبة[*] والحاجب بالفرار ، فلحق بهم العامة وأدركوهم عند قرية القبيبات في جنوب دمشق وردوهما بالسيوف ، ويقال أن النساء اشتركن مع الأولاد في ذلك .

كما هرب كثير من جند المماليك المكلفين بحراسة أبواب المدينة ، ولم يقف من المماليك موقفًا مشرفًا إلا قائد حامية قلعة دمشق الذي صمم على القتال حتى النهاية ، وعاب على أهل المدينة - بعد ذلك - رغبتهم في الصلح وتسليم دمشق إلى تيمورلنك .

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢١٩ .

(*) نائب الغيبة : مصطلح يطلق على النائب الذي يلي حكم المدينة أثناء غياب النائب الأصلي عنها لأي سبب من الأسباب .

ثم وصلت طلائع الجيش المملوكي إلى دمشق في السادس من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ . وكان لدخول السلطان أثر كبير في نفوس الناس الذين تجمعوا حول الجيش يبكون ويهتفون له بالنصر ، وعسكر السلطان عند قبة يلبغا[١] بظاهر المدينة وتهيأ للقاء تيمور ، ولما وصلت بعض طلائع جيش تيمورلنك ناحية جبل الثلج في نحو الألف فارس ، برز إليهم مائة فارس من عسكر السلطان فهزموهم وبددوا شملهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً وفر الباقون .

ويتردد عند المؤرخين المعاصرين[٢] لتلك الأحداث وغيرهم معلومات بسيطة عن الاحتكاكات العربية بين قوات تيمور وقوات السلطان فرج في الفترة من مستهل جمادى الأولى وحتى رحيل السلطان فجأة عن دمشق إلى القاهرة في العشرين من شهر جمادى الأولى من نفس السنة ، وترك المدينة فريسة لتيمور وجنوده ، ويذكر المؤرخون ان كلا الفريقين أخذ يستعد ويحفر الخنادق ويقيم الحواجز وينصب المتاريس ، ويبدو أنهم اشتركوا في هذه الآونة ، بين ثلاث أو أربع مرات ، وكانت المعارك سجالاً بينهما ، بينما حدثت بعض المفاوضات وتبودلت بعض الرسائل والوفود ، ولقد كرر تيمورلنك طلبه في الصلح واطلاق سراح اتلميش على أن يطلق ما بيده من أسرى المماليك -ولقد أشار على السلطان بقبول الصلح بعض الأمراء من أبرزهم الأمير تغري بردى ، ودمرداش وقطلو بغا الكركي لعلمهم بحال الجيش واختلاف كلمة الأمراء ،

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٣ .

(٢) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا ، ص ٣٦٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٣، ق ٣ ، ص ١٣٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٣٥ .

ولكن مجموعة من الأمراء أبوا ذلك وتظاهروا بالقوة وأبوا إلا القتال ورفض الصلح[١] .

ثم إن الأمير علي من خيار أمراء آل فضل وجمع من العربان لا يحصى عددهم من عربان حارثة وغيرهم من القبائل تجمع عند السلطان حتى قيل انه تجمع لديه نحو اثني عشر ألف إنسان غير العسكر القادم معه من مصر . وبدأت كل الدلائل المحيطة بالمعركة المترقبة تدل على أن النصر سيكون حليف الجيش المملوكي ، وفجأة فوجيء سكان دمشق خاصة والشام عامة برحيل السلطان الناصر فرج عن دمشق إلى الديار المصرية على حين غفلة تاركًا دمشق لمصير مخضب بالدماء ، ورحل معه الخليفة المتوكل العباسي وجماعة من النواب وهم نائب الشام ونائب صفد ونائب غزة وغالب أمراء دمشق ، ورحل معه من المماليك الخاصكية نحو ألف مملوك ، ورحل مع كل أمير مملوكان من مماليكهم .

ويبدو أن سبب ترك دمشق وتوجه السلطان إلى مصر أنه علم بأن في القاهرة مؤامرة تدبر ضده من بعض الأمراء لخلعه من العرش وتولية الأمير لاجين الجركسي[*][٢] ، وأن بعض الأمراء في جيش الشام من أعوان لاجين قد انطلقوا تحت جنح الليل إلى مصر للانضمام إلى أعوانهم من المتآمرين ،

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ٢١٩ ، ابن حجر العسقلاني ، ابناء الغمر ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ وما بعدها ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٣٢٨ .

(*) لاجين الجركسي ، سبقت ترجمته ص

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٢٩ .

ولقد تحقق السلطان من ذلك فعلم بأن سودون الناصري الطيار ، والأمير قاني بك العلائي[*] وجماعة من كبار المماليك السلطانية قد هربوا ، ويقول ابن تغري بردي أن المماليك المعادين لجبهة لاجين قد غصبوا على السلطان وأركبوه قهراً للمسير إلى مصر[١] .

وبذلك تركت دمشق لمصيرها المجهول ، وكان من الممكن أن يجرد السلطان جزءاً من جيشه بقيادة أخلص أعوانه ويرسله إلى مصر للقضاء على الثوار ويظل السلطان فرج بدمشق يدافع عن عاصمته الثانية وعن أهم إقليم في امبراطوريته إذ تعد الباب الشمالي للهجوم على الديار المصرية ، ويشير ابن تغردي بردي[٢] أن تيمورلنك كان قد عزم على الرحيل عن الشام ، فلما علم برحيل السلطان ، استعد استعداداً كبيراً منتهزاً هذه الفرصة للهجوم على دمشق ، ويعلق أحد المؤرخين على تصرف السلطان فرج بترك دمشق والسفر تحت جنح الليل إلى القاهرة بأن السلطان غير محق في هذا التصرف فإنه كان يعلم بأن « تمراز » نائب الغيبة بمصر كان يستطيع بالقوات الموجودة معه أن يقضي على حركة لاجين ، ويضيف قائلاً : « وترك العساكر والرعية غنمًا

(*) ويذكر ابن تغري بردي أن مجموعة كبيرة غير هؤلاء الأمراء قد فرت منهم يشبك العثماني وقمش الحافظي ويرسبغا الدوادار ، وطرباي في جماعة أخرى وأن المماليك قد عادوا إلى الاختلاف والتشاحن في الوظائف والاقطاعات والتحكم في الدولة وتركوا أمر تيمور كأنه لم يكن .

النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٣٥ .

(١) النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٧ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٢٥ .

بلا راع ، وقد تركوا دمشق أكلة لتيمور ، وكانت يوم ذاك من أحسن مدن الدنيا »[١] .

ولما أشيع في الجيش أن السلطان قد فر تحت جنح الليل يريد الديار المصرية – احتار كثير منهم في تفسير هذا الرحيل المفاجيء – وخرجوا في الحال ليلحقوا بالسلطان . ويقول ابن تغري بردي : « أخبرني غيرواحد من أعيان المماليك الظاهرية قالوا : لما بلغنا خروج السلطان ركبنا في الحال ، غير أنه لم يعقنا اللحاق به إلا كثرة السلاح الملقى على الأرض بالطريق مما رمتها المماليك السلطانية ليخففوا بذلك عن خيولهم ، فمن كان فرسه ناهضًا خرج وإلا لحقه أصحاب تيمور وأسروه . وممن أسر في هذه الليلة قاضي القضاة : صدر الدين[*] المناوي ومات في الأسر . وتتابع دخول المنقطعين من المماليك السلطانية إلى القاهرة من أسوأ حال من المشي والعري والجوع ، وأخذ كل واحد منهم ينجو[٢] بنفسه » .

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٣٥ .

(*) صدر الدين المناوي : قاضي القضاة ، محمد بن إبراهيم أبو المعالي الشرفي السلمي المناوي نسبه إلى منية النصر ، ولد في رمضان سنة ٧٤٢ هـ ، وناب في الحكم وهو شاب وولي القضاء بالديار المصرية فباشره بشهامة واستقامة سنة ٧٩١ هـ ، خرج مع جيش الناصر لقتال تيمور سنة ٨٠٣ هـ ، ثم وقع في الأسر ولم يحسن مداراة تيمور والتذلل له فأهانه وقيده ولم يطلق سراحه حتى مات غريقًا وجيش تيمور يعبر نهر الزاب بأعلى الفرات .
ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٣٤ ؛ السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ٢٤٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٠ .

المبحث الثالث

دور العلماء وطوائف العامة في الدفاع عن دمشق أمام عدوان تيمورلنك

أصبحت دمشق مدينة مفتوحة أمام الغزاة بعد رحيل الجيش المملوكي ، فلقد فوجيء سكان المدينة في صباح يوم الجمعة ، الحادي والعشرين من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ برحيل السلطان والأمراء ونائب دمشق ، فأسرعوا باغلاق أبواب المدينة ، وركبوا أسوارها ، ونادوا بالجهاد ، وتهيأوا للقتال وأصبح الدفاع عن المدينة مسئولية جماعية لكل طوائف السكان ، وسرعان ما زحف عليهم تيمور بعساكره ، وكان يتوقع أن تستسلم له المدينة خاصة بعد أن تركها المماليك ، ولكن الدمشقيون قاتلوه أشد القتال من أعلى الأسوار ، ولم يتوقع ذلك تيمور ، وسرعان ما ارتد عن السور والخندق بعد أن أسر منهم خلق كثير كان قد اقتحم باب المدينة على حين غفلة ، واستولى أهل المدينة على عدد كبير من الخيول وقتلوا من الغزاة قرابة الألف[١] .

ولما أحس تيمور أن المدينة لن تستسلم له سريعًا ، وأن العامة مصممون على الدفاع عنها يقودهم أهل الحل والعقد من كبار رجالها ، وأن الاستيلاء عليها سيكلفه عدداً كبيراً من أفراد جيشه ، فعمد إلى الحيلة وإظهار المهادنة حتى يتمكن من الاستيلاء عليها بأقل الخسائر الممكنة ، فبينما كان أهل

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٣٨ .

دمشق مشغولين بالقتال والاهتمام بتنظيم أنفسهم ، وتحصين أسوار مدينتهم، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور وصاحا من بعد « الأمير يريد الصلح ، فابعثور رجلاً عاقلاً حتى يحدثه الأمير بذلك »[1] . وكان ذلك أول الوهن وبداية طريق الهزيمة إذ رغب بعض أولي الأمر في الصلح من كبار العلماء الذين تحملوا المسؤولية بعد رحيل السلطان فرج ، ولو علموا حقيقة الأحوال لأدركوا أن دمشق مدينة قوية الأسوار والأبراج ذات قلعة حصينة ، وأنها بلد كثيرة الرزق والمؤن والمياه بالإضافة إلى قوة السكان وشدة بأسهم ، وكانت المدينة تستطيع الصمود أمام تيمورلنك .

واجتمع من أعيان المدينة : قاضي القضاة محيي الدين محمود بن العز الحنفي وولده القاضي شهاب الدين ، وقاضي القضاة تقي الدين[*] إبراهيم بن مفلح الحنبلي ، وقاضي القضاة شمس الدين محمد الحنبلي النابلسي[**] ، والقاضي ناصر الدين محمد بن الطيب كاتب السر ، والقاضي شهاب الدين

---

(١) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ص ١٥ .

(*) تقي الدين إبراهيم بن مفلح الدمشقي الحنبلي : شيخ الحنابلة الإمام الحافظ ، وقاضي القضاة الحنبلي تكلم في الصلح مع تيمور ، وكان يجيد التحدث باللغة الفارسية ، ثم توفي حزيناً متألماً بعد أن غدر تيمور به واستباح دمشق سنة ٨٠٣ هـ .

ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٤٨ .

(**) شمس الدين محمد بن محمد النابلسي الحنبلي ، الإمام العلامة ، ولي قضاء الحنابلة بدمشق عدة مرات ، كما درس بها بعدة مدارس واتصف بالعلم والذكاء وخفة الظل ، وتوفي بمنزله بالصالحية سنة ٨٠٥هـ .

شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٥٢ .

أحمد بن الشهيد الوزير ، والقاضي شهاب الدين الحسباني الشافعي ، والقاضي برهان الدين إبراهيم بن القوسي الحنفي نائب الحاكم ، وعبدالرحمن ابن خلدون(*) قاضي قضاة المالكية بمصر ، وكان قد حضر مع السلطان فرج ولم يتمكن من الرحيل معه فعاش أحداث المدينة ووقائعها ، واجتمع هؤلاء الأعيان للنظر في أمر الصلح . وبعد عدة مشاورات قرروا الذهاب إلى تيمور وإجراء مفاوضات الصلح معه وتسليم المدينة إليه .

وبهذا القرار صار أهل دمشق مسئولين عن مصير مدينتهم ، ولما تم أخذ القرار بالموافقة على الصلح ، وقع اختيار أهل الحل والعقد على القاضي تقي الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الدمشقي ليكون رئيسًا لوفد المفاوضات ، فأرخى من سور المدينة ومعه خمسة من أعضاء الوفد وذهبوا به لمقابلة تيمور الذي خدعه في اللقاء الأول بينهما بهدوئه وكرمه وحسن كلامه وقال له تيمور « هذه بلد الأنبياء والصحابة ، وقد اعتقتها لرسول الله ﷺ صدقة عني وعن أولادي ، ولولا حنقي على سودون نائب دمشق عن قتله لرسولي ما أتيتها ، وقد صار سودون في قبضتي ومن أسراي ، وقد كان الغرض في مجيئي إلى هنا ، ولم يبق لي غرض إلا الرجوع

(***) عبدالرحمن بن خلدون : قاضي قضاة المالكية بمصر ، ولد بمدينة تونس في رمضان ٧٣٢هـ ، وذهب إلى مصر سنة ٧٨٤هـ . رافق الجيش المملوكي إلى دمشق ، وكان ضمن أعضاء وفد الصلح ، أعجب به تيمورلنك ، ورغب في أن ينضم إلى حاشيته ولكنه نجح في الهروب منه بحيلة بارعة ، توفي بالقاهرة ودفن بها بمقابر الصوفية خارج باب النصر ت ٨٠٨ هـ .
شذرات الذهب ، مصدر سبق ذكره ، ج ٧ ، ص ٧٦ .

ولكن لا بد من أخذ عادتي من الطقـزات(*) »(١) .

ويقـول ابن عرب شاه أنه في هذا اللقاء ذكر الله كثيراً ، واستغفر لذنبه وأن حبات المسبحة لم تفارق أنامله ، ولا نجد تعليقًا على هذا اللقاء أكثر مما ذكره عنه ابن عرب شاه(٢) إذ ذكر بيتًا واحداً من الشعر يعبر عن ذلك :

قد بلينا بأميـر ظلـم النــاس وسـبح

فهو كالجزار فيهم ، يذكر الله ويذبح

ولقد انقسم الناس في دمشق بين مؤيد ومعارض لرأي ابن مفلح الحنبلي وصحبه وأن جمعًا كبيراً من أهل دمشق أصر على القتال ومخالفة رأي ابن مفلح بعد عودته(٣) .

ولقد صور ابن خلدون أخبار هذه المقابلة - من وجهة نظره - محاولاً في هذا التصوير أن يبرز لنفسه دوراً هامًا مع أنه لم يكن إلا مجرد ضيف على المدينة وليس من أهلها ، موضحًا أنه كان الوحيد المكلف من أعضاء الوفد بالحديث وليس ابن مفلح ، ولكننا نشك في قيام ابن خلدون بهذا الدور ليس تقليلاً لمكانته ورجاحة عقله وذكائه وإنما لأن ابن مفلح كان رئيسًا للوفد وهو

---

(١) السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٤٦ .

(*) الطقزات : الطقز بالتركية معناه الرقم (٩) ، وكان من عادة التتار إذا أخذوا مدينة صلحًا أن يخرج أهلها من كل نوع من أنواع المأكولات والمشروبات والدواب والملابس والتحف تسعة .
ابن عرب شاه : عجائب المقدور ، ص ٢٥١ .

(٢) عجائب المقدور ، ص ٢٥٢ .

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٤٦ .

صاحب الحق الأول في إدارة المفاوضات بالإضافة إلى إجادته للغة الفارسية التي يحسنها تيمور .

يقول ابن خلدون أنه أدلى به مع أعضاء الوفد من أعلى السور من ناحية الباب الصغير ، ولقد استقبلهم عند السور أحد قواد تيمور ويدعى شاه ملك ليصحبهم لمقابلة الخان ، ولما أدخل الوفد الدمشقي على تيمورلنك وكان متكئاً على مرفقه ، فرفع رأسه إليهم ومد الخان يده فقبلها ابن خلدون ، وظل أعضاء الوفد برهة وقوفًا وقد استبد بهم الخوف والقلق ، ثم سمح لهم بالجلوس ، وأخذ تيمور يجول بينهم بناظريه وهو يتبسم ويراقب أحوالهم وردود أفعالهم ، ثم مدت موائد الطعام وكان لحمًا مسلوقًا ، فأكل بعضهم وامتنع البعض الآخر عن تناول الطعام ، ويقول ابن خلدون إن أعضاء الوفد قد اتفقوا معه عند السور على أن يتكلم باسمهم أمام خان المغول كما أنه قد لفت نظر تيمور بلباسه المغربي الذي يختلف عن بقية أفراد الوفد إذ كان يرتدي البرنس(*) ويضع على رأسه عمامة خفيفة مما دفع تيمور إلى الاعتقاد بأنه رجل غريب عن دمشق ، ويقول ابن خلدون أنه قال لتيمور بصوت عالٍ أثناء الحديث الذي دار بعد تناول الطعام : أنه قد كتب التاريخ وتحدث فيه عن أخبار الملوك وشاهد كثيراً من الحكام والسلاطين ، ولكنه والحمد لله الذي منَّ عليه بطول الحياة حتى رأى -من هو الملك الحقيقي- وأعجب تيمور باطراء ابن خلدون وحسن ذوقه ، وكان

(*) البرنس : غطاء للرأس يرتديه المغاربة ، وكانت ترتديه قبائل البرانس وكانت القبائل المغربية التي لا ترتدي غطاء للرأس تسمى قبائل البتر .

حسين مؤنس ، فتح المغرب ، ص ١٤٥ .

الفقيه عبد الجبار بن النعمان المعتزلي أحد رجال الحاشية يترجم للخان ، وسأل تيمورلنك ابن خلدون عن سبب قدومه إلى المشرق ثم أخذ يستوضح منه أحوال المغرب وحكامه ودوله ومدنه ، ويقول أنه طلب فيه أن يكتب له كتابًا عن تاريخ المغرب وطلب منه أن يكون فرداً من أفراد حاشيته [١].

وفي دمشق استقر رأي الناس على إتمام الصلح وموافقة ابن مفلح القاضي الحنبلي رئيس الوفد على رأيه .

ولما علم بذلك تيمور ، قدم رسول من عنده لطلب الطقزات المتفق عليها ، فاستدعى ابن مفلح القضاة والفقهاء والأعيان والتجار ، وجمع لتيمورلنك ما طلبه وساروا به إلى باب النصر ليحمل إلى تيمور ، فمنعهم نائب القلعة وهددهم بحرق المدينة إن فعلوا ذلك ولكنهم أهملوا نصيحته وقالوا له : « أنت تحكم على قلعتك ونحن نحكم على بلدنا »[٢] .

واخرجوا الطقزات من السور ، وتدلى ابن مفلح من السور للمرة الثانية ومعه عدد من أعيان دمشق وتوجهوا إلى معسكر تيمورلنك ، ثم عادوا صباح الأحد سنة ٨٠١هـ ، ومعهم فرمان من تيمور من تسعة أسطر يتضمن منح الأمان لدمشق وسكانها ، فقريء الفرمان على جامع دمشق ، وعلى إثر ذلك ثم فتح الباب الصغير من أسوار المدينة ، واستقر عليه أمير من أمراء جيش تيمور ليحد من دخول الجند المغولي إلى المدينة ، وفي هذه المقابلة أظهر تيمور

---

(١) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا ، ص ٣٧٠ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

الود والحب لدمشق وسكانها ، ولكن ذلك وللأسف كان جزءاً من المكيدة التي يدبرها الخان للمدينة وأهلها - وهيهات لهم أن يفطنوا إلى ألاعيب الساسة ومكر السفاحين الذين لا يحترمون مواثيقهم ولا معاهداتهم - ولذلك لما عاد الوفد إلى دمشق تحدثوا كثيراً عن أخلاق تيمور وجميل صفاته وحسن فضائله ، ودعوا العامة لطاعته وحسن استقبال جنود المغول وحثوا الناس على جمع الأموال المقررة على المدينة ومقدارها ألف ألف دينار[١] ، فتم جمعها على وجه السرعة فالناس كانوا في أيسر حال وأطيب عيش .

وكان من شروط تيمور على أعضاء الوفد أن يحمل إليه كل ما تركه السلطان[٢] ، وأمراؤه قبل انسحابهم من دمشق من أموال ودواب ومماليك ، ثم عين ملك شاه حاكمًا عسكريًا على المدينة ، وعين بعض أعضاء الوفد في عدة وظائف إدارية ودينية كالقضاء والحجابة والدواوين واستخراج الأموال ، وبدأ تيمور ينظم تدبير خطته ويحكم تنفيذها خطوة بخطوة ، فزاد في نقط الحراسة الموجودة على الباب الصغير ، وبدأت أعمال الدوريات المغولية تطوف بالمدينة للاشراف على جميع الأموال من ناحية ، وللتعرف على شوارعها ودروبها من ناحية أخرى ، وزيادة في غرس الأمان في نفوس الناس وزيادة اطمئنانهم ، وكان يتم شنق بعض الجنود من المغول في ميادين دمشق بحجة اعتدائهم على ممتلكات الناس ، ولكنها في الحقيقة كانت مجرد عمليات صورية غير حقيقية. وأخيراً حضر تيمور إلى المدينة واستقبله حاكمها العسكري وأدى صلاة الجمعة

---

(١) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٤٧ .

في الجامع الأموي ، وبدأ يظهر لسكان دمشق الوجه الآخر القبيح للمغول ، وبدأت البدايات الأولى لنقض العهد ، فيقال أنه في أحد المقابلات وأثناء تقديم بعض الأموال المطلوبة إلى الخان الأعظم ، غضب غضبًا شديداً وأمر ابن مفلح ومن معه بالخروج من أمامه ، وعوملوا في الخارج أسوأ معاملة وبينوا لهم أنهم أخطأوا في فهم ما طلبه منهم تيمور وأن المطلوب منهم تسديده على وجه السرعة عشرة آلاف ألف دينار فالتزموا بذلك وفرضوها على الناس ، وألزموا كل إنسان من ذكر وأنثى حر أو عبد بعشرة دراهم ، كما أخذوا أجرة الأملاك - ثلاثة أشهر مقدمًا - وحصلوا على كثير من أموال الأوقاف ، حتى وقع للناس بلاء عظيم وعوقب كثير من السكان بالضرب المبرح(١) ، وغلت الأقوات وشحت الأرزاق ، وبلغ المد من القمح أربعين درهم فضة ولم يسمح للناس بإقامة صلاة الجمع حتى يدعى على منابر دمشق « لسيور غتمش خان » ولولي عهد تيمور . وبعد أن استنفذ تيمور كل ما طلبه من أعضاء الوفد تظاهر بالحنق عليهم لعدم تنفيذهم كافة شروطه فقبض عليهم وقيدهم بالحديد .

واستطاع تيمور بعد ذلك أن يقبض بيديه على زمام المدينة ويعمل في أهلها السيف وفي منشآتها الحضارية النار . وظلت المدينة ثمانين يومًا مستباحة للجنود المغول حتى فنى كثير من أهلها وماتوا جراء التعذيب ، ومع ذلك قام الباقون من الأحياء من سكان المدينة على الرغم من كل

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٤١ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص٣٣٢ .

الظروف التي أحاطت بهم وتولوا الدفاع عن مدينتهم وحاولوا ما وسعتهم الحيلة سلمًا أو حربًا ، ولعل أصدق دليل على بطولة المدينة وسكانها ذلك البطل الدمشقي الذي حفظت كتب التاريخ اسمه وهو (شهاب الدين أحمد(*) الزردكاش)[١] ، الذي كان من أشجع المقاتلين ، وقاد فريقًا من السكان أقض مضاجع قوات تيمور وقتل كثيراً من المغول ، وأخيراً قبض عليه المغول وأخذوه أسيراً إلى سمرقند . ويقال إن تيمور لما شاهده قال له : « إنك أفنيت صاغيتي ، وحصيت غاشيتي ، وقصيت حاشيتي ، فإن قتلتك مرة واحدة لا يشفي عليلي ولا يبرد غليلي ولكن أعذبك على كبر سنك وأزيدك كسراً على كسرك ووهنًا على وهنك ، فقيده بقيد من فوق ركبتيه زنته سبعة أرطال ونصف رطل بالدمشقي ، وقصد بذلك التشديد عليه ، فلم يزل مقيداً مكتوبًا على قيده مخلداً أبدا ، حتى مات تيمور »[٢] .

وهكذا دافع أهل دمشق عن مدينتهم دفاعًا مستميتًا قبل الصلح ، ولما أحس تيمور أنه سيفقد الكثير من جنود جيشه حتى يتم دخول المدينة ، استعمل الحيلة والمكر حتى دخل المدينة صلحًا ، واستطاع أن يغرر بأهلها وحولها إلى خرائب في ثمانين يومًا ، ولكن عناصر السكان لم تستسلم لهذه الخيانة واستمرت تقاوم تيمور حتى غادرها إلى سمرقند بعد أن أعاد إلى الأذهان الذكريات المريرة التي حملتها دمشق لأسلافه الغزاة .

(*) شهاب الزردكاش : لم أعثر له على ترجمة ويبدو أنه كان من زعماء العامة في دمشق ولم يُؤرخ له .

(١) ابن عرب شاه : عجائب المقدور ، المقدمة ، ص ٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ .

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

فبعد كتابة هذا البحث عن (مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية) توصلت بعون الله وتوفيقه إلى النتائج الآتية :

١ - إن دولة المماليك البحرية التي حكمت مصر والشام والحجاز (٦٤٨-٧٨٤هـ) ، كانت أكثر استقراراً من دولة المماليك الجراكسة التي حكمت نفس النطاق الجغرافي (٧٨٤-٩٢٣هـ) .

٢ - إننا ما زلنا في أقطار عربية متعددة في ثقافتنا وتفكيرنا وكثير من عاداتنا متصلون اتصالاً وثيقًا بالعصر المملوكي .

أ - فأسواقنا وحماماتنا وخاناتنا وجوامعنا ومساجدنا ومدارسنا أغلبها مملوكية .

ب - وإذا رجعنا إلى حياتنا الفكرية والعلمية نجد أنفسنا خاضعين في تفكيرنا إلى حد كبير لمصنفات العصر المملوكي العلمية .

جـ - ففي علم النحو واللغة كتب ابن هشام ت ٧٦١هـ قطر الندى ، وشذور الذهب ، والتوضيح ، ومغني اللبيب ، وهي مملوكية .

د - علوم البلاغة التي ندرسها في مدارسنا وجامعاتنا ترجع كلها إلى متن التلخيص الذي وضعه جلال الدين القزويني الدمشقي ت ٧٩٩ هـ .

أما معاجم اللغة العربية فأكثرها استعمالاً هي لسان العرب لابن منظور ت٧١١هـ ، والمختار والمصباح .

هـ - وفي علوم الدين يرجع الفقهاء إلى كتب النووي ت ٦٧٧هـ ، والسبكي ٧٥٦ هـ ، وابن تيمية وابن القيم الجوزية والسخاوي والسيوطي .

و - وفي الثقافة العامة والتاريخ نرجع إلى مؤلفات النويري ت٧٣٢هـ، والقلقشندي ت٨٢١هـ ، وابن خلكان ت٦٨١هـ ، وابن شاكر الكتبي ت٧٦٤هـ، وابن كثير ت٧٧٤هـ، والمقريزي ت٨٨٠هـ .

٣ - إن العلماء والفقهاء ومياسير التجار كانوا من الفئات صاحبة الامتيازات في مجتمع المدن المملوكية لعوامل ثقافية واجتماعية وتاريخية واقتصادية وكانوا واسطة العقد بين المماليك وسائر الفئات .

٤ - إن طبقة العامة التي تكونت من السوقة والزعار وصغار التجار والحرفيين والصناع والزراع والبدو ، كانت من الفئات المطحونة ، ولقد حاولت قدر امكاناتها القيام بالانتفاضات الشعبية للحصول على أبسط حقوقها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

٥ - إن مدينة دمشق كانت بين الشام آنذاك هي واسطة العقد والعاصمة الثانية للدولة المملوكية ، وهي قصبة الديار ، ونائبها سلطان (مختصر) على حد تعبير القلقشندي .

٦ - إن المماليك اختصوا أنفسهم بوظائف القيادة العسكرية والسياسية وحرموا منها سائر الطبقات وحكموا البلاد بالقوة العسكرية الغاشمة .

٧ - تولى كثير من العلماء الوظائف الدينية كالقضاء والفتيا ونقابة الاشراف والتدريس والإمامة وكان غالبيتهم من العلماء العاملين .

٨ - قام العلماء بدور سياسي هام في توعية الجماهير وكانوا هم العقل المفكر لكثير من الثورات والانتفاضات التي قامت في دمشق .

٩ - كانت طوائف العامة هي وقود الثورات والانتفاضات في دمشق وقدمت كثيراً من الشهداء في صراعها مع المماليك .

١٠ - اتسم عصر المماليك بكثير من المشكلات التي أرهقت الجماهير وأشعلت عهدهم بالتمرد السياسي كالتلاعب في أوزان العملة ، وكثرة المكوس.

١١ - استغل العامة الصراع بين الأمراء المماليك في تحقيق مكاسب سياسية لهم .

١٢ - إن إرادة الشعوب قوة لا تقهر عرف هذه الحقيقة أحد سفاحي التاريخ (تيمورلنك) فحاول استمالة أهل دمشق ثم غرر بهم ، ولكنهم قاوموه، وضحوا من أجل مدينتهم .

الملاحق

الملحق الأول : قائمة بأسماء أبرز ولاة دمشق في عصر دولة المماليك الثانية .

الملحق الثاني : مدينة دمشق في عصر الدراسة ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ .

الملحق الأول

قائمة بأسماء

أبرز ولاة دمشق في عصر دولة المماليك الثانية

تداخلت فترات حكم الولاة في دمشق نتيجة لكثرة الثورات وتدبير المؤامرات ، وكثرة التعيين والعزل ، حتى ان بعضهم تولى حكم المدينة لعدة شهور ، كما أن بعض المصادر صمتت عن ذكر أسماء الولاة في بعض الفترات التاريخية ، كما أن أحداث غزو تيمورلنك قد حدثت آنذاك وأحدثت كثيراً من الفوضى السياسية ، وهذه الأسماء هي غاية ما استطعنا الحصول عليه ، لأسماء بعض الولاة في عهد دولة المماليك الثانية .

الوالي	تاريخ تعيينه	ملاحظات
١- بَيْدمر الخوارزمي	تولى ولاية المدينة عام ٧٨٦هـ للمرة السادسة .	قتل بقلعة دمشق ودفن باليونية بالشرف الأعلى .
٢- الأمير سيف الدين اشقتمر الماريديني الناصري	٧٨٨ هـ	مات بحلب بعد عزله سنة ٧٩١هـ.
٣- علاء الدين الطُنبغا الجوباني اليلبغاوي	تولى نيابة دمشق مرتين لأولى في صفر ٧٨٩هـ ، والثانية في منتصف سنة ٧٩١هـ .	قتل أثناء الصراع على العرش مع الأمير منطاش سنة ٧٩٢ هـ .
٤- الأمير سيف الدين طرنَطَايْ	٧٩٠ هـ	قتل في معركة شقحب ٧٩٢هـ بجوار حلب وكان في معية برقوق.

الـــــوالــي	تاريخ تعيينـــه	ملاحظـات
٥- الأمير جَنْتَمر	تولى نيابة دمشق مرتين أوائل سنة ٧٩١هـ حتـى شعبان ٧٩٢ هـ	قتل بقلعة دمشق بأمر من الظاهر برقوق .
٦- يلبغا الناصري	٧٩٣ هـ	أعدم بعد ثورته على برقوق .
٧- الأمير سيف الدين بُطا الطولوتمري الظاهري	شهر ذي الحجة ٧٩٣هـ حتى منتصف المحرم ٧٩٤هـ	قتل مسموماً واتهم برقوق قتله .
٨- الأمير سيف الدين سودون الطرنطائي	٢٧ من المحرم ٧٩٤هـ حتى شعبان ٧٩٤ هـ	توفي بدمشق .
٩- الأمير كمشبغا الأشرفي الخاصكي	مستهل رمضــان ٧٩٤هـ إلى أواخر ذي الحجة من نفس العام	توفي بدمشق .
١٠-الأمير سيف الدين تنبك الحسني الظاهري المشهور بالأمير تنم	المحرم ٧٩٥هـ إلى سنة ٨٠٢هـ	قتل في١٤رمضان بحبســه بقلعــة دمشـق .
١١-الأمير سيف الدين سودون الظاهري الدوادار	تولى بعد تنبك الحسني٨٠٢هـ	قبض عليه برقوق وأعدمه آخر شوال ٨٠٣هـ .
١٢-الأمير تغري بردي الكمشبغاوي الرومي	تولى سنة ٨٠٢هـ ثم تولى نيابة دمشق عدة مرات آخرها سنة ٨١٥ هـ .	توفي بدمشق .

الملحق الثاني

خريطة لمدينة دمشق
في عصر فترة الدراسة
٧٨٤ - ٩٢٣ هـ

نقلا عن مارفين لابيدوس : مدن الشام .

المصادر والمراجع

اعتمدت في ترتيب المصادر والمراجع على الترتيب الهجائي بعد حذف : ال ، ابن، أبو ، أم ، مع مراعاة الترتيب على لقب الشهرة للمصنف ، ونسبته إلى جده أو أبيه أو بلده ، كما اعتمدت في ترتيب المراجع على الترتيب الهجائي أيضاً مع الترتيب بالاسم الأول .

أولاً : المصادر :

١ - القرآن الكريم .

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي ت ٩٣٠هـ)

٢ - بدائع الزهور في وقائع الدهور .

ط بولاق ١٣١٢هـ . الأجزاء من ١/ ٤ ،

نشر محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠م .

ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد بن عبدالله ، ت ٧٧٩هـ)

٣ - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

باريس ١٩٦٨م . طبعة دار صادر بيوت .

ابو البقاء البدري (عبدالله بن محمد) .

٤ - نزهة الأنام في محاسن الشام .

المطبعة السلفية . القاهرة ، ١٣٤١ هـ .

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر ، ت ٢٧٩ هـ) .

٥ - فتوح البلدان .

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م .

ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف ، ت ٨٧٤ هـ).

٦ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

دار الكتب المصرية القاهرة . الأجزاء من ١-١٢ .

والأجزاء من ١٣ - ١٦ القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٢م .

٧ - المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي .

الهيئة المصرية العامة ، القاهرة .

الجوهري ، الخطيب ت هـ .

٨ - نزهة النفوس والأبدان .

تحقيق حسن حبشي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

ابن الحاج (أبو عبدالله محمد بن محمد العبدري ، ت ٧٣٧هـ) .

٩ - المدخل مدخل الشرع الشريف على المذاهب .

القاهرة - المطبعة العامرية ١٩٢٩م .

إبن حجر العسقلاني (الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي ، ت ٨٥٢هـ).

١٠ - انباء الغمر بأبناء العمر .

٣ أجزاء ، تحقيق حسن حبش ، القاهرة ٦٩/١٩٧٢م .

١١ - الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .

٥ أجزاء ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦م .

الحنبلي (مجير الدين ، ت ٩٢٨هـ) .

١٢ - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل

مكتبة المحتسب ، عمان ، الأردن ، ١٩٧٣م .

إبن خلدون (عبدالرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨ هـ) .

١٣ - العبر وديوان المبتدأ والخبر .

٧ أجزاء ، مطبعة دار الطباعة العامرية القاهرة ، ١٢٨٤ هـ .

١٤ - التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا .

المغرب ، ابن تاويت الطنجي ، ١٤٠٣هـ .

إبن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، ت٨٠٩هـ)

١٥ - الانتصار لواسطة عقد الأمصار .

ج ٤ ، ٥ ، القسم الأول والثاني ، طبع بولاق ١٣٠٩هـ .

إبن زنبل الرمال (أبو عبدالله محمد بن سعيد) .

١٦ - آخـرة المماليك .

القاهرة ١٢٧٨ هـ .

السبكي (عبدالوهاب بن علي ، ت ٧٧١هـ) .

١٧ - معيد النعم ومبيد النقم .

تحقيق محمد النجار ، أبو زيد شلبي ، القاهرة ١٩٤٨م .

١٨ - طبقات الشافعية الكبرى .

٦ أجزاء ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ١٣٢٤هـ .

السخاوي (شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد ، ت ٩٠٢ هـ).

١٩ - التبر المسبوك في ذيل السلوك .

ط بولاق ، ١٨٩٦ م .

٢٠ - الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع .

١٢ جزء ، القاهرة ١٣٥٥ هـ .

السيوطي (عبدالرحمن بن أبي بكر ، ت ٩١١ هـ) .

٢١ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .

جزءان ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ .

إبن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد) .

٢٢ - فوات الوفيات .

جزءان ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، بطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥١ م .

ابن شاهين (غرس الدين خليل ، ت ٨٧٢ هـ)

٢٣ - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .

نشر بول رافيس ، ١٨٩٤ م .

أبو شامة (عبدالرحمن بن إسماعيل بن شهاب الدين الشافعي الدمشقي ت ٦٦٥هـ) .

٢٤ - كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية.

جزءان ، القاهرة ، ١٢٨٧هـ .

ابن شداد (عز الدين بن علي بن إبراهيم)

٢٥ - الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة .

٣ أجزاء ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٣م .

الشعراني ،

٢٦ - لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار .

مكتبة النهضة ، القاهرة .

إبن الصيرفي (علي بن داود الجوهري ، ت ٩٠٠ هـ) .

٢٧ - نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان .

تحقيق حسن حبش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ٣ أجزاء ، ١٩٧٠/١٩٧١م .

٢٨ - إنباء الهصر في أبناء العصر .

تحقيق حسن حبش ، القاهرة ١٩٧٠م .

إبن طولون الصالحي .

٢٩ - مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تاريخ مصر والشام .

جزءان ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢م .

٣٠ - قضاة دمشق .

تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٥٦م .

إبن عرب شاه (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي ، ت ٨٥٤ هـ) .

٣١ - عجائب المقدور في نوائب تيمور .

تحقيق أحمد فايز الحمصي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٦م .

إبن العماد (أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي ، ت ١٠٨٩هـ) .

٣٢ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب .

ط مصر ، مكتبة القدس ، ١٣٥٠ هـ .

العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ، ت ٧٤٩ هـ) .

٣٣ - التعريف بالمصطلح الشريف .

القاهرة ١٣١٢هـ .

العيني (بدر الدين محمود بن أحمد ، ت ٨٥٥ هـ) .

٣٤ - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان .

الجزء المحقق .

القاسمي (محمد سعيد بن قاسم) .

٣٥ - قاموس الصناعات الشامية .

جزءان ، تحقيق ظافر القاسمي ، ١٩٦٠م .

إبن قاضي شهبة(بدر الدين أبو الفضل محمد بن تقي الدين، ت٨٧٤هـ).

٣٦ - الإعلام بتاريخ الإسلام .

طبع منه جزءان - دمشق .

القلقشندي (شهاب الدين أحمد أبو العباس بن علي ، ت ٨٢١هـ).

٣٧ - صبح الأعشى في صناعة الانشا .

ط دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٣١هـ / ١٩١٩ م .

إبن كثير الدمشقي (عماد الدين إسماعيل بن عمر ، ت ٧٧٤ هـ) .

٣٨ - البداية والنهاية .

دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٨هـ ،

الطبعة الرابعة ، بتحقيق مجموعة من الأساتذة .

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ، ت ٨٤٥ هـ) .

٣٩ - السلوك لمعرفة دول الملوك .

ج ١ ، ج ٢ ، ٦ أقسام ، تحقيق د/زيادة ،

ج ٣ ، ج ٤ ، تحقيق د/ سعيد عاشور .

٤٠ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

طبعة بولاق في جزئين ١٢٧٠هـ ، طبعة أصلية في أربعة أجزاء ١٩٠٧م .

٤١ - إغاثة الأمة بكشف الغمة .

تحقيق ونشر د/ زيادة و د/ الشيال ، القاهرة ، ١٩٠٧م .

النعيمي (عبدالقادر محمد بن عمر) .

٤٢ - الدارس في تاريخ المدارس .

جزءان ، تحقيق جعفر الحسيني ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٤٨م .

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب ، ت ٧٣٢ هـ) .

٤٣ - نهاية الأرب في فنون الأدب .

الطبعة الأولى ، دار الكتب المصرية ، ١٣٤٧هـ / ١٩٢٦م .

ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله ، ت ٦٢٦ هـ) .

٤٤ - معجم البلدان .

١٠ أجزاء ، ط دار السعادة ، القاهرة ١٩٠٧م .

ثانياً: المـراجـــع:

إبراهيم علي طرخان .

١ - النظم الاقطاعية في الشـرق الأوسـط فـي العصـور الوسـطى .

دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٨م .

٢ - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة .

مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠م .

أحمد كمال .

٣ - الطريق إلى دمشق .

دار النفائس ، بيروت .

د/ أحمد مختار العبادي .

٤ - قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام .

الاسكندرية ، ١٩٨٨م .

د/ أس ترتـون .

٥ - أهل الذمـة في الاســلام .

ترجمة وتعليق د/ حسن حبش . دار المعارف بمصر ، ١٩٦٧م .

د/ السيد الباز العريني .

٦ - الاقطاع الحربي زمن سلاطين المماليك .

القاهرة ، ١٩٥٦م .

٧ - المماليـــك .

دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٧م .

د/ جمال الدين سرور .

٨ - دولة بني قلاوون في مصر .

القاهرة ، ١٩٤٧م .

د/ حسن الباشا .

٩ - الألقاب الاسلاميـة .

القاهرة ، ١٩٥٧م .

حكيم أمين عبد الســيد .

١٠ - قيام دولة المماليك الثانية .

دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٧م .

سوفاجية جان .

١١ - دمشق الشــام .

ترجمة فؤاد البستاني ، بيروت ١٩٣٦م .

سعيد عبد الفتاح عاشور .

١٢ - مصر في عصر دولة المماليك البحرية .

سلسلة الألف كتاب ، القاهرة .

١٣ - العصر المماليكي في مصر والشام .

القاهرة ، ١٩٩٥م .

١٤ - الظاهر بيبرس .

أعلام العرب ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

١٥ - المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك .

النهضة العربية ، القاهرة .

ساويرس .

١٦ - سير الآباء البطاركة .

ترجمة : حسن حبش ، القاهرة ، بدون تاريخ .

صبحي لبيب .

١٧ - التجارة الكارمية .

المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٤ ، عدد ، القاهرة ١٩٥٢م .

د/ عبدالرحمن فهمي .

١٨ - النقود العربية ماضيها وحاضرها .

الهيئة العامة للكتاب ، مصر .

عبداللطيف إبراهيم .

١٩ - الدراسات الوثائقية العصر المملوكي .

دار الطباعة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦١م .

د/ عبدالمنعم ماجد .

٢٠ - نظم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر .

القاهرة ، ١٩٦٤م .

د/ على إبراهيم حسن .

٢١ - دراسات في تاريخ المماليك البحرية .

القاهرة ، ١٩٤٨م .

مارفين لابيدوس .

٢٢ - مدن الشام في العصر المملوكي .

ترجمة : د/ أكرم زعيتر ، دمشق .

محمد أحمد دهمان .

٢٣ - جبل قاسيون .

دمشق ، ١٩٤٦م .

٢٤ - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي .

دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٩٩٠م .

٢٥ - ولاة دمشق في عهد المماليك .

دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨١م .

د/ محمد أمين .

٢٦ - الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر .

القاهرة ، النهضة العربية ، ١٩٨٠م .

محمد كرد علي .

٢٧ - خطط الشام .

دمشق ، ١٣٤٦هـ .

د/ محمد مرزوق .

٢٨ - الناصر محمد بن قلاوون .
سلسلة أعلام العرب ، رقم ٢٨ ، القاهرة .

د/ محمود رزق سليم .

٢٩ - الأشرف قانصوه الغوري .
القاهرة ، بدون تاريخ .

مكي الجميل .

٣٠ - البداوة والبدو في البلاد العربية .
مطبعة النصر ، القاهرة ١٩٦٢م .

د/ نظير حسان سعداوي .

٣١ - صور ومظالم من عصر المماليك .
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٦م .

نعيم زكي فهمي .

٣٢ - طرق التجارة الدولية ومحطاتهابين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م .

وليم مويـــر .

٣٣ - تاريخ دولة المماليك .

ترجمة محمد عابدين وسليم حسن ، القاهرة ، ١٩٢٤م .

مجهـــول .

٣٤ - تاريخ سلاطين المماليك .

تحقيق زيتر شتين ، لندن ، ١٩١٩ م .

فهرس الموضوعات